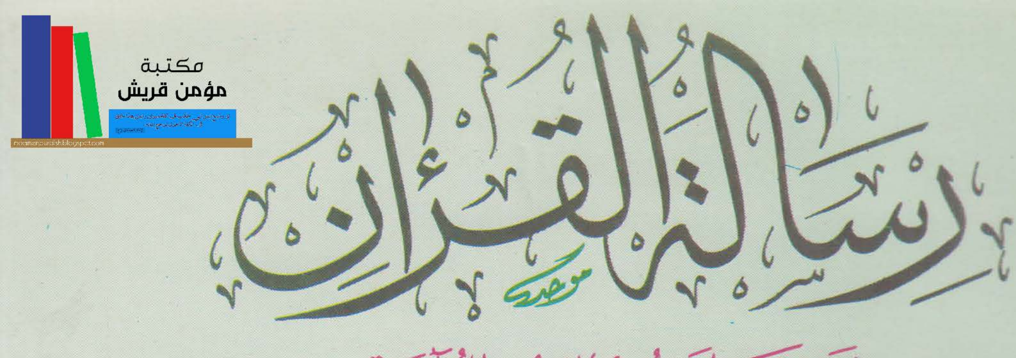


رسالة القرآن

نشرة فصلية تعنى بالشؤون القرآنية

العدد السادس • ربيع الثاني، جمادى الأولى، جمادى الثانية ١٤١٢ هـ

وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون

١٣٩٧



نشرة فصليّة تعنى بالشّؤون القرآنيّة
تصدرها دار القرآن الكريم



دار القرآن الكريم

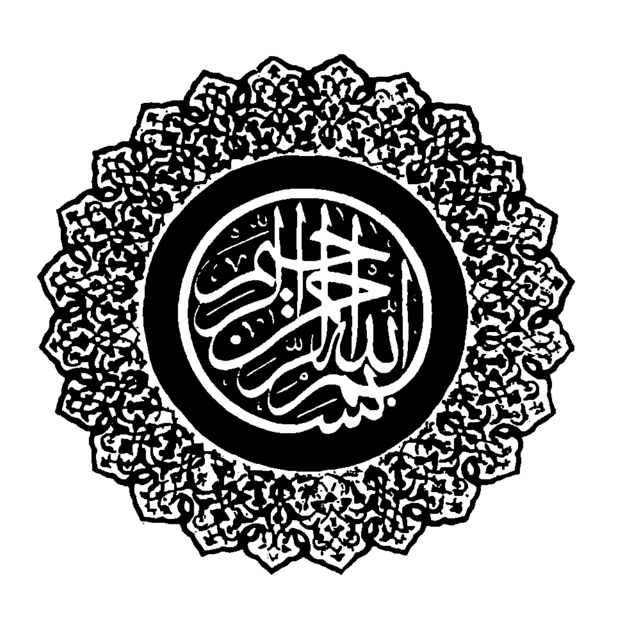
العدد السادس
ربيع الثاني،
جمادى الأولى،
جمادى الثانية ١٤١٢ هـ

المراسلات:
الجمهورية الاسلامية الايرانية
قم-دارالقرآن الكريم
ص.ب ٣٧١٨٥/١٥١

- النشرة متخصصة بالدراسات والشؤون القرآنية
- ترحب رسالة القرآن بكل نتاج ينسجم واهتماماتها القرآنية.
- ترتيب المقالات يخضع لاعتبارات فنية.
- ما يرد في المقالات من افكار يتحمل الكاتب مسؤوليتها
- النشرة غير ملزمة بأعادة المواد التي تتلقاها للنشر.

١٠٠
الثمن: ٥٠ توماناً أو مايعادلها

المحتويات



كلمة الرسالة

مستلزمات النهوض

إنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَومٍ
حَتَّىٰ يُغَيِّروا مَا بِأَنْفُسِهِم.
(الرعد:١١)



يذهبُ العديد من المفكرين، الى أن القيمة النهائية، لأي مجتمع، تُقاس بمدى مساهمته في «المسألة الحضارية». وكما أن المجتمعات تظل حية شاخصة، ما دامت قادرة على العطاء الحضاري، فإن الحضارة لا تُرتجل، ولا تُستعار، ولا تُستورد. ومن هنا تتأتى صعوبة هذه الحالة –التي هي بمثابة حشد من المعطيات، تنطلق وتنمو متى ما تظافرت عناصرها الثلاث: الإنسان، التراب، الزمن.

في المقابل: متى ما أصبح المجتمع عاجزاً عن تحريك دفة الحضارة فإن رسالته التاريخية تنتهي على الأرض. أو في الأقل تتوقف!

إذن للنهضة شروط

كما للإنحسار أسباب

* * *

قبل أكثر من عقدين، وتحديداً عام ١٣٧٨هـ (١٩٥٩) ووسط ظروف حالكة، يسودها الغموض في الموقف، والبلبلة في الرؤية، والغبش في الفكر... بسبب إحتدام ساحات المسلمين بالتيارات الوافدة... في ذلك الوقت يطل علينا العالم الرباني الشهيد السيد محمد باقر الصدر «قده»، وهو بصدد طرح مشروعه الحضاري الإسلامي، فيشخّص الداء، ويضع اللمسات الأولى والخطوط العريضة للعلاج:

«إن الشرط الأساسي لنهضة الأمة -أي أمة كانت- أن يتوفر لديها «المبدأ» الصالح الذي يحدد لها أهدافها وغاياتها ويضع لها مثلها العليا، ويرسم إتجاهها في الحياة، فتسير في ضوئه واثقة من رسالتها، مطمئنة الى طريقها، متطلعة الى ما تستهدفه من مثل، وغايات مستوحية من المبدأ وجودها الفكري، وكيانها الروحي. ونحن نعني بتوفر المبدأ الصالح في الأمة وجود المبدأ الصحيح «أولاً» وفهم الأمة له «ثانياً» وإيمانها به «ثالثاً» فإذا إستجمعت الأمة هذه العناصر الثلاثة، فكان لديها مبدأ صحيح تفهمه وتؤمن به أصبح بإمكانها أن تحقق لنفسها نهضة حقيقة، وأن توجد التغيير الشامل الكامل في حياتها على أساس ذلك المبدأ، فما كان الله ليغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، كما دلّ على ذلك التنزيل الحكيم»(أُنظر رسالتنا:١٧)

ومن نِعَم الله سبحانه، أن الأمة قد قطعت شوطاً مهماً في طريق إكتشافها للإسلام العظيم والعودة اليه، منذ اللحظة التي قيل فيها الكلام المتقدم وحتى هذه الساعة.

لقد وضعت الأمة قدميها على طريق النهوض، وها هي بوادر النهضة قد بدأت

ملامحها، بفعل الجهود الجبارة التي بذلتها حـركة الإسلام الواعية، لإيجاد التلاحم بين الإسلام من جهة وفهم الأمة له وإيمانها به من جهة أخرىٰ.

بيد أن محاولة النهوض هذه لم تمر دون عقبات كأداء –حقيقية ومفتعلة في آن واحد– ففي المقابل نجد أن هناك جهوداً حثيثة، هنا وهناك، لضـرب هذا التلاحم، وتفكيكه وصولاً الى إعـاقة الصحوة الأسلامية، وإجهاضها... وتدميـرها سواء من الداخل أو الخارج.

وفي الوقت الذي ليس بمقدور أحد أن يقلـل فيه من خطورة التحديات الصعبة التي تـواجه حركـة الإسلام الصاعـدة... لابد أن نضـع نصب أعيننا حقيقـة مهمة يعرف أعداء الإسلام كل تفصيلاتها، وربما أكثر من المسلمين أنفسهم، ألا وهي أن أمة محمـد (صلّى الله عليه وآله وسلّم) تمتلـك كل عنـاصر النهضــة، وأسباب القـوة، ومستلزمات القيادة البشرية، فهي تمتلك، كما يقول كاتب إسلامي:

«الرسالة والقيم الإنسانية السامية.

طاقات بشرية ضخمة تزيد على مليار إنسان.

ماضياً مجيداً، وتراثاً تاريخياً عظيماً.

ثروات طبيعية هائلة، وأرضاً خصبة غنية.

موقعاً إستراتيجياً فذاً.

ولديها طاقات وكفاءات علمية وفكرية. لو أحسن إستخدامها لارتقت بهذه الإمة الى مستوى علمي رفيع».

* * *

وإذا ما عـرفت الأمــة دورها القيـادي، وارتقت الـى مسؤوليتهـا التاريخيـة... وانتقلت من مـرحلة المبادئ الى مـرحلة البرامج -علـى حدّ تعبير الدكتـور حسن الترابي- وفق منهج إسلامي رصين... فلن يمر وقت طويل حتى يكون العالم وجهاً لوجـه أمام قناعـة لا مناص منهـا: ليس هناك مـن بديل حضـاري لإنقاذ البشـرية المعذبة سوى الإسلام... والإسلام وحده.

فلدينا ثـروة هائلة تشكل، في مجموعهـا، مفردات لنظرية متكاملـة عن الكون والحياة، وهــي بحاجة الــى مَنْ يشمّر ساعـد الجد، ليصوغهـا الى أطروحـات عمل تتواءم ومتطلبـات العصر وظروفـه المتغيّرة، وبـذا تصلح لأن تكون نـدّاً وردّاً على البرامج والنظريات المتبقية التي يواجهنا بها أعداؤنا بشكل مبرمج ومنهج متقن.

ومتى مـا أفلحنا في هذه الخطـوة النوعية نكـون قد أخذنـا بأيدي أبنائنـا الى الينابيع... بعيداً عن أساليب الوعظ الراكدة والتي لا تشد الجيل المسلم لإبتعادها عن التطرق الى المفاهيم التي تعالج إشكاليات الواقع وتحدياته.

وغني عن القول: أن مؤسساتنا الإسلاميـة تتحمل المسؤولية، قبل غيرها، في قيادة عمليـة الإنبعاث الحضاري الجديـدة، لإمتلاكها أدوات النهضة ومستلـزمات النهوض من جهة ولثقة الأمة بها من ناحية أخرىٰ.

فالى العمل...

﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُم وَرَسُولُـه وَالمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدّونَ إِلىٰ عَـٰلِمِ الغَيبِ وَالشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُم تَعمَلونَ﴾.(التوبة:١٠٥)

التحرير

حول إعجاز القرآن الكريم
محاولة فهم جديدة

الدكتور طه الديواني

إن مسألة إعجاز القرآن الكريم لم تزل حيّة، فلم ينقطع فيها البحث ولم يتوقف النظر، وما زال العلماء يرتادون ميدانها، ويستكشفون من وجوه الإعجاز وحقائقه ما يزيد الإيمان رسوخاً بهذه الحقيقة الأدبية.

إنَّ حقائق عالم القرآن العظيم هي مثل حقائق الكون والوجود، فالكون مظهر فعل الله تعالى، والقرآن الكريم كلام الله تعالى، فكلاهما دلائل عظمة الله وظواهر قدرته البالغة. ومن هنا فكما أنَّ الباحثين والعلماء يتنافسون، في إستجلاء حقائق الوجودات المتكثرة، في هذا الكون وصولاً الى استمطار الخير العميم، ورسوخ القناعة ببديع هندسة الوجود، وبعظمة المبدع المصور، كذلك يتبارى العلماء والباحثون، منذ نزل القرآن العظيم على نبينا محمد (صلّى الله عليه وآله وسلّم) في استجلاء حقائقه، ومحاولة اكتشاف عوالمه وخصائصه التي هي سر إعجازه الأبدي، وصولاً الى إستنزال الرحمة القرآنية والبركات الإيمانية.

ولقد رأيتُ أَن في مقدمة خصائص القرآن الكريم التي هي سرُّ إعجازه مباينته إسلوباً ومضموناً، مبنىً ومعنىً لسائر كلام البشر. وقد صرَّح غير واحد، بل صدع غير واحدٍ من العلماء بهذا.[1]

وكان من أوائل الذين أدركوا هذه الخصيصة بل هذه الحقيقة بلغاء العرب، ممن عاصروا نزول القرآن الكريم. ولا غروَ فالقرآن إنما نزل بلغتهم، كلماته عربية منها يؤلفون كلامهم، وتراكيبه عربية عليها جرت فنون خطاباتهم، في

نظمهم. وفي نثرهم، فهذا الوليد بن المغيرة، وهو من الخصوم ما إنْ يستمع الى النبي محمد عليه الصلاة والسلام وهو يتلو القرآن حتى يصيح في أعماقه، ولم يتماك أن يعلنه على الملأ من قومه، قائلاً: «ما هذا كلام البشر».[٢]

ثم يأتي مستشرقون بعد قرون وقرون، فيدرسون القرآن الكريم، ويصغون الى معانيه، فلم يجد أحدهم مناصاً إلا أن يعلن «أن هذا القرآن صدىً متفجر من قلب الكون نفسه».[٣]

وبين هذا وذاك كان فطاحل الأدباء وأفذاذ العلماء يتناوبون في تأكيد هذه الحقيقة، ويدللون عليها فكان للجاحظ حظٌ في إبراز نظم القرآن[٤] وكونه مغايراً لنظم سائر الكلام، ثم جاء المعري فخلص، بعد تدقيق وتحقيق، الى القول: «وأجمع ملحدٌ ومهتدٍ أن هذا الذي جاء به محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كتابٌ بهرَ بالإعجاز، ولقي عدوه بالإعجاز، ما حُذي على مثال ولا أشبه غريب الأمثال، ما هو بالقصيد الموزون، ولا بالرجز من سهل وحزون، ولا شاكلَ خطابه العرب، ولا سجع الكهنة ذوي الأدب، وجاء كالشمس اللائحة، لو فهمه الهضب لتصدع، وإنَّ الآية منه لتعترض في أفصح كلمٍ، يقدر عليه المخلوقون، فتكون فيه كالشهاب المتلألىء في جنح غسق، والزهرة البادية في جدوب ذات نسق...».[٥]

ثم جاء الباقلاني فتناول هذه القضية بدراسةٍ رائعة مدللاً على صحة رأيه بحجج بالغة، وبةاهين ساطعة متبعاً منهج الإستقراء والموازنة ليصل الى نظريته في أنَّ القرآن الكريم مغايرٌ، في نظمه لكلام العرب في نظمهم، وهو مباين للمألوف في ترتيب خطابهم، وله إسلوبٌ يختص به ويتميز في تصرفه، عن أساليب الكلام المعتاد».[٦] والى هذا الرأي ذهب القاضي عياض مُصرحاً: إنَّ العرب لم يهتدوا الى مثله -أي القرآن- في جنس كلامهم من نثرٍ ونظمٍ، أو سجع، أو رجزٍ، أو شعرٍ».[٧] ولو ضممنا رأي الخطابي الى ذلك أي قوله: إن القرآن الكريم جاء بأفصح الألفاظ، في أحسن نظوم التأليف مضمناً أصحَّ المعاني».[٨] لتحصل لدينا من ذلك كله أن مباينة القرآن لسائر الكلام ليس لمجرد كونه جنساً مغايراً لما كان شائعاً، من أجناس الكلام -أي النظم والنثر- بل وجه

المباينة أبعد من ذلك بكثير، وهو يتمثل في الإسلوب والمضمو ن، على حدٍّ سواء أو على الأصح ذلك المضمون معروضاً بذلك الإسلوب. وعليه فيمكن أن نتبين وجه المباينة إسلوباً بما تقررَ وتحقق، من كون القرآن ليس بنظمٍ ولا بنثر، وإن حاز من كليهما أخص خصائصهما من الرونق والعذوبة، والسلاسة، والفخامة، والتأثير البالغ في النفوس ولعلّ من مظاهر المباينة في المظهر والإسلوب فواصل الآيات التي هي كالقافية، ولكنها مغايرة لها، فقد ذكر إبن خلدون «أن القرآن تفصيل آيات التي هي كالقافية، ولكنها مغايرة لها، فقد ذكر إبن خلدون «أن القرآن تفصيل آيات ينتهي الى مقاطع يشهد الذوق بانتهاء الكلام عندها، ثم يغاد الكلام في الآية التالية بعدها، من غير إلتزام في حرفٍ يكون سجعاً أو قافية».[9] وممكن أن يضاف الى ذلك.

إنّ القرآن الكريم كما باين أساليب العرب، في إنتهاء عباراته وآياته بما إصطلح عليه بالفاصلة، وهي ليست بقافية، فقد باين كلام العرب في إبتداء كلامه، وإستنتاج جملةٍ من سوره بحروف إستفتاح هي الحروف المقطعة التي جاءت في تسع وعشرين سورة، وكانت محط إهتمام العلماء، ومثار مناقشة الباحثين والمتعمقين في القرآن الكريم. وقد حاولت دراسة هذه الظاهرة، وخلصت بعد إستقصاء الآراء، وتقليب وجوه النظر[10] الى كونها -أي الحروف المقطعة- مفردة من مفردات تميّز القرآن من سائر كلام العرب في إبتداء الكلام، فهي بهذه الدلالة إذن تأكيد لحقيقة المباينة المذكورة.

إن هاتين الظاهرتين -أي الفواصل القرآنية والحروف المقطعة- تؤكدان كون القرآن الكريم ليس بنثر وليس بشعر، فهو جنس آخر من الكلام، كما خلص الى ذلك غير واحد من الباحثين المعاصرين، ومنهم الدكتور طه حسين الذي قال: «هو ليس بشعر لأنه لم يقيد بقيود الشعر، وليس نثراً لأنه مقيد بقيود خاصة به لا توجد في غيره».[11] وقد وصف أحد المستشرقين القرآن بقوله: «إنه مثال العربية الخالصة» ثم عدّه وسطاً بين الشعر والنثر.[12]

وقال المستشرق الألماني يوهان فِك الذي إهتم بدراسة الأساليب العربية:

«إنَّ لغة القرآن تختلف إختلافاً غير يسير عن لغة الشعراء، فهي تعرض، من حيث هي أثرٌ لغوي، صورةً فذّة لا يدانيها أثر لغوي في العربية على الإطلاق...».[١٣]

وإذا كان ذلك وجهاً في مباينة القرآن الكريم لسائر الكلام، من جهة الإسلوب، فالقرآن قد باين سائر كلام البشر، وتميّز في معانيه ومضمونه إذ تضمن أصحّ المعاني، على حدّ تعبير الخطابي.[١٤] وتحقيقه كالآتي:

أنه ليس هناك كلام لكائن من كان من البشر حاشا المرسلين فيما يبلغونه عن الله تعالى، وفيما ينطقون عن الوحي الإلهي، أقول ليس هناك من كلام إلا ويعتوره التهافت، ويظهر فيه التعارض والتناقض. ومن هنا كان كلام سائر البشر مادةً للنقد، ومائدة للنقاد والباحثين، يتعقبونه تحليلاً ومناقشةً، فيكشفون ما فيه من سقطات وزلات، ويظهرون ما فيه من تناقضات. وهذه حقيقة ساطعة لا يجادل فيها إثنان. وفي تطور وتاريخ العلوم والآداب ما يسلط الضوء عليها. فالعلماء والباحثون، والأدباء والعباقرة، مهما أُوتوا من حظٍ في الفهم والألمعية، ومهما كانوا عليه من الذكاء والفِطنة، ومهما رزقوا من قوة الحجاج والمعارضة، سرعان ما يتكشف لدى العلماء والباحثين والأدباء الذين يلونهم ما وقعوا فيه من أخطاء، وما ارتكبوه من مغالطات وما وهِموا فيه... وهكذا دواليك على إمتداد الأعصر والدهور، ولا غروَ في ذلك ولا نكير، إذ تلك سنة تطور العلوم والمعارف.

إن هذه الحقيقة الكبرى، أعني حقيقة كون نتاجات البشر، ونتائج عبقريتهم وتجاربهم وبحوثهم خاضعة لناموس النقص والخلل، ووقوع التعارض إنْ على صعيد الكلام نفسه، أو مع الحقائق المكتشفة. إنما هي من المسلّمات.[١٥] فإذا جئنا الى القرآن الكريم وجدناه مغايراً لذلك كلَّ المغايرة، فهو لا يخلق على كثرة الردّ، وهو لا تفنى عجائبه، ولا تنقضي غرائبه، ولا تنكشف الظلمات إلا به.[١٦] أعلاه مثمر، وأسفله مغدق.[١٧] يؤتي أُكله كلَّ حين بإذن ربه. لا تبلى حقائقه ولا يتناقض ما جاء به، ولا يتعارض بعضه مع بعض، كما لا يتعارض مع حقائق الوجود الأبدية.[١٨]

ثم إنَّ الخصوم على كثرتهم وتضافر جهودهم وشدة حرصهم

وتطاول الزمان بهم لم يعثروا على خَطأه، ولـم يجـدوا زلـة، ولقد حـاولـوا مـرلراً، وأغـراهم طيشهـم تكـراراً، ولكنهم آبـوا خـائبين مـدحوريـن، فلم يستطيعـوا أن يحجبـوا حقـائقه، أو يُطفئـوا أنـواره، أو يحرفوه عن مواضعه. وهذا بحدّ ذاته وجهٌ من وجـوه إعجازه وهـو يستحق الـدرس والعناية.

أما ما قام به نفرٌ من ذوي الأغراض الدنيئة، من محاولات[19] معارضة القرآن الكريم، ومجـابهة التحدي القرآنـي، فقد كان مآل أمرهم أن صـاروا أُضحوكةً أبدَ الدهـر وهُزءاً. وهكذا ظـلَّ القرآن الكـريم ساطعة أنواره مشرقـةً شموسه وأقماره. وتجلت الحقيقة القرآنية، في قوله تعالى: **﴿إنّـا نَحـنُ نَـزَّلنـا الـذِكـرَ وإنّـا لَـهُ لَحَـٰفِظونَ﴾**.[20]

نخلص مـن ذلك كلـه الى أن عجـز البشـر أجمعيـن عـن مجـاراة القـرآن ومناجـزته دليلٌ ساطـع، وبرهان قـاطع على أنهم لم يهتـدوا الى مثل جنسه، وأن هممهم قد تقاصـرت دونه، وتقطعت بهم الأسباب، فما استطاعـوا مُضيّاً، ولا نالوا مـأربـاً، وإن احتشـدوا، وتضـافـرت جهودهـم. وقد قـال تعالـى: **﴿قُل لَئِنِ اجتَمَعَتِ الإنـسُ وَالجِنُّ عَلىٰ أن يَـأتُوا بِمِثلِ هَـٰذا القُرءَانِ لا يَـأتونَ بِمِثلِهِ ولَو كانَ بَعضُهُم لِبَعـضٍ ظَهيراً﴾**[21] وهذه حقيقة قـرآنية أُخرى خـالدة تجلـت على مضي الأحقاب والقرون.

وأما دعاوى الخصـوم وتلبيساتهم في وجـود تعارض بين نصـوص القرآن الكريم أو تناقض، فقد تصدى لها العلماء المتقدمون[22] وأبطلـوها بحجـج باهـرة وأدلة قـاطعة. وقد وفقنـي الله تعالـى في معالجة مثل تلك الـدعاوى والتعرض لها ومناقشتها وتفنيدها.[23]

وخلاصة ما انتهيت اليه بعد مراجعة أقاويل الخصوم ومزاعمهم أذكره بايجاز شديد تتمةً للبحث فـي القضية التي نحن بصددهـا، أعني مبـاينة القـرآن الكريـم لسـائر كلام البشـر من جهـة خلوه مـن التناقض والتعارض.

أقول: إن خلاصـة ذلك، أنَّ جُـلَّ ما أثاروه بل كلُه يتعلق بـآيات تعرض لعالم الغيب، فمنهـا ما يتصـل بأحـوال الآخرة ومـا يجـري فيها مـن سـؤال وحسـاب، ومنهـا ما يتصـل بمسألـة خلق الكـون وخلـق الأجـرام والأفـلاك مـن الأرض والسماء ومـراحل ذلك، ومنها مـا يتصل

بـذات الله تعالـى وبصفاتـه أو بمسألـة القضاء والقدر. وتكاد تكـون هذه الآيات كلها من قبيل المتشابـه الذي نبّه القرآن الكـريم عليـه، ودعـا الـى إرجاعـه الـى الراسخيـن في العلم إن أُريد فهـم معناه ومعرفة تفسيـره. ذلك أنه لا يتأتـى لكل أحدٍ منهم المـراد منه مباشرةً بـل يفتقر الى تـوسط أُمور لمعـرفته، منهـا الحسّ البلاغي والإحاطة بأساليب البيان العربي ومعرفة مـذاهب العرب في تصـرفها في الكلام، ثم حضور القرآن الكريم بجملته، لكـونه يفسـر بعضه بعضـاً. وبالجملـة يحتاج الى منهـجٍ دقيق ومعرفة بقـانون التأويل. وعند ذلك تزول الحجب وتتجلى حقـائق القرآن وانـه ﴿**كِتَـٰبٌ لا يَـأتيهِ البَـٰطِلُ مِـن بَينِ يَـدَيهِ وَلا مِـن خَلفِهِ**﴾ ويقتضـي الإشـارة هنـا الـى أن تلـك الـدعاوى البـاطلة والإفتـراءات الزائفـة ليست بـالجديدة بل هـي قديمة أثـارها اليهـود ومشـركو مكـة أولاً. وردّ عليهـا القرآن الكريم أبلغ ردٍّ فـي كثير من آياته وبيناته[٢٤]، منها قوله تعالى: ﴿**ما نَنسَخْ مِن ءَايَـةٍ أو نُنْسِها نأتِ بِخَيـرٍ مِنها أو مِثلِها**﴾[٢٥] وبـالجملـة فإن البحـث فـي مضـاميـن القـرآن الكريـم ومقـاصـده ومـراميه فـي ضوء منهـجٍ علمي سليـم يتمسك بقانـون التأويل العربـي كما نبه اليه إبن رشد[٢٦] سيقود حتماً الى النتيجة نفسهـا التـي استقـرت فـي أوسـاط المسلمين والصحابة الكرام، ومن اهتدى بهدي القـرآن، وهي كون القرآن الكـريم تتفـق أقوالـه ولا تختلـف، وأنه يصـدق بعضه بعضاً، على أنَّ أتبـاع منهج سليم فـي فهم النـص القـرآنـي أمرٌ يقتضيـه المنطق، وتفرضـه المناهج الحديثـة في البحث والدراسة وتقـرّه الأوساط العلمية والأدبية.

ومما يدلُّ على مباينة القرآن الكريم لسائر كـلام البشر هو التحدي القـرآني وطلب المعارضة، إذ لم يعهد أن أحداً من البشر يُقدّمُ اطروحةً لتغيير الحياة وبناء أُسسهـا مـن جديـد، أو يقـدّم رسـالـةً تتضمـن حلـولاً لمشكـلات الحيـاة ومعضلاتهـا، ويُقرن هذه الأطـروحة أو الـرسالـة بـالتحـدي وطلب المنـاجـزة والمعاجزة، ثـم يذهب الى أبعـد من ذلك فيتحـدى الأوسـاط الأدبيـة والقيـادات الفكريـة والعباقرة والأفذاذ، علـى إمتداد الزمـان، وعلى إمتداد رقعـة العالـم، في وسطه الأدبـي والفكري، وفـي الأوساط

الأخرى على أن يأتوا بمثـل ما جاء به أو بمثل قليل مما جاء بـه. أو كان هذا شأن القـرآن فـي قـولـه تعـالـى: ﴿قُل لَئِنِ اجتَمَعَتِ الإنـسُ وَالجِنُّ عَلىٰ أن يَـأتوا بِمِثلِ هَـٰذا القُرءَانِ لا يَـأتونَ بِمِثلِه ولَو كانَ بَعضُهم لِبَعضٍ ظهيراً﴾.[٢٧] وقال تعالى: ﴿وإن كُنتُم في رَيبٍ ممَّـا نَزَّلنا عَلـىٰ عَبدِنـا فَأتـوا بِسـورَةٍ مِن مِثلِـه وادعُوا شُهَداءَكُـم مِن دونِ اللهِ إن كُنتُم صَـٰدِقِينَ*فإن لَـم تَفعَلوا ولَـن تَفعَلوا فـاتَّقـوا النَّـارَ الَّتي وَقـودُهَـا النَّـاسُ وَالحِجَـٰرَةُ أُعِـدَّت لِلكَـٰفِرينَ﴾[٢٨] هكذا بقول حازم حـاسـم بأنهم لـن يستطيعوا ولـن يفعلوا ولـن يقتدروا وإن احتشـدوا جميعاً وتضـافرت جهودهـم وطاقـاتهم. وتمضي السنـون بل القرون فـلا تزداد هذه الحقيقة القرآنية إلا رسوخاً وإشراقاً، ولا يزداد الخصوم إلا خسـراناً وتقهقراً. فأيُّ إعجـاز أعظم من هذا، أم أيُّ بـرهان أقطع وأقوى في الدلالة على إعجاز القرآن الأبدي ومباينته سائر كلام البشر.

﴿واللهُ غَالِبٌ علىٰ أمـرِهِ ولٰكِن أكثَرَ النَّـاسِ لا يَعلَمـونَ﴾.[٢٩] هـذا والأمـر يحتاج الى مزيد تأمل ومزيد نظر.

وعسى الله تعـالـى أن يهـدينا سـواء السبيل الـى فهم كتابـه الكريم ويـوفقنا للإستمسـاك بهديه وهداه.

إنه نعم المولى ونعم النصير

هوامش البحث ومصادره

(١) الإتقان في علوم القـرآن للسيوطي٢:٥٥ طبع الحجازية بمصر ١٣٨٨هـ.

(٢) نهاية الأرب للقلقشندي ١٦:٧٢٣.

(٣) الظاهرة القرآنية مالك بن نبي:٢٣٨ نقله عن كارليل في كتابه الأبطال.

(٤) الإعجاز البياني الدكتورة عائشة عبد الرحمن «بنت الشاطىء»:٧٣ قالت: «لـم يصل الينا نظم القرآن للجاحـظ، وإنما جاءت إشارات اليـه فـي حجـج النبـوة». وانظـر البيـان والتبين١:٣٨٣في إعجاز القرآن وكيف خالف جميع الكـلام منظومه ومنثـوره. نشر دار المعارف/بمصر.

(٥) رسالة الغفران–الجاحـظ «تحقيق الدكتورة بنت الشاطىء»:٤١٠.

(٦) إعجاز القـرآن–الباقلانـي، مطبوع بهـامش الإتقان٢:٥٥.

(٧) نقله السيوطي في الإتقان ٢:٥٥.

(٨) ثـلاث رسائل فـي إعجـاز القـرآن/رسالـة الخطـابـي/تحقيـق خلـف الله. مطبعـة المعارف، بمصر/ط٢، ١٩٦٨.

(٩) المقـدمة–إبـن خلدون، فصـل في إنقسـام

الكلام الى فني النظم والنثر. وراجع ما ذكره إبن هشام في السيرة النبوية١:٢٧٠. الجامع لأحكام القرآن للقرطبي١:٧٣.

(١٠) الحروف المقطعة في القرآن الكريم -دراسة ورأي-.

(١١) في الشعر الجاهلي-الدكتور طه حسين:١٦ طبعة أُوفسيت/١٩٢٦.

(١٢) أثر القرآن في تطور النقد العربي الدكتور محمد سلام زغلول:٢٦٢. مطبعة دار المعارف/١٩٦٨-مصر.

(١٣) العربية دراسات في اللغة واللهجات والأساليب يوهان فِك، ترجمة عبد الحليم النجار ص٤-٥/ دار الكتاب العربي/القاهرة-١٩٥١.

(١٤) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن/السابق.

(١٥) راجع دراسة الكتب المقدسة على ضوء المعارف الحديثة، موريس بوكاي مطبعة دار المعارف/بمصر.

(١٦) نهج البلاغة، تحقيق الدكتور صبحي الصالح:٦١/ط١/ بيروت/ ١٩٦٧.

(١٧) راجع ما نقله إبن هشام في السيرة النبوية عن الوليد بن المغيرة في المحاورة التي جرت بينه وبين قومه ١:٢٧٠مطبعة بولاق بمصر.

(١٨) راجع: الفهم المنطقي للقرآن الكريم/الدكتور صالح الشماع/بحث منشور في مجلة كلية الأداب-جامعة بغداد/العدد ٣ لسنة ١٩٦١/ ص٩٩-١١٠.

(١٩) راجع ما نقل من محاولات المعارضة ومقدار حظّها من الحقيقة، المغني في أبواب التوحيد والعدل-القاضي عبد الجبار المعتزلي:١٦/خاص بإعجاز القرآن.

(٢٠) الحجر:٩.

(٢١) الإسراء:٨٨.

(٢٢) راجع: التنبيه والرد لأبي الحسين الملطي/الردّ على النعريلة لإبن حزم الأندلسي، تحقيق الدكتور إحسان عباس/تنزيه القرآن عن المطاعن-القاضي عبد الجبار المعتزلي.

(٢٣) راجع تفصيلاً وافياً واستقصاءً للآراء في دعوى التناقض بين نصوص القرآن الكريم د. عبد الجبار شرارة، مطبعة المعارف-بغداد/١٩٨٤. نشر المكتبة العصرية/شارع المتنبي.

(٢٤) المستشرفون والإسلام، الدكتور عرفان عبد الحميد:١٩ وما بعدها.

(٢٥) البقرة:١٠٦.

(٢٦) فصل المقال.

(٢٧) الإسراء:٨٨.

(٢٨) البقرة:٢٣و٢٤.

(٢٩) يوسف:٣١.

* * *

قصة آية

وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ!!

السيد مالك الموسوي

﴿وَمِنهُم الَّذينَ يُؤذونَ النَّبِيَّ ويَقـولونَ هـُوَ أُذُنٌ قـُل أُذُنُ خَيرٍ لكم يُؤمِنُ بـاللهِ وَيُؤمِنُ لِلمُؤمِنينَ وَرَحمَةٌ لِلَّذينَ ءامَنوا مِنكُم...﴾.[1]

كان شديد الحرصِ على حضورِ مجلس الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلّم)، ولم يكن هذا الحرص من أجل أنْ يستزيد علماً أو وعياً، وإنما من أجلِ أنْ يطلع على مخططات المؤمنين، وأوضاعهم، وتحركاتهم... ولهذا فقد كانت الأنباء تتسربُ، من خلالِهِ، الى المنافقين وأعداء الدين.

ولم يكن رسولُ الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) ولا المسلمونَ يعلمونَ بهذا «الجاسوس» الذي كان يُبدي حرصَه الكبير على التبرك في حضرة الرسول الكريم!

واستمرَّ الحالُ على هذا المنوال، رُغم أنّ المسلمين كانوا يحرصون على السرية والكتمان، فيما يخططون، لمواجهة مؤامرات الأعداء وإحباطها.

ولخطورةِ الأمر جاءَ التسديدُ الإلهي للمسيرة الإيمانية، بنزول الوحي من السماء، ليخبر الرسول القائد (صلّى الله عليه وآله وسلّم) بذلك «المنافق» الذي دسَّ نَفْسه في صفوف المؤمنين.

وتألّمَ الرسولُ القائد لتلك الحال... فاستدعاه لاستجوابه، عما يقوم به من تسريب للمعلومات، وفضحٍ للمخططات.

وما إن سَمعَ «المنافق» حديث الرسول معه، حتى راح يُقسم بأغلظ الإيمان، بأنهُ لم يفعل ذلك أبداً، وإنَّ حضوره في المجلس لم يكن إلا من أجلِ التبرِّك والإستزادة، والإستماع الى

التعاليم القيمة، والمواعظ البليغة! وربما راح يُقسم لهُ بأنَّ كُلَّ الأخبار حول قضيتهِ كاذبة ملفقة، ولا أساس لها من الصحة لا من قريب ولا من بعيد... وإنها مجردُ إشاعات وإتهامات باطلة يطلقها المغرضون الذينَ يهدفونَ الى تشويه سمعة المؤمنين العاملين المخلصين!!

ولكن الرسول القائد (صلّى الله عليه وآله وسلّم) أخبره بأنْ هذه الأنباء قد جاءَ بها الوحي من السماء!.

وبكلِّ أخلاقيةِ الرسول الكريم العالية، وأدَبِهِ الجم الرفيع، قال لهُ: «قد قبلتُ مِنكَ فلا تفعل»!

وانطلق ذلك المنافق «الجاسوس» المسكين، الى جماعتِهِ من المنافقين، فرحاً مسروراً بنجاح «لُعبته»، وتمرير مكيدته، فسألوه: ما بِكَ اليوم وقد أخذكَ الفرح والمرح؟! قال وَهُوَ يكاد ينفجر من الضحك: إنَّ محمداً أُذن!!

قالوا: وكيفَ ذلك؟!

قال: إنَّ محمداً أُذُن. أخبَرَهُ الله أنّي أنمُّ عليه، وأنقلُ أخباره فقبله، وأخبرتهُ أنّي لم أقل ولم أفعل فقبله!!

وهكذا راح المسكين غارقاً في توهماته وظنونه السيئة بذكاء القيادة الربانية وحنكتها، متصوراً بأنَّ «لُعبتُه» قد إنطلت على «الساذجين» الذينَ لا يُميِّزونَ الصدقَ منَ الكذب، والدجلَ من الحقيقة.

ونزل الوحيُ من السماء على قلبِ الرسول القائد (صلّى الله عليه وآله وسلّم) ليعلنَ تلك الحقيقة، وليضعَ الأسماء في معانيها:

﴿وَمِنهُمُ الَّذينَ يُؤذُونَ النَّبيَّ ويَقُولونَ هُوَ أُذُنٌ قُل أُذُنُ خَيرٍ لَكُم يُؤمِنُ بِاللهِ وَيُؤمِنُ لِلمُؤمِنينَ وَرَحمَةٌ لِلَّذينَ ءَامَنوا مِنكُم وَالَّذينَ يُؤذونَ رَسولَ اللهِ لَهُم عَذابٌ أَليمٌ﴾.

إن في الآية المباركة وقصتها دروساً كبيرة، وعبراً رائعة كثيرة، لابُدَّ من الوقوف عندها، والإرتشاف من عذب نميرها، ولعل من أهمها:

الدرس الأوّل: إنَّ بعض الناس لا يفهمونَ الخلق الرفيع الذي يسمو عن ردِّ الإساءة، فيعفو ويصفح ويغفر **﴿وإنْ تَعفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا﴾**.[٢]

ولذلك فإنهم يعتبرونَ ذلك المنطق المتألق في ساحة الصراع مؤشراً على بلادة العقل، وقلة الفطنة، وسذاجة الرأي.

هكذا يُفسِّر ضعفاء النفوس الأحداث، وهكذا ينظرونَ الى الأمور بعيونٍ مقلوبة، ترى القوة ضعفاً، والعقل

الكبير سذاجة، والصفح من موقع القوة والإقتدار سفاهةً. فها هو ذا المنافق المسكين في قصّتنا -كغيره من المنافقين في عصرنا-، قد إعتبر عفو الرسول الكريم وصفحه وسماحته من الأمور السلبية في الشخصية التي لا تميِّز الأقوال، ولا تعي الأحداث، ولا تملك البصيرة التي تجعلها تعيش العمق والذكاء والحنكة، ولهذا قال قولته تلك: «إنَّ محمداً أُذُن»!! أي: أنهُ لا يملك العقل الذي يُفكر، والوعي الذي يميِّز، وإنه مجرد آذانٍ تصدق كلَّ ما يطرق سمعها من أحاديث، وتطمئنُّ الى كلِّ الأقوال والأعذار حتى ولو كانت متعارضةً الى حدِّ التناقض الفاضح... «إنَّ محمداً أُذن» إنه مجرد أذن تسمع من دونِ أنْ تفكر وتعي، فهي مجردُ أُذن ليس وراءها إلا عقلٌ ساذجٌ بسيط فطير!!.

وغضبَ الله القدير لمنطق هؤلاءِ الساذجين الذينَ لا يفهمونَ معنى الخلق الرفيع، والأدب الجم، والقلب الكبير... ليعلن الحقيقة بكلِّ صراحة ووضوح وصرامة، وليتبيّن من هو الساذج الغافل المخدوع:

﴿قُلْ أُذُنُ خيرٍ لكم يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُم﴾.

فالرسول الكريم إنما يستمع إليكم أيها المنافقون، ويُصغي الى أعذاركم، ولا يجابهكم بعنفٍ وقسوة، ويحاول أن يتظاهر بقبول أعذاركم وإن كانت واهية متهافتة... كلَّ ذلك ليس لأنهُ لا يعلمُ حقيقة تحركاتكم وأقوالكم وسوء نواياكم، وإنما لأنه صاحب القلب الكبير الذي يستوعب الناس عسى أن يكون ذلك داعياً لتغيير موقفهم، وإصلاح أحوالهم.

﴿قُلْ أُذُنُ خيرٍ لكم﴾ نعم هو أذن، هذا صحيح، ولكن لا كما تذهبون اليه في تفسيركم الخاطيء والسيء... وإنما هو أذن خيرٍ لكم، «فإن إستماعهُ إستماع خير وإن لم يكن مسموعه خيراً، كأن يستمع الى بعض ما ليس خيراً لكنه يستمع اليه فيحترم بذلك قائله ثم يحملُ القول منه على الصحة، فلا يهتك حرمته ولا يسيء الظنَّ به ثمَّ لا يُرتبُ أثر الخبر الصادق المطابق للواقع عليه، فلا يؤاخذ من قيل فيه بما قيل فيه، فيكون قد إحترم إيمانه كما إحترمَ إيمان القائل الذي جاءَهُ بالخبر».(٣)

ثمَّ إنه **﴿يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾** وذلك لأنه «يصدِّق الله فيما أخبرهُ به من الوحي، ويصدِّق لنفعِ المؤمنين كل من ألقى اليه منهم خبراً بحمل فعله على الصحة وعدم رميه بالكذب وسوء النية من غير أن يرتب أثراً

على كل ما يسمعه ويستمع إليه وإلاّ لم يكن تصديقه لنفع المؤمنين... وكأن المراد بالمؤمنين المجتمع المنسوب إليهم وإن إشتمل على أفراد من غيرهم كالمنافقين وعلى هذا كان المراد بالذينَ آمنوا منهم، المؤمنون من قومهم حقاً» وبذلك يكون معنى الكلام «إنه يصدق ربه ويصدق كل فردٍ من أفراد مجتمعكم إحتراماً لظاهر حاله من الإنتساب الى المؤمنين، وهوَ رحمةٌ للذينَ آمنوا منكم حقاً لأنه يهديهم الى مستقيم الصراط»[٤]، وإن كان هناك وجوهٌ أخرى في التفسير.

الدرس الثاني: إنَّ في أساليب الأعداء القديمة الجديدة، في مواجهة الرساليين، هو إتهامهم بالسذاجة، والسفاهة، وضعف العقل الذي يصلُ في كثيرٍ من الأحيان الى الجنون **﴿وَما يَأتيهِم مِن رَسولٍ إلاّ كانوا بِهِ يَستَهزِءونَ﴾**.[٥]

ولم يكن رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) بدعاً في مواجهة تهمة «الأُذن» هذه، فقد واجهها من قبلُ أنبياء الله ورسله.

فهؤلاءِ قومُ عاد يتهمونَ النبي هود (عليه السّلام) بالسفاهة وضعف الرأي والسذاجه بقولهم:

﴿إنّا لَنَرَيكَ في سَفاهَةٍ وَإنّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الكَذِبينَ﴾[٦] ويُجيبهم هود (عليه السّلام) بكُلِّ بساطةٍ وثقةٍ وإطمئنان:

﴿يَقَومِ لَيسَ بي سَفاهَةٌ وَلَكِنّي رَسولٌ مِن رَبِّ العَلَمينَ*أُبَلِّغُكُم رِسَلَتِ رَبّي وَأنا لَكُم ناصِحٌ أمينٌ﴾.[٧]

ومرّة أُخرس توصم الأخلاقية العالية والنصح والأمانة بالسفاهة! وهؤلاءِ قوم نوح (عليه السّلام) ينظرونَ الى أصحابه الرساليين بأنهم أُناسٌ ساذجون «باديَ الرأي» أو «باديء الرأي» بقولهم:

﴿ما نَرَيكَ إلاّ بَشَراً مِثلَنا وَما نَرَيكَ اتَّبَعَكَ إلاّ الَّذينَ هُم أراذِلُنا باديَ الرَّأيِ﴾ من دونِ تروٍّ ولا تفكيرٍ ولا تعمق، «وهذه تهمةٌ كذلك توجّه دائماً من الملأ العالين لجموع المؤمنين. إنها لا تتروى ولا تفكر في إتباع الدعوات. ومن ثَمَّ فهي متهمة في إتباعها وإندفاعها، ولا يليق بالكبراء أن ينهجوا منهجها، ولا أن يسلكوا طريقها. فإذا كان الأراذل يؤمنون، فما يليق بالكبراء أن يؤمنوا إيمانَ الأراذل، ولا أن يدعوا الأراذل يؤمنون».[٨]

وقُرِئَ «باديء الرأي» بالهمز، ومعناهُ ما يبدأُ من الرأي، وهوَ الرأي الساذج الفطير!.

ويقف نوحٌ (عليه السّلام) بكلِّ قوة وصلابة وفخر بهؤلاء «الأراذل» الصامدين الصابرين المجاهدين، ويردّ

علـى هؤلاءِ «الأكـابر» قـائلاً: ﴿وما أَنَا بطارِدِ الَّذيـنَ ءَامَنوا إنَّهم مُلاقـوا رَبِّهِم وَلٰكِنِّي أرَىٰكُـم قَومـاً تَجهَلونَ*ويَـٰقَوم مَن يَنصُـرُني مِـنَ اللهِ إن طَرَدتُهـم أَفلاَ تَذَكَّرونَ﴾.[9]

ثُمَّ يقول: ﴿وَلا أَقُولُ لِلَّذينَ تَزدَري أَعيُنُكم لَن يُؤتيَهُمُ اللهُ خَيراً اللهُ أعلَمُ بما في أنفُسِهِم إنِّي إذاً لَمِنَ الظَّـٰلِمينَ﴾.[10]

هكذا يتحدى الرسـاليون الأراجيفَ والإتهامـات في سـاحة الحـرب النفسية التي تريد لهـم أنْ يشعروا بعقدةِ الحقارة فيمـا هـم عليـه مـــن الضعـف والفقـر والتـواضع والبسـاطـة... ولكنَّ شعـور المؤمنين بعزتهـم المستمدة من عزةِ الله سبحانه تجعل كُلّ تلـك الأراجيف تذهبُ هبـاءً منثـوراً، بـل لا تـزيـدهـم إلا قـوة وصلابة و إعتزازاً بعقيدتهم ومبدأهم.

الدرس الثالث: إنَّ في الآية المباركة وقصتها تصويراً رائعاً لأخلاقية الرسول القـائد وكيفية تعـامله السمـح حتى مـع أعـدائه من المنـافقيـن الـذين يشكلـون «الطابور الخامس» فـي ساحة المواجهة والصراع.

وتبلـغ الأخلاقيـة والسمـاحة الـى درجة تُغري هؤلاءِ المنافقين بأن يتهموه بالسذاجة وعدم الفطنة بقولهم «**هُوَ أُذُن**» «وهـو مـن تسميـة الشخـص بـإسم الجارحة للمبالغة في وصفه بوضيفتهما، وهو كثرة السمع لما يقال وتصديقه كأنهُ كلّه أُذن سامعة، كقولهم للجاسوس عين، ويُطلق علـى لازمه وهـوَ عدم الـدقة فـي التمييز بينَ ما يسمع، وتصـديق ما يعقل ومـا لا يعقـل، فيـراد به الـذم بـالغـرارة وسرعـة الإنخداع، وهــو من أكبـر عيوب الملوك والـرؤساء لمـا يترتـب عليه مـن قبول الغـش بالكذب والنميمة، وتقـريب المنافقين وإبعاد الناصحين».[11]

لقد كـان رسول الله (صلّى الله عليـه وآله وسلّم) يشعـر بالشقاء والعناء جرّاء ضلال الأعداء ومحاربتهم للرسـالة، فكان يدعو لهم بالهداية، ويحـرصُ كُلَّ الحرص على أن يهتدوا بنـور الرسالـة، ولهذا خـاطبَهُ القرآن الكريـم مراراً بأن يخفف مـن هذه المشاعـر الرساليـة التي تجعله فـي ألمٍ وحرقةٍ ومرارة:

﴿طـٰهٰ مـا أنزَلنـا عَلَيـكَ القُـرءَانَ لِتَشقَـىٰ*إلاّ تَذكِـرَةً لِمَن يَخشَـىٰ﴾[12]، ﴿وَمـا أكثَـرُ النـَّاسِ ولَــو حَـرَصـتَ بِمُؤمِنينَ﴾[13]، ﴿إن تَستَغفِـر لَهـم سَبعينَ مَرَّةً لَن يَغفِرَ اللهُ لَهم﴾.[14]

حتى أنـه كان يهلـك نفسه حسـرةً وألماً:

﴿فَلَعَلـَّكَ بَـٰخِعٌ نَفسَـكَ علـَىٰ ءَاثَـٰرِهِم إن لَـم يُؤمِنوا بِهَـٰذا الحَـديثِ أَسَفاً﴾.[15]

ويصـف التأريـخ لنا رسول الله (صلّى

الله عليـه وآلـه وسلـّم) بأنـه كان «متـواصل الأحـزان، دائم الفكـر، طويـل الصمـت، يتكلم بجـوامع الكلم، اذا انتهى الـى قوم جَلَسَ حيـث ينتهي به المجلـس، ويُعطي كـلَّ جُلسائِهِ نصيبـه، ولا يحسبُ أحـداً منهم أنَّ أحـداً منهم أكرمُ عليه منـه، من جـالســه صـابـره حتـى يكـون هـو المنصرف، ومن سألهُ حاجةً لم يرجع إلاّ بها... قـد وسِعَ الناسُ منه خُلُقـُه فصارَ لهم أباً، وكانوا عنده في الحق سواء.

وكان دائم البشر، سهل الخلق، ليِّن الجانـب، خفيف المؤنـة، كريـم الطبيعة، جميل المعاشرة، طليق الوجه، بسّاماً من غيـر ضحك، محـزوناً مـن غير عبـوس، متواضعاً مـن غير مذلّة، جـواداً من غير سرف...

اذا تكلـّمَ أطرق جلســاؤهُ كأنَّ علـى رؤوسهم الطير... يضحكُ مما يضحكون منه، ويتعجبُ مما يتعجبونَ منه».

هذه الأخلاقية العالية الرفيعة، وهذا الأدب الجـم، قـد أغرى أولئـكَ السفهـاء الجاهلين اللؤماء، وليس عجيباً من هؤلاءِ أن يسمـّوا كلَّ هـذا الخلق الكـريم بغيـر إسمه، ويصفوه بغيـر حقيقته، «فكلُّ إناءٍ بالذي فيـه ينضـحُ». ورحـم الله المتنبـي حينما قال:

انا أنتَ أكرَمتَ الكَريمَ مَلكتَهُ
وَإنْ أنتَ أكرَمتَ اللَئيمَ تَمَرَدا

الهوامش

---

(١) التوبة:٦١.
(٢) التغابن:١٤.
(٣) الميزان٩/ ٣١٤، (ط-بيروت)-١٣٩١هـ.
(٤) م.س.
(٥) الحجر:١١.
(٦) الأعراف:٦٦.
(٧) الأعراف:٦٧-٦٨.
(٨) في ظلال القرآن٤/
(٩) الأنفال:٢٩-٣٠.
(١٠) الأنفال:٣١.
(١١) تفسير المنار١٠:٥١٧، (ط-بيروت)-دار المعرفة (د.ت).
(١٢) طه:٢-٣.
(١٣) يوسف:١٠٣.
(١٤) التوبة:٨٠.
(١٥) الكهف:٦.

* * *

في رحاب سورة الفاتحة

الشيخ سامي الخفاجي



كثيرة هي المعاني التي يستفيدها المتدبر في سورة الفاتحة. وهنا سنحاول الوقوف على اهمها:

١ـ (بسم الله الرحمٰن الرحيم).

اـ التبرّك لابتداء القراءة لكلام الله ـ سبحانه ـ باسم الله...

ب ـ المراد بالاسم هنا المسمّى، فإذا كانت الامور كلّها بالله فلا جرم كان الحمد لله.

٢ـ (الحمدُ للهِ ربِّ العالمين).

اـ معنىٰ الحمد لله: أنّ الشكر لله؛ إذ النعم من الله.

ب ـ من يرىٰ نعمة سبّبها له غيرُ الله ـ سبحانه ـ أو قصد غير الله ـ سبحانه ـ بشكره ـ لا من حيث أنّه مسخّر من الله سبحانه ـ ففي تسميته وتحميده نقصان بقدر التفاته إلى غير الله سبحانه.

٣ـ (الرحمٰنِ الرحيم).

أحضر بقلبك عندها أنواع لطفه؛ لتتّضح لك رحمته، فينبعث به رجاؤك.

٤ـ (مالِكِ يومِ الدِّين).

اـ لا ملك إلا لله فاستثِر بذلك في قلبك تعظيمه تعالىٰ.

ب ـ وتذكّره هول يوم الجزاء والحساب الذي هو مالكه فلْيمتلِئ قلبك بالخوف منه تعالىٰ.

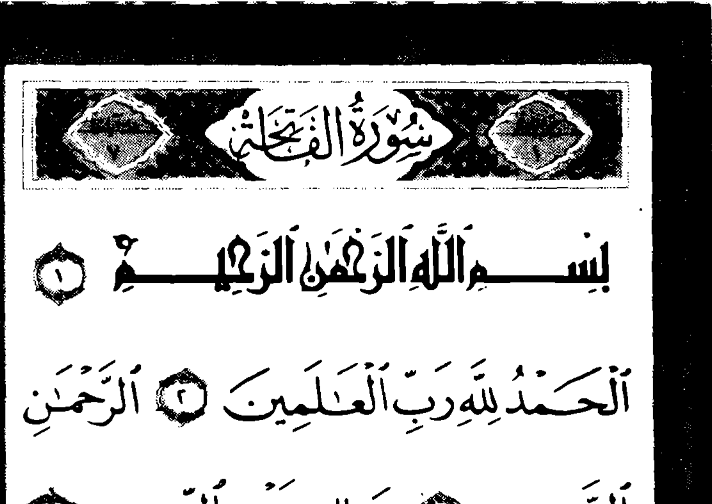
٥ـ (إيّاكَ نعبُدُ):

جدِّدْ بها الإخلاص لله تبارك وتعالىٰ.

٦ـ (و إيّاكَ نَسْتَعين).

اـ تذكّره بها عجزك وفقرك، وتبرّأْ من حولك وقوّتك.

ب ـ لولا إعانته ما تيسَّرتْ طاعتك، فله المنّة علىٰ توفيقنا لطاعته واستخدامنا لعبادته، وجعْلِنا أهلاً لمناجاته ولو حَرَمنا لكُنا من المطرودين مع الشيطان الرجيم.



سُورَةُ الفَاتِحَةِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ
ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾
إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾
ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ
ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ
عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾

٧ـ (اهدِنا الصراطَ المستقيم).

بعد التحميد والإخلاص والاستعانة عيِّنْ أهمّ حاجاتك، لتطرحها بحضرة المولىٰ العظيم والمعبود الحقّ الذي بيده كلّ شيء، وآطلُبْ منه الهداية إلىٰ الصراط المستقيم الموصل إلىٰ جواره ـ تعالى ـ والمؤدّي إلىٰ مرضاته عزّ وعلا.

٨ـ (صِراطَ الَّذينَ أنعمتَ عليهِم):

زيادة شرح وتفصيل لذلك الصراط، فهو صراط المُفاض عليهم بنعمة الهداية من النبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين؛ ليشتدّ طمعُك بحاجتك ويشتدّ إلحاحُك عليه ـ تعالى ـ في قضائها.

٩ـ (غيرِ المغضوبِ عليهِمْ وَلا الضالّين):

واستجرْ بالله من صراط المغضوب عليهم والضالّين من الكفّار والزائغين من اليهود والنصارىٰ والصابئين وغيرهم.

فضلها

ما ذكر في فضلها وفضل قارئها لا يحصيه البيان، ويمكن استفادة فضلها من أسمائها، وكفىٰ في فضلها وجوب قراءتها في جميع ركعات الصلوات الفرضيّة وجوباً تعيينيّاً أو تخييريّاً، ولا تترك في ركعات الصلوات النفليّة.

جاء عن الباقر(ع) قوله: «مَنْ لم تُبرِئْه الحمد لم يبرئه شيء»، وعن الصادق(ع) أنه قال: «لو قرأت الحمد على ميّت سبعين مرّة ثم رُدّت فيه الروح ما كان عجيباً»، وعن النبيّ(ص) أنه قال لجابر: «ألا أعلّمك أفضل سورة أنزلها الله في كتابه؟ قال: بلىٰ علّمنيها، فعلّمه الحمد أُمّ الكتاب، ثم قال: هي شفاء من كل داء إلّا السام، والسام الموت». وعنه(ص): أنّ فاتحة الكتاب أشرف ما في كنوز العرش.

«أسماؤها ومعانيها»

١ـ فاتحة الكتاب:

سمّيت هذه السورة المباركة بذلك لافتتاح المصاحف بها، ولوجوب قراءتها في الصلاة، فهي فاتحة لما يتلوها من سور القرآن، كما تفتتح بها الصلاة.

٢ـ الحمد:

سمّيت بذلك لأنّ فيها ذكر الحمد.

٣ـ أُمّ الكتاب: وسمّيت بذلك لتقدّمها على سائر سور القرآن، ولأنها جامعة لمقاصدها، وكلّ متقدّم على أمر ـ إذا كانت له توابع ـ وكل جامع تسميه العرب أُمّاً، فالجلدة التي تجمع الدماغ تسمّى أُمّ الرأس.

و (إنّ إبراهيم كان أُمّة) قيل: الأمّة

الرجل الجامع للخير، والأُمّة الرجل المنفرد بدينه لا يشركه فيه أحد.

وأُمّ القُرىٰ: اسم لمكّة لأنّها أشرفها، أو لما روي: أنّ الدنيا دُحيت من تحتها، أو لأنها قبلة الناس تؤمّها في الصلاة.

وأُمّ الحرب: الراية، وأُمّ القرىٰ: النار للاجتماع حولها ظاهراً.

وأُمّ الخبائث: الخمر لأنها تجمع كلّ شرّ والأمّ لكلّ شيء هو المجمَع والمَضَمّ، ويقال لكلّ ما كان أصلاً لوجود شيء أو تربيته أو إصلاحه أو مبدئه: أُمّ.

والفاتحة أُمّ القرآن؛ لأنها أصله أودعها الله مجموع مقاصده من إثبات الربوبية والعبوديّة.

والأُمّ: قيل: أصله أُمَّهَةْ لقولهم جمعاً أُمّهات، وتصغيراً أُميمَةٌ.

وقيل: أصله في المضاعف لقولهم: أمّات جمعاً وأُمَيْمَةٌ تصغيراً.

والأُمّة: كلّ جماعة يجمعهم أمرٌ ما إمّا دين واحد، أو زمان واحد، أو مكان

قال بعضهم. أكثر ما يقال أُمّات في البهائم وأمّهات في الإنسان.

واحد سواء كان ذلك الأمر الجامع تسخيراً أو اختياراً.

وجمعها أُمم. قال تعالى: **(وما من دابّة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلّا أُمَمٌ أمثالكم)** أي كلّ نوع منها على طريقة قد سخّرها الله عليها بالطبع، فمن بين ناسجة كالعنكبوت، وبانية كالسُّرفة ـ السُّرفة: دودة القزّ، وقيل هي دُوَيّبة غبراء تبني بيتاً حسناً تكون فيه يضرب بها المثل: أُصنَعُ من سُرْفَة ـ، ومدَّخِرة كالنمل، ومعتمدة علىٰ قوت وقته كالعصفور والحمام إلىٰ غير ذلك من الطبائع التي تخصّص بها كلّ نوع.

وقوله تعالى: **(كان الناس أمّة واحدة)** أي صنفاً واحداً، وعلىٰ طريقة واحدة في الضلال والكفر.

وقوله سبحانه: **(ولو شاء ربُّك لجَعَلَ الناسَ أمةً واحدة)** أي في الإيمان.

وقوله تعالى: **(ولتكن منكم أُمَّةٌ يدعونَ إلى الخير)** أي جماعة يتخيَّرون العلم والعمل الصالح يكونون أُسوة لغيرهم.

وقولهُ تعالى: **(إنّا وجدنا آباءنا على أمّة)** أي علىٰ دين مجتمع.

وقوله تعالى: **(وإنه في أمّ الكتاب...)** أي اللوح المحفوظ، وذلك لأن العلوم كلها منسوبة اليه ومتولدة منه.

٤ـ **السبع المثاني**: قال تعالى:

(ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم).

وجدنا آباءنا على أُمّة) أي علىٰ دين مجتمع

وقوله تعالى: **(وإنه في أُمّ الكتاب...)** أي اللوح المحفوظ، وذلك لأن العلوم كلها منسوبة اليه ومتولدة منه.

٤ـ السبع المثاني: قال تعالى: **(ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم)**.

المثاني من القرآن ما ثنّي مرّة بعد مرّة.

وقيل: فاتحة الكتاب، وهي سبع آيات يثنّى بها مع كلّ سورة.

وقيل: هي القرآن كله، ويدلّ عليه قول حسّان بن ثابت:

من للقوا في بعد حسانَ وآبنِهِ
ومن للمثاني بعد زيد بن ثابتِ

وقال الفرّاء في قوله عزَّ وجلّ: **(اللهُ نزّل أحسنَ الحديثِ كتاباً مُتَشابهاً مثاني)**: أي مكرّراً؛ أي كرّر فيه الثواب والعقاب، أو لاقتران آية الرحمة بآية العذاب.

والمثاني: من الثِّنىٰ ـ بالكسر والقصر ـ الأمر يعاد مرّتين.

ويقال: ثِنىً وثُنىً مثل مكان سِوىً، والثِّنىٰ في الصدقة: أن تؤخذ في العام مرّتين، ويروىٰ عن النبي(ص): «لا ثِنىٰ في الصدقة» أي لا تؤخذ في السنة مرّتين، وقال أبو سعيد: أن يتصدّق الرجل على آخر بصدقة، ثمّ يبدو له فيريد أن يستردّها، فيقال: لا ثِنى في الصدقة أي لا رجوع فيها.

وسُمّيت سور القرآن مثانيّ؛ لأنها تُثنّىٰ على مرور الأوقات، وتكرّر فلا تدرس، ولا تنقطع دروس سائر الأشياء التي تضمحلّ، وتبطل علىٰ مرور الأيّام.

أو لأنها تتجدّد حالاً فحالاً من فوائدها.

أو من الثناء تنبيهاً علىٰ أنّه أبداً يظهر منه ما يدعو إلى الثناء عليه، وعلىٰ من يتلوه ويعلّمه ويعمل به.

وامرأة ثِنيٌ: ولدت اثنين، ولا يقال: ثِلْث ولا فوق ذلك.

ومعنى الاستثناء من قياس الباب، وذلك أنّ ذكرة يُثنّىٰ مرّة في الجملة ـ أي إجمالاً وفي ضمن العموم ـ ومرّة في التفصيل ـ أي تصريحاً وتعييناً ـ فإذا قلت: خرج الناس إلّا زيداً، فزيد في جملة الناس، وبإلّا زيداً ذكرته مرة أُخرى تفصيلاً ذكراً ظاهراً.

والمَثناةُ: ما قُرِىء من الكتاب وكُرِّر.

فالثـاء والنون والياء أصل واحد، وهـو تكرير الشيء مرّتين أو جعله شيئين متواليين أو متباينين.

والفـاتحـة ممـا تُكـرّر قراءتها في الصـلاة وغيرها. هذا علىٰ أن المثاني من التـثنيـة، وأمّـا على أنهـا من الثنـاء فلاشتمـالهـا علىٰ ما هو ثنـاء على الله.

الواحدة: مَثْناة أو مَثْنية صفة للآية.

وقيـل لأنّ فيهـا الثناء مرّتين، وهو **(الرحمن الرحيم)** وقيـل: لأنها مقسومة بين الله وعبده: نصفها ثناء، ونصفها دعاء.

أو لأنّهـا نزلت مرّتـين ـ في مكـة والمدينة ـ تعظيماً وتشريفاً لها.

أو لأنّ حروفهـا كلّها مُثنّاة، نحو: **(الرحمن الرحيم)**، و**(إيّاك)** والصراط.

أو لأنها تثني أهل الفسق عن الفسق.

ومن قال: المراد بالمثاني القرآن كلّه فإنّ **(مِن)** في قوله تعـالى: **(من المثـاني)** يكون للتبعيض، ومن قال: إنّها الحمد كان **(مِنْ)** للتبيين.

هذه هي أسمـاء سورة الفـاتحـة المشهـورة، ومن أسمـائها غير المشتهرة: الوافية ـ أي التامّة ـ والكافية والشافية، والأساس والشكر والدعاء وتعليم المسألة والشفاء.

المصادر:

١ـ مجمع البيان للطبرسي(ره).

٢ـ بيان السعادة للجنابذي(ره)

٣ـ الكشاف للزمخشري.

٤ـ وسائل الشيعة للحرّ العاملي(ره).

٥ـ المفردات للراغب الاصبهاني.

٦ـ لسان العرب لابن منظور.

٧ـ المنجد في اللغة والأعلام.

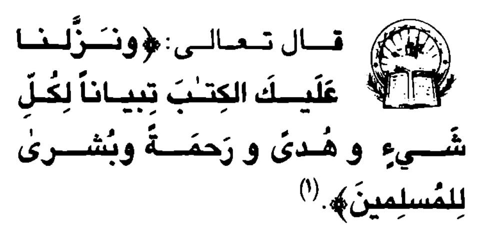
٨ـ معجم مقاييس اللغة لابن زكريا.

٩ـ المحجّة البيضاء للفيض(ره).

التفسير: نشاته وتطوّره (١)

مرحلة عهد الرسالة

الشيخ محمّد هادي معرفة



قال تعالى: ﴿ونزّلنا عَلَيكَ الكِتٰبَ تِبياناً لِكُلِّ شَيءٍ و هُدىً و رَحمَةً وبُشرىٰ لِلمُسلِمينَ﴾.[1]

إنّ في القرآن الكريم من اصول معارف الاسلام وشرايع أحكامه، الأسس الأوّليّة التي لاغنى لأيّ مسلم يعيش على هدى القرآن، ويستظل بظلّ الاسلام، أن يراجع دلائله الواضحة ويتلمّس حججه اللائحة، وإن أبهم عليه شيء فليستطرق أبواب أهل الذكر ممّن نزل القرآن في بيوتهم. فيهدوه سواء السبيل

نعم كان رسول اللّه (صلّى الله عليه وآله وسلّم) هوالمرجع الأوّل لفهم غوامض الآيات وحلّ مشاكلها، مدة حياته الكريمة، اذ كان عليه البيان كما كان عليه البلاغ. قال تعالى: ﴿وانزلنا اليك الذكر لتبيّن للناس مانزّل اليهم ولعلهم يتفكّرون﴾.[2] فكان دوره (صلّى الله عليه وآله وسلّم) لتفصيل ماأجمل في القرآن اجمالاً، وبيان ماأبهم منه. إمّا بياناً في أحاديثه الشريفة وسيرته الكريمة، أو تفصيلاً جاء في جلّ تشريعاته من فرائض وسنن وأحكام و آداب، كانت سنّته (صلّى الله عليه وآله وسلّم) قولاً وعملاً وتقريراً... كان كلها بياناً وتفسيراً لمجملات الكتاب العزيز وحل مبهماته في التشريع والتسنين. فقد كان قوله (صلّى الله عليه وآله وسلّم): «صلّوا كما رأيتموني أصلّي...» شرحاً وبياناً لما جاء في القرآن، من قوله تعالى: ﴿أقيموا الصَّلوٰةَ...﴾. وقوله: ﴿إنَّ الصَّلوٰةَ كانَت عَلَى المُؤمِنينَ كِتٰباً مَوقوتاً﴾. وكذا قوله (صلّى الله عليه وآله وسلّم): «خذوا عَنّي مناسككم» بيان وتفسير لقوله تعالى:

﴿ولِلّـهِ عَلَـى النّاسِ حِـجُّ البَيـتِ...﴾ وهكذا...

فكل ماجاء في الشـريعة من فروع أحكـام العبـادات والسنـن والفـرائض، وأحكـــام المعـــامـــلات، والأنظمـــة والسياسات، كل ذلـك تفصيل لما أجمل في القرآن من تشريع وتكليف...

وهكذا كـان الصحابة يستفهمـونه كُلّما تـلا عليهم القـرآن أو أقرأهـم آيةً او آياتٍ، كـانوا لايجوزونه حتـى يستعلموا مافيه من مرامٍ ومقاصد و أحكام، ليعملوا بها ويأخذوا بمعالمها...

أخرج ابن جـرير باسناده عـن ابن مسعود، قـال: كان الـرجل منـا اذا تعلّم عشر آيـات، لم يجـاوزهنّ حتـى يعرف معـانيهـنّ والعمــل بهــنّ... وقــال أبوعبـدالرحمـن السُّلمي: حـدثنا الـذين كانوا يقرئوننا، أنهم كانوا يستقرئون عن النبي (صلّى الله عليـه وآلـه وسلّـم) فكانوا اذا تعلمـوا عشر آيـات لـم يخلفـوها حتـى يعلموا بما فيها عن العمل... قال: فتعلّمنا القرآن والعمل جميعاً....[٣]

نعم، ربمـا كانـوا يحتشمون هيبـة الرسول (صلّى الله عليـه وآلـه وسلّـم) فتحجبهم دون مسائلته، فكانـوا يترصدون مجيء الأعراب المغتـربين عن البلاد، ليسـألوه عن مســائل، فيغتنموهــا فرصــة كانــوا يترقّبونـها.

قـال علـي (عليه السّـلام): ليـس كـل أصحاب رسول اللّه (صلّى الله عليه وآلـه وسلّم) كـان يسـألـه ويستفهمه، حتـى كـانـوا ليحبّون أن يجـيء الأعرابـى أو الطارىء فيسأله (عليه السّلام) حتى يسمعوا... قال: وكان لايمرّ من ذلك شـيء إلاّ سألتُ عنه وحفظتُه.[٤] وهكـذاحدّث أبـوأمـامة بـن سهـل بن حنيـف [اسمـه أسعد، سمّـاه بذلك رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) و دعا له وبـارك عليه[٥]] قـال: كان أصحـاب رسول اللّه (صلّى الله عليه وآله وسلّم) يقولون: إنّ اللّه ينفعنا بالأعراب ومسائلهم... قال: أقبل اعرابي يوماً فقال: يارسول اللّه، لقد ذكراللّـه في القرآن شجـرة مؤذيـة، وما كنـت أرى أن فـي الجنة شجـرة تـؤذي صاحبها! فقال رسول اللّه: وماهي؟ قال: السـدر، فان لهـا شـوكـاً! فقال رسـول اللّه:«في سـدر مخضود»[٦] يخضداللّه شوكـه، فيجعل مكان كـل شوكـةٍ ثمرةً، فإنّها تُنبِـتُ ثمراً، تَفتُق الثمرةُ معهـا عن إثنين وسبعيـن لوناً، مـامنها لـون يُشبه الآخر...[٧]

ومن ثم كان ابن مسعود يقول: واللّه الذي لا إلهَ غيره مانزلت آية في كتاب اللّه إلاّ وأنا اعلم فيم نزلت وأين نزلت... وهكذا تواتر عن الامام أميرالمؤمنين (عليه السّلام)، وتلميذه ابن عباس... وغيرهم من علماء الصحابة... حسبما يأتي في تراجمهم.(٨)

هل تناول النّبي القرآن كلّه بالبيان؟

عقد الأستاذ الذهبي باباً ذكر فيه الجدل بين فريقين، يرى أحدهما: انّ النّبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) قد بيّن لأصحابه معاني القرآن كله إفراداً وتركيباً. ويترأس هذا الفريق أحمدبن تيميّه، كان يرى انّ النبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) بين جميع معاني القرآن كما بين ألفاظه، لقوله تعالى:«لتبيّنَ للناس مانزّل اليهم». فانه يشمل الألفاظ والمعاني جميعا.(٩)

والفريق الثاني -ويترأسهم الخوئي والسيوطي- يرون انه لم يبيّن سوى البعض القليل و سكت من البعض الآخر... ثم فرض لهم دلائل، أهمها: ماأخرجه البزار عن عائشة، قالت: ماكان رسول اللّه (صلّى الله عليه وآله وسلّم) يفسّر شيئاً من القرآن إلاّ آياً بعدد، علّمه إياهنّ جبريل...(١٠)

واسهب في النقض والإبرام، وأخيراً نسب كلاًّ من الفريقين الى المغالاة، واختار هو وسطاً بين الرأيين -فيماحسب- وان النبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) بيّن الكثير دون الجميع، وترك ماستأثراللّه بعلمه، ومايعلمه العلماء، وتعرفه العرب بلغاتها ممالايعذر أحد في جهالته... قال: وبديهي ان النبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) لم يفسّر مايرجع فهمه الى معرفة كلام العرب، كمالم يفسّر مااستأثراللّه بعلمه، كقيام الساعة وحقيقة الروح، ممايجري مجرى علم الغيوب التي لم يطلع اللّه عليه نبيّه...(١١)

قلت: لم أجد، كما لا أظن أحداً ذهب الى أنّ النبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) لم يبيّن من مباني القرآن. سوى البعض القليل وسكت من الباقي (الكثير طبعاً!... بعد الذي قدّمنا، وبعد ذلك الخصم من تفاصيل الأحكام والتاليف التي جاءت في الشريعة، وكانت تفسيراً وبياناًلما أبهم في القرآن من تشريعات جاءت مجملة وبصورة كلّية... فضلاً عمابيّنه الرسول، وفضلاء صحابته، والعلماء من أهل بيته

شـرحـاً لمعضـلات القـرآن وحـلاً لمشكلاته...

امّا الـذي نسبه الـى شمس الـدين الخُوئي[١٢] وجلال الـدين السيوطـي. من ذهابهما الى ذلك، فإنّ كلامهما ناظر الى جانـب المأثـور من تفـاسير الـرسول، المنقول بالنّص، فـانه قليل[١٣] لو أغفلنا ماورويناه بـالاسناد اليه (صلّى الله عليـه وآلـه وسلّم) عن طرق أهل البيت الأئمة من عترته الطاهرة (صلوات الله عليهم) كما أغفله القوم... والاّ فالـواقع كثير وشامـل، ولاسيما اذا ضممنـا تفـاصيـل الشـريعـة (اَلسُنَّـةِ الشريفة) الى ذلـك المنقول من التفسير الصريح...

وقد جعـل السيوطـي جلّ تفـاصيل الشـريعـة الواردة فـي السنـة، تفسيـراً حافلاً بمعاني القرآن ومقاصده الكريمة. ونقل عن الامام الشافعـي: ان كل ماحكم به رسـول الله (صلّى الله عليـه وآله وسلّـم) فهو ممافهمه من القـرآن وبيّنه، وقال (صلّى الله عليه وآله وسلّم): ألا إنّي أوتيت القـرآن ومثله معه، يعني السُنة... واخيراً نقل كلام ابن تيمية الآنف، وعقّبه بالتـأييد، بماأخرجه احمد وابن مـاجة عن عمر، انـه قال: من آخر مانزل آية الربا، وان رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) قبض قبل أن يفسـرهـا... قال السيوطي: دلّ فحوى الكلام على انه (صلّى الله عليه وآلـه وسلّم) كان يفسّر لهـم كل مانـزل، وانه انمـا لم يفسّـرهذه الآيـة، لسرعـة موتـه بعد نـزولها، والاّ لـم يكن للتخصيص بها وجه.[١٤]

وأمّا حديث عائشة -لوصحّ السند، ولم يصح كمـا قالوا[١٥]- فهو ناظـر الى جانـب رعاية التـرتيب فـي تفسير الآي، أعداداً فأعداداً، او حسـب عدد الآي التي نزل بها جبرئيل... وهـذا يشير الى نفس المعنـى الذي رويـنـاه عـن ابن مسعـود وتلميذه السُّلمـي... وقد نقلـه ابن تيميـة نقلاً بالمعنى، قال السلمـي: حدثنا الذين كانـوا يقرئوننـا القرآن، أنهـم كانـوا اذا تعلّموا من النبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) عشر آيـات، لـم يجـاوزوهـا حتـى يتعلمـوا مافيهـامن العلم والعمـل، قالـوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً...[١٦]

قال الخطيب: هذا أقدم نص تاريخي عرفنـا به الطـريقة التـي كان يتعلـم بها المسلمـون الأوّلـون، كـانـوا لايُعنَـون بـالإكثـار مـن العلـم، الاّ بعـد إتقـان مايتعلّمونه منه وبعد العمل به.[١٧]

وأمّاالوسط الـذي اختاره، وأن الذي

لم يبيّنه النبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) من القرآن، هو ماستأثر الله بعلمه، كقيام الساعة، وحقيقة الروح، ومايجري مجرى ذلك من الغيوب التي لم يطلع الله عليها نبيّه...[١٨] فشيء غريب! اذ لم نجد في معاني القرآن ما استأثر الله بعلمه... ولوكان لكان الأجدر عدم انزاله، والكفّ عن جعله في متناول الناس عامّة... وقد تعرض المفسرون لتفسير آي القرآن جميعاً، حتى الحروف المقطّعة... فكيف يا ترى خفي عليهم أن لا يتعرضوا لما لايريد الله بيانه الناس؟!

اذن فالصحيح من الرأي هو: أنه (صلّى الله عليه وآله وسلّم) قد بيّن لأمته، ولأصحابه بالخصوص، جميع معاني القرآن الكريم، وشرح لهم جلّ مراميه ومقاصده الكريمة، إما بياناً بالنص، أو ببيان تفاصيل أصول الشريعة وفروعها... ولاسيّما اذا ضممنا اليه ماورد عن الأئمة. من عترته في بيان تفاصيل الشريعة ومعاني القرآن... والحمدلله.

المأثور من تفاسير الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلّم):

قد يستغرب البعض إذ يجد قلّة في التفسير المأثور عن رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) بالنّص!

لكن، لاموضع للاستغراب بعد الذي قدّمنا: اوّلاً- وفرة الوسائل لفهم معاني القرآن حينذاك. ثانياً- جلّ بيانات الشريعة كانت تفسيراً لمبهمات القرآن وتفصيلا لمجملاته. نعم، كانت موارد السؤال والإجابة عليه فيما يخصّ تفسير القرآن بالنّص قليل، نظراً لعدم الحاجة الى أكثر من ذلك حسبما عرفت. غير أن هذا القليل من تفاسير الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلّم) كثير في واقعة، قليل في نقله وحكايته. فالمأثور منه قليل لا أصله ومنبعه الأصيل.

قال جلال الدين السيوطي، الذي صحّ من ذلك قليل جداً. بل أصل المرفوع منه في غاية القلة... وقد أنها هنّ في خاتمة كتاب الاتقان الى مايقرب من مأتين وخمسين حديثاً في التفسير، مأثوراً عن النبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) بالنص.[١٩]

وهذا عدد ضئيل جداً، لانسبة له مع

عدد آي القرآن الكريم، ومواضع ابهامه الكثيرة... الأمر الذي حدا بابن حنبل ان ينكره رأساً، إلحاقاً له بالعدم. قال: ثلاثة ليس لها أُصول، أو لاأصل لها: المغازي والملاحم والتفسير. قال بدرالدين الزركشي: قال المحققون من أصحابه: يعني ان الغالب أنها ليس لها أسانيد صحاح متصلة الاسناد، والا فقد صح من ذلك كثير...[٢٠] هذا مع أن ابن حنبل قد جعل السنة برمّتها تفسيراً للقرآن، وسنذكره.

فلوضممنا سيرته الكريمة وسنّته في الشريعة، وأحاديثه الشريفة في أصول الدين وفروعه ومعارف الاسلام ودلائل الأحكام... لوضممنا ذلك كلّه... الى ذلك العدد القليل -في الظاهر- لأصبح التفسير المأثور عن عهد الرسالة، على مشرفها آلاف التحية والثناء، في حجم كبير وفي كميّة ضخمة، كان الرصيد الأوفي للتفاسير الواردة في سائر العصور...

أضف الى ذلك ماورد عن طريق أهل البيت (عليهم السّلام) من التفسير المأثور[٢١]، المستند الى جدّهم الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلّم) وهو عدد وفير يضاف الى ذلك الكثير الوارد عن غير طرقهم.

وبعد... فانّها تكون مجموعة كبيرة من التفسير المستند الى صاحب الرسالة، لها شأن في عالم التفسير عبر القرون.

أوجه بيان النبي لمعاني القرآن

قدعرفت كلام السيوطي: إن السنة بجنب القرآن شارحة وموضحة له. قال (صلّى الله عليه وآله وسلّم): «ألا إنّي أوتيت القرآن ومثله معه» مبني السنة الشريفه.[٢٢]

قال الامام جعفر بن محمّد الصادق (عليه السّلام): «إنّ اللّه انزل على رسوله الصلاة ولم يسمّ لهم ثلاثاً ولاأربعاً. حتى كان رسول اللّه -وفي رواية اخرى زيادة قوله- فنزلت عليه الزكاة فلم يسمّ اللّه من كل أربعين درهماً درهماً حتى كان رسول اللّه هوالذي فسّر ذلك لهم...».[٢٣]

ومعنى ذلك أن الفرائض والسنن والأحكام انما جاءت في القرآن بصورة إجمال في أصل تشريعاتها، امّا التفصيل والبيان فقدجاء في السنة في تفاصيل الشريعة، التي بيّنها رسول اللّه (صلّى الله

عليه وآله وسلّم) طيلة حياته الكـريمة. فكانت السنة الى جنب القـرآن تفسيراً لمواضـع اجماله وشارحة لمواضع ابهامه.

روى القرطبي بالاسنـاد الى عمران بن حُصيـن، انه قال لـرجل -كان يـزعم كفاية الكتاب عن السنة-:انك رجل أحمق، أتجد الظُهـر في كتاب اللّه أربعـاً لايجهر فيهـا بـالقـراءة! ثم عـدّد عليـه الصـلاة والزكاة ونحو هذا. ثـم قال: أتجد هذا في كتاب اللّه مفسَّراً! إن كتـاب اللّه أبهم هذا، وانّ السّنة تفسّر هذا.

وعـن حسّـان بـن عطيـة قال: كـان الوحي ينزل علـى رسول اللّه (صلّى الله عليه وآله وسلّم) ويحضره جبرئيل بـالسّنة التي تفسّر ذلك ... وعن مكحـول، قال:«القرآن أحوج الى السنة من السنة الى القرآن»... وقال يحيي بن ابي كثيـر:«السنّة قاضية على الكتـاب وليس الكتـاب بقاضٍ علـى السنة»... قـال الفضل بن زيـاد: سمعت أحمد بن حنبل -وسئل عـن هذا الحديث الذي روي ان السنة قاضية على الكتاب- فقال: ماأجسر على هـذا أن أقوله، ولكنّي اقــول: إنّ السنّـــة تفسّـــر الكتـــاب وتبيّنه...[٢٤]

وبعد... فان تبييـن مجملات القرآن، من تفاصيل واردة في السنّة، يمكن على وجوه:

الأول- مارود فـي القرآن بصـورة تشريعات كلّيّة، لاتفصيـل فيها ولاتبيين لشرائطهـا وأحكامهـا، فهذه يجـب طلب تفاصيلها من السنة، فـي اقوال الرسول وافعالـه وتقاريره، كما فـي قوله تعـالى: **﴿أقيمُـوا الصَّلـوٰةَ وءَاتُـوا الـزَّكـوٰةَ﴾**، وقوله: **﴿ولِلّهِ عَلَى النّاسِ حِجُّ البَيتِ﴾**، ومـاشـابه، مـن تكـاليـف عباديّـة جـاء تشريعهـا في القرآن بهـذا الوجـه الكلي. فلابـدّ لمعرفة اعـداد الصلاة وركعـاتها وافعـالها واذكـارهـا وسـائر شروطهـا وأحكامها[٢٥]، من مراجعـة السنة، وفيها البيان الـوافي بجميـع هذه التفـاصيل... وهكذا مسـألة الزكـاة المفروضة والحج الواجب...

وهكـذا ماجـاء فـي مختلف ابـواب المعاملات، من قوله تعالى: **﴿وأَحَلَّ اللّهُ البَيعَ وحَرَّمَ الرِّبوٰا﴾** فان للبيـع الجائز انواعاً، وللـربا احكاماً، ينبغـي طلبها من السنّة، فهي التي تحدد مـن موضوع كلّ معـاملة وتبيّـن الشرائط التـي فرضتهـا الشريعة في تفاصيل هذه المعاملات.

الثاني- عمـومات ذواتِ تخصيص،

جاء العام في القرآن وكانت موارد تخصيصه في السنّة. وهكذا مطلقات ذوات تقييد، جاء الإطلاق في القرآن، وكان التقييد في السنة. ولاشك أن التخصيص وكذا التقييد، بيان للمراد الجدّي من العام وكذا من المطلق، وهذا الذي دلّ عليه العام في ظاهر عمومه، والمطلق في ظاهر اطلاقه، انما هو المعنى الاستعمالي المستند الى الوضع او دليل الحكمة. والذي يكشف عن الجدّ في المراد، هو الخاصُّ الواردُ بعد ذلك وكذا القيدُ المتأخر. وهذا معروف في علم الأصول.

مثال الأوّل قوله تعالى: ﴿والمُطَلَّقَـٰتُ يَتَرَبَّصنَ بِانفُسِهِنَّ ثَلَـٰثَةَ قُروءٍ﴾.[٢٦] وهذا عام لمطلق المطلّقات. وفي السنة تخصيص هذا الحكم بالمدخول بهنّ. أمّا غيرالمدخول بهنّ فلااعتداد لهنّ.

وكذلك قوله -بعد ذلك-: ﴿وبُعولَتُهُنَّ أحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾ مخصوص بالرجعيّات.

ومثال الثاني [تقييد المطلق] قوله تعالى: ﴿ومَن يَقتُلْ مُؤمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزاؤُهُ جَهَنَّمُ خالِداً فيها و غَضِبَ اللّهُ عَلَيهِ ولَعَنَهُ وأعَدَّ لَهُ عَذاباً أليماً﴾[٢٧] وقد تقيّد هذا الاطلاق بما اذا لم يَتُب، وكان قد قتله لإيمانه، كما رواه العياشي عن الامام الصادق (عليه السّلام).[٢٨]

وقوله تعالى: ﴿ألَّذينَ ءامَنوا ولَم يلبِسوا إيمـٰنَهُم بِظُلمٍ أولَـٰئِكَ لَهُمُ الأمنُ وهُم مُهتَدونَ﴾[٢٩] اذ ليس المراد مطلق الظلم، بل هو الشرك خاصّة. روي ذلك عن رسول اللّه (صلّى الله عليه وآله وسلّم)[٣٠] وهكذا فسّر اليد «في القطع بالسرقة»[٣١] باليمين من مفصل الاصابع. ومثله جلد الزاني المتقيد بغير المحصن.

وايضاً قوله تعالى: ﴿مِن بَعدِ وَصِيَّةٍ يوصىٰ بِها أو دَينٍ﴾[٣٢] فقد كان الميراث بعد اخراج ماأوصى به الميت وكذا دينه. فالدين مطلق، أمّا الوصيّة فقيّدت بما اذا لم تتجاوز ثلث التركة بعد وضع الدين. فهذا التقييد تعرضت له السنة، وكان قد أبهم في القرآن ابهاماً.

الثالث- ما اذا ورد عنوان خاص في القرآن، وكان متعلّقاً لتكليف او قيداً في عبادة مثلاً، ولكنه كان مصطلحاً شرعياً من غير ان يكون مفهومه العام مراداً، فهذا ايضاً مما يجب تبيينه من السنه. وهذا في جميع المصطلحات الشرعية

-اي الحقائق الشرعيّة على حدّ تعبيرهم- ممالم تكن لها سابقة في العرف العام.

وهذا كما في الصلاة والزكاة والحج والجهاد وماشاكل، إنها مصطلحات شرعيّة خاصة[٣٣]، لابدّ لمعرفة حقائقها وماهيّاتها من مراجعة الشريعة، كما كان يجب الرجوع اليها لمعرفة أحكامها وشرائطها. اذ ليست الصلاة مطلق الدعاء والمتابعة -كما هي في اللّغة والعرف العام غيرالاسلامي- بل عبادة خاصة ذات كيفية وافعال واذكار خاصة، أعلن بها الشرع المنيف، وتصدى لبيانه الرسول الكريم، قال:«صلّوا كما رأيتموني أُصلّي».

وهكذا ليست الزكاة مطلق النّمو، بل انفاق خاصّ في كيفية خاصّة، توجب تنمية المال بفضل اللّه تعالى، إن وقعت عن صدق واخلاص. الامر الذي جاء تبيينه في السنة الشريفة. ومثلها الحج ليس مطلق القصد، وكذا الجهاد ليس مطلق الاجتهاد والسعي، وهكذا...

وكذلك موضوع الخطأ والعمد في القتل، تعرّضت السنة لبيانهما، وليس مطلق مايفهم من هذين اللفظين لغةً او في المتفاهم العام! فقد جاء في السنة ان الخطأ محضاً هو مالم يكن المقتول مقصوداً أصلاً. أمّا اذا كان مقصوداً ولكن لم يقصد قتله -بأن لم يكن العمل الذي وقع عليه ممايُقتل به غالباً- فوقع قتله اتفاقاً، فهو شبيه العمد. أمّا اذا كان مقصوداً بالقتل، فهو العمد محضاً. فهذا التفصيل والبيان انما تعرضت له السنة تفسيراً لما أبهم في القرآن من بيان هذه المفاهيم.

الرابع- موضوعات تكليفيّة تعرض لها القرآن من غير استيعاب ولاشمول، اذ لم يكن الاستقصاء مقصوداً بالكلام، وانما هو بيان أصل التشريع وذكر جانب منه مما كان موضع ابتلاء ذلك الحين. ومن ثم يبدو ناقصاً غيرمستقصى، ومجملاً في الشمول والبيان. اما الاستقصاء والشمول فالسنة الشريفة موردها، ففيها البيان والكمال... كمالم تأت في القرآن شريعة رجم المحصن، وانما فصلته السنة عن مطلق حكم الزاني الوارد في القرآن.

ومثل أحكام الخَطَأ والعمد في القتل لم يتعرض لهما القرآن باستيعاب، اذ هناك خَطَأ محض، وشبه العمد، والعمد المحض. ليترتب على الأول ان الدية على

العاقلة، وعلى الثاني كانت الدية على القاتل. وفي الثالث كان تشريع القصاص هو الأصل إلاّ إذا رضى الأولياء بالدية او العفو. فهذا الاستيعاب والاستقصاء انما تعرضت له السنة، فأكملت بيان القرآن ورفعت من ابهامه في هذا الجانب الذي كان يبدو مجملاً لو كان بصدد البيان ولم يكن أصل التشريع مقصوداً فقط.

الخامس- بيان الناسخ من المنسوخ في أحكام القرآن. اذ في القرآن أحكام اوليّة منسوخة، وأحكام اخر هي ناسخة نزلت متأخراً. فلتمييز الناسخ من المنسوخ لابدّ من مراجعة السنة، أمّا القرآن ذاته فلاتمييز فيه بين ناسخه ومنسوخه، ولاسيّما والترتيب الراهن بين الآيات والسور، قد تغير عماكان عليه النزول إمّا في الجميع أو في البعض. اذن فلم يبق لمعرفة وجه التمايز بين الحكم المنسوخ والحكم الناسخ الاّ مراجعة نصوص الشريعة. ومن ثم قال مولانا أميرالمؤمنين (عليه السلام) لقاضٍ مرّ عليه بالكوفة: أتعرف الناسخ من المنسوخ؟ فهاب الامام وأجاب بالنفي! فقال له الامام، إذن هلكت وأهلكت.[٣٤]

فمن ذلك قوله تعالى -بشأن المتوفى عنها زوجها- ﴿الَّذينَ يُتَوَفَّونَ مِنكُم ويَذَرونَ أزواجاً وَصِيَّةً لأزواجِهِم مَتـاعاً إلَى الحَولِ غَيرَ إخراجٍ﴾[٣٥].

كانت الشريعة في البدء أن المرأة المتوفى عنها زوجها، لاميراث لها سوى الإمتاع من التركة حولاً كاملاً. وكان ذلك عدتها أيضاً. لكنها نسخت بآية المواريث[٣٦] وبآية التربّص أربعة أشهر وعشراً[٣٧]. «وآيه التربّص الناسخة مثبتة في سورة البقرة قبل آية الحول المنسوخة»!

هكذا ورد في الحديث عن الإمام اميرالمؤمنين (عليه السّلام) وعن الإمامين الباقر والصادق (عليهماالسلام).[٣٨]

ومن ذلك ايضاً آية جزاء الفحشاء، فما في سورة النساء[١٥-١٦] منسوخة بشريعة الجلد[سورة النور: ٢] والرجم. هكذا ورد عن الامام الصادق (عليه السّلام).[٣٩]

ونظير ذلك كثير، ولاسيما اذا عمّمنا النسخ ليشمل التخصيص والاستثناء وسائر القيود، ايضاً وقد كان معهوداً ذلك الحين.

نماذج من تفاسير مأثورة عن النبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم):

قلنا: ان الصحابة كانوا في غنيً في الأغلب عن مسائلة الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلّم) بشأن معاني القرآن، أو كانوا يحتشمون سؤاله، لِما كان القرآن قد نزل بلغتهم، وفي مناسبات كانوا هم حضور مشهدها. وأحياناً اذا كان ابهام في وجه آية او خفي المراد من سياقها، كانوا يراجعونه لامحالة، وفي الأكثر كاوا يترصّدون أسئلة الأعراب أو الطارئين فيتبادرون الى تفهّم مايجري بينهم وبين الرسول بشأن معاني القرآن. حتى قالوا: انّ اللّه ينفعنا بالأعراب ومسائلهم.[٤٠]

وبعد فقد جُمع من هذا وذاك حشد كبير من تفاسير مأثورة عن رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) رواها أئمة الحديث في امهات الجوامع الحديثية المعروفة...

والأكثر سؤالاً انما وقع عن مرادات القرآن، بعد وضوح الكلمة في مفهومها اللغوي، حيث ظاهر اللفظ ينبئُ عن شيء، لكن المراد غير هذا الظاهر المفهوم حسب دلالة الوضع، او يشك في ارادة هذا الظاهر، لقرائن حاليّة او مقاليّة، تبعث على السؤال عن المراد الواقعي... ولنذكر منها نماذج:

فقد سئل النبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) عن «السائحين» في قوله تعالى: ﴿التّٰئِبونَ العٰبِدونَ الحٰمِدونَ السّٰئِحونَ الرّٰكِعونَ السّٰجِدونَ﴾[٤١]. فقال: هم الصائمون[٤٢]. فلا غموض في معنى السياحة، ولكن أيّ مصاديق السياحة مقصودة هنا؟ ولعلّ هنا استعارةً جاءت لأمر معنوي، ممايدعو الى السؤال عنه ومراجعة اهل الذكر. قال الطبرسي: السائح من ساحَ في الأرض يسيح سيحاً اذا استمر في الذهاب، ومنه السيح للماء الجاري. ومن ذلك يسمّى الصائم سائحاً، لإستمراره على الطاعة في ترك المشتهى... قال: و روي عن النبي انه قال: «سياحة أمّتي الصيام».[٤٣]

وسئل عن الاستطاعة في قوله تعالى: ﴿ولِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ البَيتِ مَنِ استَطاعَ إلَيهِ سَبيلاً﴾[٤٤] قال (صلّى الله عليه وآله وسلّم): «الزاد والراحلة»[٤٥]. فان مفهوم الاستطاعة عام يشمل ايّ نحو من الاستطاعة وبأيّ وسيلة مقدورة وكانت بالإمكان. غير أن هذا غير مراد بالاستطاعة الى الحج الواجب. فبيّن (عليه

السّلام) انه القدرة على الـزاد والراحلة، ان كان ذلـك بوسعـه من غيـرتكلّف. وهـذا كناية عـن الاستطاعة الماليـة، كما فهمه الفقهاء رضوان اللّه عليهم.

وهكذا لما سألته عائشة عن الكسوة الـواجبة فـي كفارة الأيمـان، فـي قولـه تعـالـى: ﴿فَكَفَّـٰرَتُهُ إطعـامُ عَشَـرَةِ مَسـٰكِينَ مِن أَوسَطِ ما تُطعِمونَ أَهليكُم أو كِسوَتُهُم﴾[٤٦]، أجاب (صلّى الله عليـه وآله وسلّم): «عباءة لكلّ مسكين».[٤٧]

وسألـه رجل مـن هذيـل عن قـوله تعالى: ﴿ومَن كَفَـرَ فإنّ اللّـهَ غَنـيٌّ عَـنِ العـٰلَمينَ﴾[٤٨]، قال: يـارسول اللّـه، من تركه فقد كفر؟! نظراً لأن هذا العنوان [من كفر] اطلق على من ترك الحج! فقال (صلّى الله عليه وآله وسلّم): «من تركه لايخاف عقوبته ولايرجو مثوبته»[٤٩]، كنايـة عمّن تـركه جحـوداً لايؤمـن بعـاقبتـه، فهذا كـافـر بالمعـاد وبيوم الجزاء والحسـاب. الأمر الـذي يعود الـى انكار ضـروريّ الديـن وانكار الشريعـةَ رأساً. أمّا الذي تـركه لا عن نكران فهو فاسق عاصٍ وليس بكافرٍ جاحد.

وهكـذا روي عـن الامـام مـوسـى الكاظم (عليه السّلام) حينما سأله أخوه علي بن جعفر: من لم يحجّ منّا فقد كفر؟! قال: لا، ولكـن من قـال: ليس هـذا هكذا فقـد كفر.[٥٠]

وسئل عن قوله تعالى: ﴿كَما أنزَلنا عَلَى المُقتَسِمينَ*الَّذينَ جَعَلوا القُرءَانَ عِضينَ﴾[٥١]، مامعنـى «عضين»؟ فقـال (صلّى الله عليه وآله وسلّم): «آمنوا ببعض وكفروا ببعض».[٥٢]

عضـون جمع عُضَـة بمعنى عُضـو، كقـولهـم: ثُبَـة و ظُبَـة، والجمـع ثِبُـون وظِبُـون. ومعنى العضيـن جَعلُه عضـواً عضواً اي فـي اجزاء متفرقة كـالتعضية بمعنى التفرقة. فهو تجزئة الأعضاء.

فالآيـة الكريمـة إنكار علـى الذيـن فـرّقـوا بيـن أجزاء القـرآن. الأمـر يثيـر السـؤال عـن المـراد مـن هـذه التجـزئة المستنكرة؟ ومـن ثم كـان الجواب: إنمـا التفـرقة فـي الإيمـان بـالبعض والكفـر بالبعض!

وسئـل عـن قـولـه تعـالـى: ﴿فَمَن يُـرِدِاللّـهُ أن يَهـدِيَـهُ يَشـرَحْ صَـدرَهُ لِلإسلـٰمِ﴾[٥٣]، كيف يشرح صدره؟ قال (صلّـى الله عليـه وآلـه وسلّـم): «نور يُقـذفُ به فينشرح له وينفسـح!» قالوا: فهل لـذلك أمارة يعـرف بها؟ قـال: «الإنابـة الى دار

الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل لقاء الموت».[٥٤]

وسأله عبادة بن الصامت[٥٥] عن قوله تعالى: ﴿**لَهُمُ البُشرىٰ في الحَيوٰةِ الدُّنيا وفي الآخِرَةِ**﴾[٥٦] ماذا تكون تلك البشارة؟ قال (صلّى الله عليه وآله وسلّم): «هي الرؤيا الصالحة يراها الرجل، أو تُرى له».[٥٧]

و روى الكليني في الكافي والصدوق في الفقيه باسنادهما عن النبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) قال: «البشرى في الحياة الدنيا هي الرؤيا الحسنة يراها المؤمن فيبشّر بها في دنياه». و زاد في الفقيه: وأمّا قوله في الآخرة. فإنها بشارة المؤمن عند الموت، يبشّر بها عند موته: أنّ الله عزّوجلّ قد غفر لك ولمن يحملك الى قبرك...». وقال علي بن ابراهيم القمّي: وفي الآخرة، عند الموت، وهو قوله تعالى: ﴿**الّذينَ تَتَوَفّيٰهُمُ المَلـٰئِكَةُ طَيّبينَ يَقولونَ سَلـٰمٌ عَلَيكُمُ ادخُلُوا الجَنَّةَ بِما كُنتُم تَعمَلونَ**﴾.[٥٨]

وسئل عن قوله تعالى: ﴿**الّذينَ يُحشَرونَ عَلىٰ وُجوهِهِم إلىٰ جَهَنَّمَ أوْلٰئِكَ شَرٌّ مَكاناً و أضَلُّ سَبيلاً**﴾[٥٩] كيف يحشر اهل النار على وجوههم؟ فقال (صلّى الله عليه وآله وسلّم): «ان الذي أمشاهم على أقدامهم قادر أن يمشيهم عل وجوههم».[٦٠]

وبهذا المعنى آية أخرى اوضحت الحشر على الوجوه بالسحب على وجوههم، قال تعالى: ﴿**يَومَ يُسحَبونَ في النّارِ عَلىٰ وُجوهِهِم ذوقوا مَسَّ سَقَر**﴾[٦١] وقوله: ﴿**ونَحشُرُهُم يَومَ القيـٰمَةِ عَلىٰ وُجوهِهِم عُمياً وبُكماً وصُمّاً**﴾.[٦٢]

وأخرج الحاكم بإسناده الى الأصبغ بن نباتة –وقال: انه أحسن الروايات في هذا الباب– عن الامام أميرالمؤمنين (عليه السّلام)، قال: لما نزلت الآية ﴿**فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ**﴾ قال رسول اللّه (صلّى الله عليه وآله وسلّم): ياجبرئيل، ماهذه النحيرة التي امرني بها ربّي؟ قال: إنها ليست بنحيرة، ولكنه يأمرك اذا تحرّمت للصلاة ان ترفع يديك اذا كبّرت و اذا ركعت و اذا رفعت رأسك من الركوع، فانها صلاتنا وصلاة الملائكة الذين في السماوات السبع[٦٣].

وفي رواية اخرى زيادة قوله: إنّ لكل شيء زينة، و زينة الصلاة رفع الأيدي... قال (صلّى الله عليه وآله وسلّم): رفع الأيدي من الاستكانة التي قال اللّه –عزوجل–: ﴿**فَمَا**

اسْتَكانوا لِرَبِّهِم ومايَتَضَرَّعونَ﴾.(٦٤)

وسألته أم هانيء (بنت ابى طالب) عن المنكر الذي كان قوم لوط يأتونه في ناديهم، حيث قوله تعالى: **﴿وتَأتونَ في نادِيكُمُ المُنكَرَ﴾**(٦٥)؟ فقال: (صلّى الله عليه وآله وسلّم): «كانوا يخذفون اهل الطريق ويسخرون».(٦٦)

ولعل هذا كان بعض أعمالهم المنكرة، ففي المجمع: كانت مجالسهم تشتمل على أنواع من المناكير والقبائح، مثل الشتم والسخف والصفع والقمار وضرب المخارق وخذف الاحجار على المارين وضرب المعازف والمزامير وكشف العورات واللواط.. وقيل:كانوا يتضارطون من غير حشمة ولاحياء.(٦٧)

وربما سألوه عن عموم حكم وشموله لبعض ما اشتبه عليهم أمره، فقد سأله جرير بن عبد الله البَجَلي(٦٨) عن نظرة الفجأة، وقد قال تعالى: **﴿قُل لِلمُؤمِنينَ يَغُضُّوا مِن أبصـٰرِهِم..﴾**(٦٩)، فهل يشمل عموم الأمر بالغض لما اذا كانت النظرة فجأةً وهي غير إراديّة؟

قال جرير: فأمرني (صلّى الله عليه وآله وسلّم) ان اصرف بصري(٧٠).اي اذا لم يداوم في النظرة وصرف ببصره من فوره.

وعن ابي جعفر الباقر(عليه السّلام)قال:جاء رجل الى النبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) وسأله عن أمر اليتامى، حيث قوله تعالى: **﴿وءَاتُوا اليَتـٰمىٰ أمـٰولَهُم ولاتَتَبَدَّلوا الخَبيثَ بِالطَّيِّبِ ولاتَأكُلوا أمـٰولَهُم إلىٰ أمـٰولِكُم إنَّهُ كانَ حُوباً كَبيراً** -الى قوله- **ولاتَأكُلوها إسرافاً وبِداراً أن يَكبَروا ومَن كانَ غَنِيّاً فَلْيَستَعفِفْ ومَن كانَ فَقيراً فَلْيَأكُلْ بِالمَعروفِ..﴾**(٧١). فقال:يارسول الله، ان أخي هلك وترك أيتاماً ولهم ماشية، فما يحلّ لي منها؟فقال رسول الله: ان كنت تليط حوضها، وتردّ ناديتها، وتقوم على رعيتها، فاشرب من ألبانها، غير مجتهد ولاضار بالولد، والله يعلم المفسد من المصلح(٧٢). وهذا معنى قوله تعالى: **﴿ويَسئَلونَكَ عَنِ اليَتـٰمىٰ قُل إصلاحٌ لَهُم خَيرٌ وإن تُخالِطوهُم فَإخوانُكُم واللّهُ يَعلَمُ المُفسِدَ مِنَ المُصلِحِ..﴾**.(٧٣)

وأحياناً كانت الأسئله لغويّة، على ما اسبقنا أن القرآن أخذ من لغات القبائل كّلها، وربما كانت اللفظة المتداولة في قبيلة، غير معروفة عند الآخرين.

من ذلك ما سأله قطبة بن مالك الذبياني[٧٤] عن معنى «البُسوق» من قوله تعالى: ﴿والنَّخلَ باسِقٰتٍ لَها طَلعٌ نَضيدٌ﴾[٧٥]. قال: ما بُسُوقها؟ فقال (صلّى الله عليه وآله وسلّم): طولها[٧٦]. قال الراغب: باسقات اي طويلات. والباسق هو الذاهب طولاً من جهةالارتفاع. ومن بَسَق فلان على اصحابه: علاهم.

-وسأله عبد الله بن عمرو بن العاص عن الصور في قوله تعالى: ﴿ونُفِخَ في الصّورِ﴾[٧٧].قال (صلّى الله عليه وآله وسلّم): هو قرن ينفخ فيه.[٧٨]

-وعن الامام جعفر بن محمد الصادق (عليه السّلام) قال: قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) في قوله تعالى: ﴿فَتَقعُدَ مَلوماً مَحسوراً﴾[٧٩]-: الإحسار الإقتار.[٨٠]

الحسر: كشف الملبس عما عليه. والحاسر: من لا درع له ولا مخفي. وناقة حسير:إنحسر عنها اللحم والقوة. والحاسر: المُعيا، لانكشاف قواه.

اذن فالمحسور:من إفتقد اسباب المعيشة التي أهمها المال..وليس من الحسرة كما توهم! فصح تفسير المحسور بالمُقتِر، لان القتر فقد النفقة او تقليلها والمقتِر:الفقير.

-وربما كانت شدةُ لحن الآية تخيفهم، فكانوا يراجعونه (صلّى الله عليه وآله وسلّم) رجاء ان تخفّ عليهم وطأتها! من ذلك ما رواه محمد بن مسلم عن الامام ابي جعفر الباقر (عليه السّلام) قال: لما نزلت الآية: ﴿مَن يَعمَلْ سُوءاً يُجزَ بِهِ﴾[٨١]، قال بعض اصحاب رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) :ما أشدّها من آية! فقال لهم رسول الله: أما تُبتلون في اموالكم وأنفسكم وذراريكم؟ قالوا: بلى. قال: هذا مما يكتب الله لكم به الحسنات ويمحو به السيئات.[٨٢]

-وسئل فيما النجاة غداً؟ فقال (صلّى الله عليه وآله وسلّم) :«النجاة ان لا تخادعوا الله فيخدعكم، فإنه من يُخادع الله يخدعُه ويخلعُ منه الإيمان، ونفسَه يخدعُ لو يشعر!».

قيل: كيف يخادع الله؟ قال:«يعمل بما امره الله ثم يريد به غيره، فاتقوا الله واجتنبوا الرياء فانه شرك بالله.»[٨٣] وذلك قوله تعالى: ﴿إنّ المُنٰفِقينَ يُخٰدِعونَ اللّهَ وهُوَ خٰدِعُهُم وإذا قاموا إلَى الصَّلوٰةِ قاموا كُسالىٰ يُراءُونَ النّاسَ﴾.[٨٤]

-ولما نـزلت الآيـة: ﴿وإن تَتَوَلَّوا يَستَبدِلْ قَومـاً غَيرَكُـم ثُـمَّ لايَكونـوا أَمثـٰلَكُم﴾[٨٥].قالـوا: يارســول الله، مـن هـؤلاء الــذيـن اذا تـولّينـا استبـدلـوا بنا؟!-وسلمان الـى جنبه- فقال (صلّى الله عليه وآلـه وسلّم) : هم الفرس. هـذا وقومه... وفي رواية الطبري: فضـرب على منكب سلمـان وقال: مـن هذا وقـومه. والـذي نفسي بيـده لو ان الـدين تعلّـق بالثـريّا لنالته رجال من اهـل فارس.. وفي رواية البيهقي: لـو كان الإيمان منـوطاً بالثـريّا لتناوله رجال من فارس.[٨٦]

-وربما سألوه (صلّى الله عليه وآله وسلّم) عن غير الأحكام مما جاء ذكره في القرآن إجمـالاً، فبعثهـم حبُّ الاستطـلاع علـى السـؤال عنه. مـن ذلك سـؤال فروة بـن مسيك المرادي[٨٧] عـن«سبأ»: رجـل أو امرأة أم ارض؟ فقال (صلّى الله عليه وآله وسلّم) : هو رجـل وَلَد عشرةً مـن الولد، ستـةٌ من ولـده باليمـن، وأربعـة بـالشام. فـأمـا اليمــانيـون فمــذحـج وكنــده والازد والأشعريون وانمار وحميـر، خير كلها. وامـا الشاميـون فلخم وجـذام وعاملـة وغسان.[٨٨]

قال الطبـرسي: سبأ، هو أبـو عرب اليمن كلهـا، وقد تُسمّـى به القبيلـة[٨٩] وهو الظاهر من عود ضمير العقلاء اليهم فى قـوله تعـالى: ﴿لَقَد كـان لِسَبَإٍ فـي مَسكِنِهِم ءَايَةٌ جَنَّتانِ عَن يَمينٍ وشِمالٍ كُلوا مِـن رِزقِ رَبِّكُم وَاشكُروا لَـهُ بَلدَةٌ طَيِّبَةٌ ورَبٌّ غَفورٌ﴾.[٩٠]

-وسأله ابو هريرة عن قوله تعالى: ﴿وجَعَلنا مِنَ الماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾[٩١]، قال: أنبئني عن«كل شيء»؟ قال (صلّى الله عليـه وآلـه وسلّـم) «كـل شـيء خلـق مـن الماء»[٩٢]. بمعنى أن المـاء اصل الحيـاة، حيواناً كان أم نباتـاً. وورد في الحديث: أولّ ما خلق الله الماء.[٩٣]

-أحياناً كان (صلّى الله عليـه وآله وسلّـم) يتصدى لتفسير آية او آيات لغرض العظة او الاعتبـار، كـالــذي رواه ابـو سعيـد الخدري[٩٤] عن رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) في قولـه تعالى:﴿تَلفَحُ وُجوهَهُمُ النّارُ وهُم فيها كـٰلِحونَ﴾[٩٥]. قال (صلّى الله عليـه وآله وسلّـم) : تشويها النـارُ فتتقلّص شفاهها العليا حتى تبلغ وسط الرؤوس، وتسترخـي شفاههـا السفلى حتـى تبلغ الأسرّة. أخـرجه الحـاكم وقـال: صحيح الإسناد.[٩٦]

-وعن ابـى هريـرة، قال:قـرأ النبي

(صلّى الله عليه وآله وسلّم) : ﴿يَومَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخبارَها﴾ ثم قال: أتدرون ما أخبارها؟ قالو: الله ورسوله أعلم؟ قالا: أن يشهد على كل عبدٍ وأمةٍ بما عمل على ظهرها، تقول: عمل كذا وكذا في يوم كذا وكذا...[97]

-وعن ابي الدرداء[98] قالك سمعت رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) قرأ: ﴿ثُمَّ أَورَثْنَا الكِتٰبَ الَّذينَ اصطَفَينا مِن عِبادِنا فَمِنهُم ظٰلِمٌ لِنَفسِهِ ومِنهُم مُقتَصِدٌ ومِنهُم سابِقٌ بِالخَيراتِ بِإذنِ اللّهِ ذٰلِكَ هُوَ الفَضلُ الكَبيرُ*جَنّٰتُ عَدنٍ يَدخُلونَها...﴾[99] ثم قال:« السابق والمقتصد يدخلان الجنّة بغير حساب. والظالم لنفسه يحاسب حساباً يسيراً ثم يدخل الجنة.[100]

-وهكذا روى عمران بن حصين[101]، قال: كان النبيّ(صلّى الله عليه وآله وسلّم) يحدثنا عامّة ليله عن بني اسرائيل، لا يقوم إلاّ لعظيم صلاة[102]. ولعله ذات ليلة او ليالي معهودة...

هذا غيض من فيض ورشف من رشح غزير، فاضت به ينابيع الرحمة الضافية ومنابع الوحي والحكمة الصافية، لازالت بركاته متتالية ومتواصلة عبرالخلود ..

الهوامش

---

(١) النحل:٩١.

(٢) النحل:٤٤.

(٣) تفسير الطبري ١:٢٧-٢٨.

(٤) المعيار والموازنة للاسكافي:٣٠٤.

(٥) توفي سنة(١٠٠) وهو ابن نيف وتسعين. (اسد الغابة ٥:١٣٩).

(٦) سورة الواقعة:٢٨.

(٧) -اخرجه الحاكم وصححه- المستدرك٢:٤٧٦.

(٨) عند الكلام في دور الصحابة في التفسير .

(٩) راجع مقدمته في اصول التفسير:٥-٦.

(١٠) تفسير ابن كثير ١:٦، وتفسير الطبري١:٢٩.

(١١) التفسير والمفسرون ١:٥٣-٥٤ .

(١٢) هو ابو العباس احمد بن خليل المهلبي الخُوَيِيّ(٥٨٣-٦٣٧) صاحب الامام الرازي والمتمم لتفسيره. ولد في خوس من أعمال آذربيجان وتعلم بها وبخراسان، ثم ولي قضاء دمشق وتوفى بها.

(١٣) قال الخويي: واما القرآن فتفسيره على وجه القطع لايعلم الا بأن يسمع من الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلّم) وذلك متعذّر إلا في آيات قلائل(الاتقان٤:١٧١).

وقال السيوطي- عند بيان مآخذ التفسير-:

الـذي صـح مـن ذلك (المنقـول عن النبـي) قليل جداً. (الاتقان ٤: ١٨١).

(١٤) الاتقان ٤: ١٧٤، ١٧٥، ٢٥٨.

(١٥) ذكروا انه حديث منكـر غريب. والاستدلال به باطل. (التفسير والمفسرون ١: ٥٢).

(١٦) راجـع رسالـة الإكليـل، المطبـوعة ضـمـن المجموعة الثانية من رسائل ابن تيمية: ٣٢.

(١٧) هـامـش مقـدمة ابـن تيميـة فـي اصـول التفسير: ٦.

(١٨) المرجع السابق.

(١٩) راجع الاتقان ٤: ١٨٠، ٢١٤-٢٥٧.

(٢٠) البرهان للزركشي ٢: ١٥٦.

(٢١) قـام زميلنـا الفـاضـل السيـد محمـد برهـاني -حفيـد العلامـة المحدث السيـد هاشم البحراني صـاحب تفسيرالبرهان- بجمع ما أسنـد الى النبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) من التفسيـر المروي عن طـرق اهل البيت (عليهم السّلام) فبلغ لحد الآن حـوالي أربعـة آلاف حديـث، ومـا زال في إزديـاد، مادام العمل مستمراً، وفقه الله.

(٢٢) الاتقان ٤: ١٧٤.

(٢٣) الكافي الشريف ١: ٢٨٦. والعياشي ١: ٢٤٩-٢٥١، رقـم ١٦٩ و١٧٠ والحاكـم الحسكاني فـي شواهد التنـزيل ١: ١٤٩.

(٢٤) تفسير القرطبي -المقدمة- ١: ٣٩.

(٢٥) مثلاً قولـه تعالى: ﴿إن الصلاة كـانت على المؤمنين كتاباً مـوقوتاً﴾ -النساء: ١٠٣، ما هذا الوقت المحدّد للصلاة؟ فقد أحيل بيان ذلـك الـى السنـة. وهكـذا بيـان الأوقـات الخمسة التي جاءت الاشـارة اليها اجمالياً في قولـه: (أقم الصلاة لدلـوك الشمس الى غسق الليل وقرآن الفجر..) - الاسراء: ٧٨.

(٢٦) البقرة: ٢٢٨.

(٢٧) النساء: ٩٣.

(٢٨) راجع مجمـع البيان للطبـرسي ٣: ٩٢-٩٣. والعياشي ١: ٢٦٧.

(٢٩) الانعام: ٨٢.

(٣٠) مجمع البيان ٤: ٣٢٧.

(٣١) الآية رقم ٣٨ من سورة المائدة.

(٣٢) النساء: ١٢.

(٣٣) المقصود بالشرع مطلـق الشرائع الالهية وليس شرع الاسلام فحسـب. نعم لم تكن هذه المفاهيم ممـا وضعه العرف العام ولا اللغـة، وانما هـو أمرجـاء بـه الشرع فـي مصطلحه الخاص.

(٣٤) تفسيـر العيـاشـي ١: ١٢ رقم (٩). والاتقان (ط١) -٢: ٢٠.

(٣٥) البقرة: ٢٤٠.

(٣٦) النساء: ١٢.

(٣٧) البقرة. ٢٣٤.

(٣٨) راجع: بحار الانوار ٩٣: ٦. والصافي ١: ٢٠٤.

(٣٩) العياشي ١: ٢٢٧-٢٢٨.

(٤٠) سبق ذلك في أول المقال.

(٤١) التوبة: ١١٢.

(٤٢) المستدرك ٢: ٣٣٥.

(٤٣) مجمع البيان ٥:٧٤و٧٦.

(٤٤) آل عمران: ٩٧.

(٤٥) الاتقان ٤:٢١٨.

(٤٦) المائدة: ٨٩.

(٤٧) الاتقان ٤:٢٢١.

(٤٨) آل عمران: ٩٧.

(٤٩) الاتقان ٤:٢١٨.

(٥٠) الصافي- الفيض الكاشافي ١:٢٨٢.

(٥١) الحجر: ٩١.

(٥٢) التقان ٤:٢٣٤.

(٥٣) الانعام:١٤١.

(٥٤) الاتقان ٤:٢٢٢.

(٥٥) كان ممن جمع القرآن على عهده (صلّى الله عليه وآله وسلّم) وكان يعلّم اهل الصفّة القران وشهد المشاهد كلها مع رسول الله. واستعمله النبي على بعض الصّدقات، وكان نقيباً في الانصار. كان طويلاً جسيماً. توفي سنة ٧٢.

(٥٦) يونس:٦٤.

(٥٧) المستدرك ٢:٣٤٠.

(٥٨) النحل: ٣٢، أنظر تفسير الصافي ١:٧٥٨.

(٥٩) الفرقان: ٣٤.

(٦٠) المستدرك ٢:٤٠٢.

(٦١) القمر: ٤٨.

(٦٢) الاسراء: ٩٧.

(٦٣) المستدرك ٢:٥٣٢.

(٦٤) المؤمنون: ٧٦، أُنظر المستدرك ٢:٥٣٨.

(٦٥) العنكبوت: ٢٩.

(٦٦) المستدرك ٢:٤٠٩.

(٦٧) مجمع البيان للطبرسي ٨:٢٨٠.

(٦٨) اسلم قبل وفاة النبي باربعين يوماً. كان سيد قومه وجيهاً حسن الصورة وكان يلقب بيوسف هذه الأمة. ولما دخل على النبي رحب به واكرمه، وقال: اذا اتاكم كريم قوم فاكرموه وبعثه في مائة وخمسين فارساً الى ذي الخلصة ليهدم بيت صنم كان هناك بخثعم ودعا له وقال: اللهم اجعله هادياً مهدياً. توفي سنة ٥١.

(٦٩) النور: ٣٠.

(٧٠) المستدرك ٢:٣٩٦.

(٧١) النساء: ٢و٦. والحوب: الإثم.

(٧٢) العياشي ١:١٠٧ رقم(٣٢١). لاط الحوض: مدره لئلا ينشف الماء. والنادية: النوق المتفرقة.

(٧٣) البقرة: ٢٢٠.

(٧٤) كان من الصحابة الذين سكنوا الكوفة. روى عن النبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) وعن زيد بن ارقم وغيره.

(٧٥) سورة ق: ١٠.

(٧٦) المستدرك ٢:٤٦٤.

(٧٧) الزمر: ٦٨.

(٧٨) المستدرك ٢:٤٣٦.

(٧٩) الاسراء:٢٩.

(٨٠) تفسير العياشي ٢:٢٨٩.

(٨١) النساء: ١٢٣.

(٨٢) تفسير العياشي ١:٢٧٧رقم(٢٧٨).

(٨٣) تفسير العياشي ١:٢٨٣ رقم(٢٩٥) .

(٨٤) النساء: ١٤٢.

(٨٥) محمد: ٣٨.

(٨٦) راجع: المستدرك للحاكم ٢:٤٥٨، والطبري في التفسير ٢٦:٤٢. والدر المنثور ٦:٦٧.

(٨٧) قدم على رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) سنة عشر فأسلم، فبعثه على مراد وزبيد ومذحج. قال ابن اسحاق: فلما انتهى الى رسول الله، قال له — فيما بلغنا —: يا فروة، هل ساءك ما أصاب قومك يوم الروم؟ قال: يارسول الله، ومن ذا الذي يصيب قومه ما اصاب قومي يوم الروم ولايسوؤه؟! فقال (صلّى الله عليه وآله وسلّم): أما إن ذلك لم يزد قومك في الاسلام إلا خيراً. اسد الغابة ٤:١٨٠.

(٨٨) المستدرك ٢:٤٢٣–٤٢٤ .

(٨٩) مجمع البيان ٨:٣٨٦ .

(٩٠) سورة سبأ: ١٥.

(٩١) الانبياء: ٣٠.

(٩٢) الاتقان ٤:٢٢٨.

(٩٣) كتاب التوحيد للصدوق: ٦٧ رقم(٨٢) .

(٩٤) هو سعد بن مالك بن سنان الانصاري. كان من الحفاظ للحديث المكثرين، ومن العلماء الفضلاء النبلاء. غزا مع رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) وهو ابن خمس عشرة سنة، مات سنة ٧٤ .(اسد الغابة ٢:٢٨٩، ٥:٢١١).

(٩٥) المؤمنون: ١٠٤.

(٩٦) المستدرك ٢:٣٩٥ .

(٩٧) المستدرك ٢:٥٣٢.

(٩٨) هو عويمر بن مالك بن زيد. كان من أفاضل الصحابة وفقهائهم وحكمائهم، وكان شاهد الخندق. مات سنة ٣٢.

(٩٩) فاطر: ٣٢.

(١٠٠) المستدرك ٢:٤٢٦.

(١٠١) أسلم عام خيبر وغزا مع رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) غزوات. بعثه عمر على البصرة ليفقّه اهلها ويتولى قضاءها. فاستعفى بعد قليل عن ولاية القضاء، وكان من فضلاء الصحابة، ولم يكن بالبصرة من يفضّل عليه. أبتلي بمرض الاستسقاء ودام به المرض ثلاثين يوماً، وهو مسجّىً على سريره. توفي سنة ٥٢. (أُسد الغابة ٤:١٣٧)

(١٠٢) المستدرك ٢:٣٧٩.

نظرة في تفسير البرهان

للعلامة الورع: السيد هاشم الحسيني البحراني

السيد محي الدين المشعل



المقدمة:

يتجلى بوضوحٍ للمتتبع للسير التاريخي لعلم التفسير انشعاب المفسرين والتفاسير الى مذاهب مختلفة، ومشارب متنوعة، فمن مقتصر على إبراز الناحية البلاغية كما فعل الزمخشري في كشافه، ومن متوقف على الناحية الاعرابية كاعراب القرآن والكتب في هذا المجال كثيرة جداً[1]، وثالث نظر الى الجهة الفقهية[2]، وآخر الى الفلسفية... واختلفت المدارس التفسيرية بحسب العلوم المختلفة، والمناهج العلمية المتنوعة، بل قد بالغ البعض أيما مبالغة في منهجه التفسيري فصار يطبق ما يشاء على القرآن الكريم، ويفسر الآية في أي موضوع أراد.

ومن ضمن المدارس التفسيرية التي تتصف بالموضوعية في التفسير، وبالعلمية في المنهج مدرسة التفسير بالأثر أو التفسير الروائي.

ذلك أنه لا خلاف في أن الرجوع الى المتخصص والعالم بشيء ما من الأمور العقلائية المحمودة والممدوحة.

ومن أكثر علماً وأشد تخصصاً في كتاب الله العزيز من أهل بيت العصمة والوحي محمدٍ وأهل بيته (صلّى الله عليه وآله وسلّم)، فأخذ التفسير عنهم أخذ من أعلم الناس بالقرآن والورود عن مصدرهم ينطفيء به صدى الظمآن.

وقد أكثر العلماء من الفريقين في هذا النوع من التفاسير، إذ العامة تروي عن رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) والخاصة عن أهل بيت العصمة (عليهم السّلام)، وصنفوا عدة تصانيف في هذا

المجال.

وعلى سبيل المثال تفسير ابن كثير، والدر المنثور للسيوطي من العامة، وعلي بن ابراهيم المعروف بالقمي، والعياشي، وفرات الكوفي وابن الماهيار وغيرها من الخاصة.

وكتاب البرهان في تفسير القرآن من الكتب التي تفسر القرآن الكريم بروايات أهل البيت (عليهم السّلام) الذين أذهب الله عنهم الرجس، وطهرهم تطهيراً.

ولا بأس هاهنا -حيث تعرضنا لذكر التفسير بالأثر- بالإشارة الى بعض الملاحظات العامة من أمثال هذه الكتب التفسيرية.

الملاحظة الاولى: أن الروايات التي تفسر القرآن الكريم، لا تحصر التفسير في الرواية فقط، وإنما تعتبر الرواية مفسرةً للآية بذكر مصداقٍ من مصاديقها قد يكون هو أجلى المصاديق وقد لا يكون كذلك.

ومن أمثلة ذلك تفسيرهم صلوات الله وسلامه عليهم للصراط المستقيم في سورة الفاتحة بأنه الإسلام، وبأنه أمير المؤمنين (عليه السّلام)، وبأنه الطريق الى معرفة الله، وأنه أهل البيت أو حب محمد وآل محمد.[٣]

وهذه الطريقة عبر عنها السيد الطباطبائي بالجري واستفادها من رواية الفضيل بن يسار عن الباقر (عليه السّلام)، إن القرآن يجري كما يجري الشمس والقمر، كلما جاء منه شيء وقع الحديث.[٤]

الملاحظة الثانية: غير خفي على المتتبعين أن التفاسير الروائية، وخصوصاً تفاسير العامة قد اختلط فيها الغثّ بالسمين والصحيح بالسقيم فكثرت فيها الإسرائيليات، والموضوعات. كما عن أبي هريرة، وكعب الأحبار، ووهب بن منبّه، وغيرهم من الأحبار الذين انتحلوا الاسلام لغرض التشويش والتحريف.

وأما كتب الخاصة فكذلك لا تخلو من الموضوعات، ومن أمثلتها الروايات التي تؤكد على وقوع التحريف في القرآن، وكذلك التفسير المنسوب الى الإمام الحسن العسكري كما في بعض التحقيقات بأنه موضوع[٥] وغيرها.[٦]

فينبغي للمتعامل مع جميع التفاسير الروائية من الخاصة والعامة أن يكون موضوعياً لا يسلّم بكل ما فيها، بل

يجعل له مقاييس علمية لا يمكن النقاش فيها من قبيل العرض على الكتاب العزيز أو السنة القطعية لمعرفة موافقتها لهما أو مخالفتها ليأخذ بالموافق، ويرد المخالف، بل يضرب به عرض الحائط كما في الروايات.

وإذا أردنا أن نتحفظ في التعامل مع بعض الروايات المخالفة للكتاب فيمكن لنا القول: بأننا نرد علمها الى أهلها، فنحن لا نفهم منها شيئاً.

الملاحظة الثالثة: إن الروايات الموجودة في كتب التفسير بالأثر ليست كلها روايات تفسر القرآن بالمعنى المصطلح للفظة التفسير التي تعني كشف النقاب والقناع عن أوجه الألفاظ والمفردات، بل بعضها كذلك، وبعضها الآخر يتحدث عن تأويل الآية أو المعنى الباطني فيها، فمن المهم لعالم التفسير ان يفرق بين هذين النوعين من الروايات عند ما يريد أن يجعل بحثه بحثاً تفسيرياً بالروايات والأحاديث.

هذه بعض الملاحظات أحببت إثارتها بالمناسبة، ولكي لا يخرج البحث عن موضوعه الاساسي، وهو الحديث عن تفسير البرهان للعلامة البحراني أعود فأقول:

إن طبيعة الدراسات العلمية في مناهج التفسير جرت على ذكر ترجمة للمفسر أولاً ثم التعرض لتفسيره.

وفي تصوري أن هذه الطريقة ليست موضوعية في أكثر الأحيان، وذلك لأن ترجمة المفسر مذكورة في أكثر كتبه إن لم تكن في جميعها، فينبغي على الدارس في منهج المفسر أن يحيل القارئ الى المواضيع التي ذكرت فيها ترجمة المفسر حتى لا يكبِّر حجم الكتاب، ويضخمه من دون حاجةٍ لذلك، اللهم إلا أن يكون في ذكره للترجمة تحقيق جديد أو اكتشاف حديث لم يتوصل إليه من ترجم قبله، وقليل ذلك إن لم يكن نادراً، أو قد لا توجد للمفسر ترجمة فيترجم له.

ولذا فأنا أعرض في هذه الدراسة المختصرة عن الترجمة للمفسر، وأحيل القارئ العزيز لكتب المفسر فإن فيها ترجمة وافية، خصوصاً كتاب المحجة فيما نزل في القائم الحجة، وكتابه الذي بين أيدينا، أعني التفسير، ومن شاء الاستزادة فإنني أحيله الى الكتب التالية:

(١) أعيان الشيعة، للسيد محسن الأمين.

(٢) روضات الجنات، للشيخ محمد باقر الخونساري.

(٣) أمل الأمل، للشيخ الحر العاملي.

(٤) أنوار البدرين، للشيخ علي البلادي.

(٥) الذريعة، للشيخ آغا بزرك الطهراني.

(٦) رياض العلماء، عبدان أفندي.

(٧) ريحانة الأدب، محمد علي درس.

(٨) الكنى والألقاب، الشيخ عباس القمي.

(٩) الفوائد الرضوية، الشيخ عباس القمي.

(١٠) لؤلؤة البحرين، الشيخ يوسف البحراني.

قيمة التفسير:

يقول المصنف عن كتابه في مقدمته التي ذكر فيها سبب تأليفه:

وكتابي هذا يطلعك على كثير من أسرار علم القرآن، ويرشدك الى ما جهله متعاطي التفسير من أهل الزمان ويوضح لك عن ما ذكره من العلوم الشرعية، والقصص والأخبار النبوية، وفضائل أهل البيت الامامية إذ صار كتاباً شافياً ودستوراً وافياً، ومرجعاً كافياً حجة في الزمان...[٧]

كما قال في خاتمته:

ثم أعلم أيها الأخ في الدين والطالب الحق المستبين... فقد اشتمل الكتاب على كثير من الروايات عنهم (عليه السّلام) فى تفسير كتاب الله العزيز، وانطوى على الجم من فضلهم، وما نزل فيهم (عليه السّلام)، واحتوى كثيراً من علوم الأحكام والأداب وقصص الانبياء، وغير ذلك مما لا يحتويه كتاب، إن في ذلك لعبرة لأولي الألباب.[٨]

فقيمة هذا التفسير أوضح من أن تكشف إذ احتوى على مجموعة كبيرة جداً من الروايات بعضها عن العامة وأكثرها من الخاصة، كما أنه جمع بعض الكتب كاملة كتفسير القمي، والعياشي، والكثير من التفسير المنسوب الى الامام الحسن العسكري كما أنه جمع روايات متشتتةٍ من كتب متفرقة بعضها في التفسير وبعضها في موضوعات متنوعة، وفي هذا ما لا يخفى من الجهد الكبير والثروة الضخمة من الأحاديث التي تعطي المفسر أفقاً عريضاً في فهم كتاب

الله العزيز وتجعله يعيش الأبعاد المختلفة للآية الواحدة.

التعريف بالتفسير:

وضع مفسرنا الجليل تفسيره على مقدمةٍ، وتفسير للقرآن، وخاتمة. أما المقدمة فقد اشتملت على عدة أبواب، مع خطبة المفسر التي ذكر فيها سبب تأليفه الكتاب، وخلاصته: أن الناس أخذوا في تفسيرهم للقرآن عن غير أهله وأصحابه فصاروا مذاهب متشتتة في التفسير تاركين ما ورد عن أهل بيت العصمة والطهارة (عليهم السّلام)، فأراد المصنف أن يقيم الحجة على كل من أراد التفسير بغير حديثهم (عليهم السّلام).(٩)

وأما أبواب المقدمة فهي عبارة عن:

باب في فضل العالم والمتعلم ذكر فيه ستة عشر حديثاً.

باب في فضل القرآن ذكر فيه ثلاثة وعشرين حديثاً.

باب في فضل الثقلين ذكر فيه ثلاثة وثلاثين حديثاً.

باب في أن ما من شيء يحتاج اليه العباد إلا وهو في القرآن وفيه تبيان كل شيء وذكر فيه ثمانية عشر حديثاً.

باب في أن القرآن لم يجمعه كما أنزل إلا الأئمة (عليهم السّلام) وعندهم تأويله وذكر فيه ستة وعشرين حديثاً.

باب في النهي عن تفسير القرآن بالرأي والنهي عن الجدال وفيه: ثمانية عشر حديثاً.

باب في أن القرآن له ظهر وبطن، وعام، وخاص، ومحكم ومتشابه، وناسخ ومنسوخ، والنبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) وأهل بيته يعلمون ذلك وهم الراسخون في العلم، وفيه ثمانية عشر حديثاً.

باب فيما نزل عليه القرآن من الأقسام وفيه تسعة أحاديث.

باب في أن القرآن نزل بإياكَ أعني واسمعي ياجارة وفيه ثلاثة احاديث.

باب فيما عني به الأئمة (عليهم السّلام) في القرآن، وذكر فيه عشرة أحاديث.

باب وصفه المفسر بصفة الآخر فقال باب آخر وفيه ثلاثة أحاديث، الأولان منهما في النهي عن التفسير بدون علم، والثالث في وصية الصادق (عليه السّلام) الى المفضل بن عمر.

باب في معنى الثقلين والخليفتين من طريق المخالفين وفيه ستة عشر حديثاً.

باب في العلة التي من أجلها أن القرآن باللسان العربي، وأن المعجزة في نظمه ولم صار جديداً على مر الأزمان وفيه ثلاثة أحاديث.

باب أن كل حديث لا يوافق القرآن فهو مردود وفيه ثلاثة عشر حديثاً.

باب في أول سورة نزلت وآخر سورة، وفيه ثلاثة أحاديث.

باب في ذكر المصادر والكتب المأخوذ منها الكتاب، وذكر فيه مجموعة مصادر ثم ذكر مقدمة تفسير علي بن ابراهيم، المعروف بتفسير القمي بتمامها.(١٠)

وأما الخاتمة فقد ذكر فيها مجموعة من الأبواب وهي كما يلي:

باب أن المعوذتين من القرآن وذكر فيه تسعة أحاديث.

باب في رد متشابه القرآن الى تأويله وذكر فيه حديثاً واحداً طويلاً ومفصلاً.

باب فضل القرآن وقد ذكره في المقدمة، وذكر فيه حديثاً واحداً.

باب في أن حديث أهل البيت صعب مستصعب وذكر فيه خمسة أحاديث.

باب في وجوب التسليم لأهل البيت فيما جاء عنهم (عليهم السّلام) وقد ذكر فيه اثنين وثلاثين حديثاً.

وفي ذيل هذه الخاتمة أشار المفسر الى القيمة العلمية لتفسيره، وبعدها ذكر ما يوضح رموز كتابه في اشخاصه، ومصادره.

وفي خاتمة الطبعة الموجودة في الأسواق، وهي نشر مؤسسة «مطبوعاتي اسماعيليان» توجد ترجمة للمفسر، وتعريف بمؤلفاته.(١١)

ملاحظة مهمة:

يقع تفسير البرهان في أربعة مجلدات من القطع الكبير وهي التي تحتوي على المقدمة والتفسير والخاتمة، وفي طبعاته المتأخرة أضيف اليه مجلد خامس ليس من تفسير البرهان في شيء، وإنما هو عبارة عن مقدمة تفسير مرآة الأنوار، ومشكاة الاسرار لأبي الحسن العاملي الأصفهاني.

وقد ألحقت بتفسير البرهان وكتب على غلافها البرهان في تفسير القرآن للسيد هاشم البحراني، ولكنها كما قلت ليست من التفسير في شيء.

ولكنها لما كانت في بيان الحقائق

القرآنيـة المختلفة مـن خلال الـروايات، كبيـان حقيقـــة بطـن القـــرآن وظهـره، وتأويله، وولاية أهـل بيت العصمة (عليهم السّلام) فيه، وأنواع الخطاب القرآني، وغير ذلك ممـا بحثته الروايـات مما له عـلاقة بكتاب الله تعالــى. لما كانت كذلـك ناسب جعلها كـالمقدمة لتفسيـر البرهـان لانه تفسير لكتـاب الله بالـروايات، وكـذا عبر عنـه محققه بـأنـه كـالمقدمـة لتفسيـر البرهـان.

وقد قال السيد محمود الزرندي في تــــرجمــــة صـــــاحـــــب هـــــذه المقدمة-الاصفهاني-

قال:«... ومن الحوادث اللطيفة.:. أن مجلد مقدمات تفسير هـذا المولى الجليل المسمى بمرآة الأنوار مـوجود الأن بخط مؤلفه في خزانة كتب حفيده شيخ الفقهاء صـاحـب جـواهـر الكـلام طـاب ثـراه، واستنسخنـاه بتعـبٍ ومشقـةٍ، وكـانـت النسخـة معي فـي بعـض أسفاري الـى طهران، فأخذها مني بعض أركان الدولة، وكان عـازماً على طبـع تفسير البـرهان للسيـد هاشـم البحـرانـي، وقال لـي إن تفسيره خال عن البيان فيناسب أن نلحق به هذه النسخة ليتم المقصود بها».[١٢]

وعلى كل حال فهذه المقدمة وإن لم تكـن جزءاً مـن تفسير البـرهان، إلا أنـه يجـدر بمـن أراد الإطـلاع علـى تفسيـر البرهان أن يتنقل بين رياضها، ويشم من أريجها، ويترك غثهـا، ويتمسك بسمينها ثم يدخل في البرهان.

وأما التفسير فيمكـن لنا أن نتعرف عليه عبر الملامح الآتية:

الاول: التفسير -كما قدمنا- يفسر القرآن الكـريم من أولـه الى آخـره، مبتدأً بســورة الفاتحـة، ومنتهياً بـالناس مـن خلال الروايات. وقد ترك التعرض لبعض الآيـات الكريمــة، وهذا قليـل جداً. ولعـل السبب فـى هذا التـرك عدم العثـور على روايات صـريحة وواضحـة في تفسيـر هذه الآيات المتروكة الذكر.

الثاني: يبـدأ المفسـر بذكـر اسـم السورة، ويشير الى نوعها مكية أو مدنية كما يشير أحياناً الى ترتيب نزولها فيقول نزلت بعد السورة الفلانية، ويشير كذلك الى عدد آيـاتها، ويستثني ما كـان مدنياً من المكية أو ما كان مكياً من المدنية.[١٣]

الثالث: يذكر المفسر الروايات فقط من دون تعليق عليها، وربما توجد بعض التعليقات، ولكنها تحتاج الــى تأمل دقيق

لامتزاجها مع الروايات، وبحسب المراجعة السريعة وجدت تعليقةً على احدى الروايات في تفسير سورة التوحيد، ومع ذلك فلا أجزم أنها ليست من الرواية.[١٤]

الرابع: الروايات التي نقلها المفسر وجمعها في كتابه الشريف مختلفة ومتنوعة، فبعضها يشير الى سبب النزول، والبعض الآخر الى تفسير بعض الألفاظ، وثالث الى تفسير بعض الآيات.

وبعض آخر يسرد القصص التي تتعرض لها الآيات، وهناك مجموعة تشير الى القراءة الصحيحة في الآية، وأخرى الى الدعاء الذي ينبغي أن يقرأ بعد السورة -كما في قصار السور- وثالثة تشير الى فضل السورة. وغيرها يشير الى تأويل بعض الآيات، وذكر المعنى الباطن لها، ومجموعة تتحدث عن الملاحم والفتن، ...وهكذا فالروايات مختلفة جداً وقد أشار المفسر إشارة عابرة الى هذه الظاهرة في تفسيره بقوله:

«وكتابي هذا يطلعك على كثير من أسرار علم القرآن... ويوضح لك ما ذكره من العلوم الشرعية، والقصص والأخبار النبوية، وفضائل أهل بيت الأمامية».[١٥]

هذا وقد ذكر المفسر بعض الروايات تحت أبواب معينة تعد بمثابة البحث في ذلك الباب، كما في تفسير سورة الفلق حيث ذكر باباً تحت عنوان باب في الحسد ومعناه، وذكر فيه سبع روايات تقريباً، وذكر باباً فيما روي من السحر الذي سحر به النبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) وما يبطل به السحر وخواص المعوذتين وذكر فيه ست روايات[١٦] وكذلك ذكر في تفسير سورة الصافات باباً في معنى آل محمد (صلّى الله عليه وآله وسلّم) ذكر فيه ثلاث روايات تقريباً.[١٧]

وباب في فضل التفكر والاصلاح بين الناس.[١٨]

الخامس: أكثر روايات الكتاب ذكرها المفسر مسندة، وهذا يعين الباحث وبشكل كبير جداً على التعرف على صحيح الحديث من سقيمه وصحيحه من فاسده.

السادس: يذكر المفسر في تفسير كل آية مجموعة لا بأس بها من الروايات مع الترقيم وذكر المصدر المنقول عنه أمام كل رواية، وهذا يمكن الباحث، وبشكل سريع من الرجوع الى مصادر الرواية.

السابع: يحتوي التفسير على عدد لا بأس به من الروايات التي تسرد الاحداث التاريخية مما يعين الباحث في التاريخ على التعامل مع وثيقة تاريخية عالية لأنها صادرة من المعصوم، هذا بعد تمامية سندها.

الثامن: يحتوي الكتاب على بعض الروايات لا ينتهي سندها للمعصوم (عليه السّلام) خصوصاً في روايات اسباب النزول أو الحديث عن بعض الوقائع التاريخية وهذه يتعامل معها بعد الفراغ من صدورها لمن نسبت له كما يتعامل مع أي فكرة علمية، يمكن أن تقبل ويمكن أن لا تقبل.

مصادر التفسير:

المصادر التي اعتمدها مفسرنا كلها مصادر روائية إلا القليل النادر، ومع ذلك فقد أخذ منها الروايات الموجودة فيها فقط.

وهذه المصادر الروائية منها ما هو تفسير للقرآن فقط، ومنها ما هو أعم من التفسير، وغيره.

فأما مصادره التفسيرية فهي:

(١) تفسير القمي، علي بن ابراهيم بن هاشم.
(٢) تفسير العياشي، محمد بن مسعود العياشي.
(٣) تفسير مجمع البيان، الفضل بن الحسن الطبرسي.
(٤) تفسير جامع الجوامع، الفضل بن الحسن الطبرسي.
(٥) تفسير كشف نهج البيان، محمد بن الحسن الشيباني.
(٦) تفسير نهج البيان.
(٧) تفسيرابن الماهيار.
(٨) تفسير الكشاف للزمخشري.
(٩) تفسير الامام الحسن العسكري.

وأما مصادره الروائية فهي:

(١) بصائر الدرجات، محمد بن الحسن الصفار.
(٢) بصائر الدرجات، سعد بن عبد الله القمي.
(٣) الكافي، محمد بن يعقوب الكليني.
(٤) قرب الإسناد، عبد الله بن جعفر الحميري.
(٥) الغيبة، محمد بن ابراهيم المعروف بابن زينب.
(٦) الارشاد، والأماني، والاختصاص، للشيخ المفيد.

(٧) الزهد، الحسين بن سعيد الأهوازي.
(٨) التمحيص، الحسين بن سعيد الأهوازي.
(٩) كتاب سليم بن قيس الهلالي.
(١٠) روضة الواعظين، محمد بن أحمد المعروف بابن الفارسي.
(١١) كتاب الشيخ محمد بن أحمد بن علي بن الحسين بن شاذان.
(١٢) مسائل علي بن جعفر (عليه السّلام).
(١٣) من لا يحضره الفقيه، الصدوق.
(١٤) كمال الدين وتمام النعمة، الصدوق.
(١٥) معاني الأخبار، الصدوق.
(١٦) علل الشرايع، الصدوق.
(١٧) بشارات الشيعة، الصدوق.
(١٨) صفات الشيعة، الصدوق.
(١٩) التوحيد، الصدوق.
(٢٠) عيون أخبار الرضا، الصدوق.
(٢١) الخصال، الصدوق.
(٢٢) ثواب الأعمال، وعقاب الأعمال، الصدوق.
(٢٣) التهذيب، الشيخ الطوسي.
(٢٤) الاستبصار، الشيخ الطوسي.
(٢٥) الامالي، الشيخ الطوسي.
(٢٦) المجالس، الشيخ الطوسي.
(٢٧) الخصائص، الشريف الرضي.
(٢٨) المناقب الناضرة في العترة الطاهرة، الشريف الرضي.
(٢٩) المجالس، أحمد بن محمد بن خالد البرقي.
(٣٠) صحيفة الإمام الرضا (عليه السّلام).
(٣١) مصباح الشريعة، منسوب للامام الصادق (عليه السّلام).
(٣٢) الفضائل، للسيد ولي بن نعمة الله الحسيني.
(٣٣) جامع الأخبار، وهو مجهول المؤلف.
(٣٤) تأويل الآيات الباهرة في العترة الطاهرة، أشرف الدين النجفي.
(٣٥) تحفة الأخوان.
(٣٦) الطرائف، علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن طاووس، وهذا الكتاب ليس روائياً بحتاً بل مختلطاً.
(٣٧) تحفة الأبرار، السيد حسين بن ساعد الحسيني النجفي.
(٣٨) كتاب المناقب، لابن شهر آشوب.
(٣٩) كتاب الاحتجاج، أحمد بن علي بن أبي منصور الطبرسي.
(٤٠) كتاب ورام.
(٤١) كامل الزيارات، جعفر بن محمد ابن قولويه.
(٤٢) كتاب ابراهيم بن عمر الأوسي.

(٤٣) كتاب الشيخ رجب البرسي.

(٤٤) كتاب كشف الغمة، علي بن عيسىٰ.

(٤٥) كتاب الكشكول، ولم يصرح لمن هو.

وهذه المصادر سوى الأخيرين منها قد صرح المصنف بها في مقدمة كتابه في المجلد الأول ص٣١ ثم إنه بعد أن ذكرها قال: وغير ذلك، أي من المصادر وعليه فإننا بحاجةٍ الى استقراء تام للكتاب وتفحص دقيق له من أوله لأخره حتى نتعرف على المصادر التي لم يصرح بها المفسر في المقدمة، كما أن هذه المصادر جميعاً سوى تفسير الكشاف مصادر شيعية إمامية، أما تفسير الكشاف فإنه للزمخشري، وهو في الكثير من مباحثه يعرض آراء المعتزلة، وعقائدهم. هذا وقد اعتمد المفسر على مصدرين سُنّيين أحدهما ربيع الأبرار للزمخشري وهو بمثابة الكشكول، وآخر في روايات النبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) فقط، وهو كتاب موفق بن أحمد.

نقد الكتاب:

طبيعي جداً أننا لا يمكن لنا أن ننقد الكتاب فيما لم يقصد المؤلف التعرض له عند إرادته لتأليف الكتاب، فلايمكن لنا، على سبيل المثال، أن ننقد الكتاب من حيث أنه لم يتعرض للناحية البلاغية، أو الأعرابية، أو الفلسفية، أو غيرها من النواحي.

ذلك أن المصنف لم يأخذ على نفسه أكثر من التعرض الى الروايات التي تفسر القرآن فإن قصرَ في ذلك، فحينئذٍ يمكن لنا نقده، أما في غير هذا الحال المخالف لمنهج المفسر فلا يمكن. إلا آنه من الواضح جداً أن مفسرنا لم يأل جهداً في جمع الروايات وترتيبها كلاً في موضعها المناسب، في تفسير الآيات، أو تأويلها، أو التفصيل في موضوعاتها نعم هناك الكثير من الروايات ليست تفسيرية -بالمعنى المصطلح عليه للكلمة- إلا أن هذا لا يعد عيباً في مثل هذه التفاسير -أعني الروائية- لأنها درجت على الخلط بين الروايات التفسيرية، والتأويلية، وغيرهما.

نعم هناك مجالان واسعان لنقد الكتاب، وهما:

المجال الأول: المصادر التي اعتمدها المفسر: فإن للدارس فيها ميداناً واسعاً لنقد التفسير خصوصاً، وأن

بعضها ساقط الأعتبار من أصله، غير معتبر به عند بعض العلماء، كجامع الأخبار إذ أنه مجهول المصنف، وككتاب الشيخ رجب البرسي الذي طعن العلماء فيه، وفي مؤلفه.

كما أن هناك بعض الكتب للعلماء فيها كلام ونظر كتفسير القمي، علي بن ابراهيم، فإنه منسوب الى علي بن ابراهيم من جهة، ومصاب بالإرسال في الكثير من الروايات المنقولة فيه. وهاتان جهتان مهمتان جداً، من شأنهما تعطيل الكتاب، واسقاطه عن الاعتبار، وقد نقل السيد البحراني في تفسيره هذا الكتاب بتمامه، فإن سقط الكتاب سقط مقداره من تفسير البرهان.

ومثال آخر يمكن لنا من خلال نقد التفسير، هو التفسير المنسوب للإمام الحسن العسكري (عليه السّلام)، فهذا أيضاً ينقل عنه مفسرنا -علامة البحرين- الكثير من الروايات، وكما أظن -وإن كان هذا الأمر يحتاج الى تتبع دقيق- أنه قد نقل جميع رواياته في تفسيره الذي نبحث فيه.

وعلى كل حال سواء نقل مفسرنا جميع رواياته أو جزءاً منها، وهو قدر متيقن فإن هذا التفسير -أعني تفسير العسكري- متهم بالوضع كما في جملة من التحقيقات، منها مقدمة تفسير آلاء الرحمن للشيخ البلاغي، ورسالة أخرى له خاصة به، وغيرهما، ولا أقل من أنه منسوب للإمام (عليه السّلام)، أي ليس مقطوع الصدور، ولا مظنونه.

وكذلك تفسير العياشي، فإنه وإن كان مقبولاً في الجملة إلا أن مشكلته التي يعاني منها هي حذف أسانيده، وإن عده العلامة الطباطبائي أنه من أفضل التفاسير الروائية لدى الشيعة.[١٩]

وهكذا بقية المصادر، وإن كانت في الجملة معتبرة، ومقبولة، وصادرة من أصحابها.

وعلى كل فإن وجدناها بعد الدراسة المعمقة، والموضوعية، أنها جميعاً يمكن لنا الاعتماد عليها، فإن النوبة في نقد التفسير تصل الى المجال الآخر وهو.

المجال الثاني: الروايات التي نقلها المفسر في تفسيره: وهذا المجال أوسع من سابقه لاحتوائه على جهتين، وهما جهة السند، وجهة الدلالة، (المتن).

فإذا أردنا أن نتعامل مع الروايات تعاملاً فنياً حرفياً، أي أننا لا نأخذ إلا

بالصحيح، أو الموثق، أو الحسن، فإن جميع المراسيل تسقط عن الاعتبار وكذا جميع الضعاف التي في سندها راوٍ ضعيف أو أكثر. وبه لن تبقى عندنا إلا روايات قليلة جداً، هذا من جهة السند.

وأما من حيث الدلالة فيمكن أن ندرس متن كل رواية -بعد التأكد من اعتبارها وتمامية سندها- دراسة مستقلة، وعلى حدة للتأكد من كونها لا تخالف الكتاب العزيز في ظواهره، والسنة القطعية كذلك. كما فعل سيد المفسرين في عصرنا هذا العلامة الطباطبائي في تفسيره الروائي، فأخذ ما صح سنده وسلمت دلالته من المخالفة للكتاب العزيز، وكما يفعل الفقهاء والمجتهدون في دراسة الروايات، فإنهم غالباً ما يدرسونها من خلال هذين المجالين، مجال المصادر ومجال الروايات بشكل مستقل.

وفي الختام:

فإنني آمل -وبالله الأمل- أن تكون هذه النظرة في هذا التفسير الشريف مقدمة لدراسة تفصيلية حول هذا الكتاب الجليل، فإنني عندما أردت البدء بالكتابة فيه كنت متردداً، ومستشعراً لصعوبة البحث من جهة كون التفسير روائياً وماذا عسى الباحث فيه أن يقدم من جديد، ولكنني بعد ملاحظة التفسير، وتقليبه وجدت أن المجال خصب للبحث والتجديد، وهناك مجموعة من الموضوعات يمكن أن يبحثها الدارس في هذا التفسير، ومن أمثلتها:

ما قدمته من الاشارة الى دراسة الأسانيد، والمتون، والبحث في مصادر الكتاب بشكل تفصيلي ودقيق.

ملاحقة الروايات التي تتحدث عن بعض الموضوعات الحساسة كالتحريف أو الزيادة والنقصان في الكتاب العزيز، والروايات التي يظهر منها الجبر، وأمثالهما.

محاولة التعرف على بعض آراء المؤلف من خلال اكتشاف بعض التعليقات له على بعض الروايات إن وجدت.

محاولة استدراك تفسير الآيات التي ترك المفسر التعرض لها، والبحث عن روايات تفسرها. واستخراج المصادر التي ترك المفسر التصريح بها في المقدمة.

هذا، ويمكن للدارس أن يقف على موضوعات أكثر وينقح بحوثاً أكمل لتكون خدمة للمؤلف والكتاب، فان خدمة الكتاب خدمة لأحاديث أهل البيت (عليه السّلام).

الهوامش

---

(١) انظر العدد الأول من مجلة رسالة القرآن ببيلوغرافية في كتب اعراب القرآن، للشيخ الفرقاني.

(٢) مثل كنز العرفان للمقداد، واحكام القرآن للجصاص وغيرها.

(٣) الميزان للطباطبائي١:٤١.

(٤) الميزان للطباطبائي١:٤٢ وراجع لابد من الاطلاع: الطباطبائي ومنهجه في تفسيره الميزان، علي الأوسي.

(٥) مقدمة تفسير السيد عبد الله شبر، وهي مقدمة آلاء الرحمن للشيخ البلاغي.

(٦) المصدر السابق: ١٧-١٨، طبعة دار الهجرة.

(٧) البرهان١:٤.

(٨) البرهان٤:٥٥١.

(٩) أنظر خطبة الكتاب١:٢.

(١٠) البرهان١:٣.

(١١) البرهان٤:٥٣١.

(١٢) مقدمة تفسير مرآة الانوار: ٥. في ترجمة المؤلف.

(١٣) البرهان١:٥١٤.

(١٤) البرهان٤:٥٢٤، الرواية السابعة.

(١٥) البرهان١:٤.

(١٦) البرهان٤:٥٢٨.

(١٧) البرهان٤:٣٥.

(١٨) البرهان٣.

(١٩) راجع مقدمة تفسير العياشي، والعدد الثالث من مجلة رسالة القرآن تحت عنوان العياشي وتفسيره.

النكات البلاغية في تفسير الطبري

القسم الثاني

الأستاذ محمَّد علوي مقدَّم

ترجمة: عبدالرحيم مبارک

قال الطبري عند البحث في آية ﴿أيَوَدُّ أحَدُكُم أن تَكونَ لَهُ جَنَّةٌ مِن نَخيلٍ وأعنابٍ تَجري مِن تَحتِهَا الأنهارُ لَهُ فيها مِن كُلِّ الثَّمَراتِ وأصابَهُ الكِبَرُ ولَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفاءُ فَأصابَها إعصارٌ فيهِ نارٌ فَاحتَرَقَت كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمُ الآياتِ لَعَلَّكُم تَتَفَكَّرونَ» البقرة:٢٦٦، ان هذه الآية تمثيل لاولئك الذين كان انفاقهم [illegible]اء وعملهم تظاهراً ويقول الطبري [illegible]سلاً لنفقة المنافق التي ينفقها رئاء الناس لا ابتغاء مرضاة الله...».[١]

وتحدث الطبري في هذا البحث ايضاً عن تشبيه حالة بحالة واوضح ان حالة اولئك الذين يعملون صالحاً ثم يبطلون عملهم بالمراءاة والمنّ والاذى كحالة تلك الجنّة التي تحمّل صاحبها مشاقّ جمة حتى آتت ثمارها، وفي حالة الحاجة الماسّة لقطف ثمار عمله يأتي الاعصار ويحرق كل شيء، ويقول الطبري (في حال صغر ولده وعجزه عن إحيائها والقيام عليها فلم يبق له شيء).[٢]

واضاف الطبري في ذيل البحث في آية: ٢٦٦[٣] في سورة البقرة ان آية ﴿...لاتُبطِلوا صَدَقاتِكُم بِالمَنِّ والأذىٰ كَالَّذي يُنفِقُ مالَهُ رِئاءَ النّاسِ ولايُؤمِنُ بِاللّهِ واليَومِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفوانٍ عَلَيهِ تُرابٌ فَأصابَهُ وابِلٌ...﴾ البقرة:٢٦٤ تمثيل آخر للمرائين وانفاقهم.

عند البحث في آية ﴿...كُلَّما دَخَلَ عَلَيها زَكَرِيَّا المِحرابَ وَجَدَ عِندَها رِزقاً قالَ يامَريَمُ أنّىٰ لَكِ هذا قالَت هُوَ مِن عِندِاللّهِ إنَّ اللّهَ يَرزُقُ مَن يَشاءُ بِغَيرِ حِسابٍ﴾ آل عمران:٣٧، حيث بحث

الطبري في معنى كلمة «أنّى» وكتب في مقابل معنى عبارة ﴿يٰمَريَمُ أنّىٰ لَكِ هٰذا﴾؟[٤]: «في أيُّ وجه لك هذا الذي ارى عندك من الرزق»؟

وما يثير الاهتمام في هذه الآية ان المفسرين استنبطوا من كلمة «رزقاً» التي وردت بصورة نكرة أنّ الغذاء المذكور غذاء من الجنة ولم يك معروفاً ومعهوداً عند زكريا (عليه السّلام): «وجد عندها رزقاً»، وجواب مريم (عليها السّلام) ايضاً الذي كان «قالت هو من عند الله» دليل على ان الأكل المذكور كان من الجنة.[٥] وقد تحدث الطبري عن الرزق والأكل المدهش: ثم يدخل زكريا عليها فيجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء، فكان يعجب مما يرى من ذلك. ويقول تعجباً ممايرى«أنّى لك هذا»؟ فتقول «من عندالله».[٦] وقد اورد الطبري في ذيل الآية المذكورة حديثاً روي عن ابن عباس. «فانه وجد عندها الفاكهة الغضّة حين لاتوجد الفاكهة عند أحد فكان زكريا يقول: يامريم أنّى لك هذا؟!».

كتب الطبري في ذيل آية ﴿قالَت رَبِّ أنّىٰ يَكونُ لي وَلَدٌ ولَم يَمسَسْني بَشَرٌ﴾ آل عمران:٤٧، في تفسير جملة «أنّى يكون لي ولد»:[٧] «من أي وجه يكون لي ولد؟»، هل سيكون لي ولد من زوج اقترن به؟ هل بدون زوج وبدون ان يمسسني بشر؟

وفي جواب ذلك قال الباري «كذلك الله يخلق مايشاء» يعنى انه مع ان العالم عالم العلل والاسباب وان خلق اي مخلوق يتبع سلسلة من العوامل ولكن: «كذلك الله يخلق مايشاء» يعني ان الله بيده أن يغيّر النظام ويوجد الموجودات المادية بأسباب غير مادية.[٨] ويورد الطبري في ذيل الآية المذكورة عبارة «فانه يخلق مايشاء ويصنع مايريد».

وعند البحث فى الآية ﴿وإذ أخَذَ اللّهُ ميثٰقَ النَّبيّينَ لَمَا ءَاتَيتُكُم مِن كِتٰبٍ وحِكمَةٍ ثُمَّ جاءَكُم رَسولٌ مُصَدِّقٌ لِما مَعَكُم لَتُؤمِنُنَّ بِهِ...﴾[٩] كتب الطبرى: ان اللام في لما آتيتكم لام ابتداء وتدل على التأكيد لان «ما» اسم والجملة بعده صلة ومع الاخذ بنظر الاعتبار قول الطبرى ان «اللام» لام الابتداء والتأكيد فان مفهوم الآية سيكون: ان القرآن يؤكد على ايتاء الكتاب والعلم ويؤكد الجملة.

وقد تحدث الطبرى عند البحث في

آيــة ﴿...وَاستَشهِدُوا شَهيدَينِ مِن رِجالِكُم فَإن لَم يَكونا رَجُلَينِ فَرَجُلٌ وَامرَأتانِ مِمَّن تَرضَونَ مِنَ الشُّهَداءِ أن تَضِلَّ إحديٰهُما فَتُذَكِّرَ إحديٰهُمَا الأُخرىٰ...﴾ البقرة:٢٨٢، عن التقدم والتأخر وكتب[١٠]: كانت العبارة في الاصل «فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان، كي تذكراحداهما الاخرى ان ضلّت» يعني ان في الآية تقديماً وتأخيراً، وكان لازماً ان يؤكد ويذكرّ في محل «تضلّ» وفي الاصطلاح «هو عندهم من المقدم الذي معناه التأخير».

وبناءً على ماكتب في تفسير نمونة[١١] فلأن المرأة موجود عاطفي ويمكن ان تخضع احياناً لتأثير من المؤثرات، لذا ففي محل الشهادة تضمّ اليها امرأة اخرى لتمنع وقوعها تحت التأثير...

وتبعاً لقول الطبري فان التقدم والتأخر اللفظي في آيات القرآن كثير ومتعدد[١٢] كما ان التقدم والتأخر المعنوي موجود ايضاً.

فمثلاً في آية ﴿إذ قالَ اللّهُ يٰعيسىٰ إنّي مُتَوَفّيكَ ورافِعُكَ إلَيَّ ومُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذينَ كَفَروا...﴾ آل عمران:٥٥، باعتقاد عدّة من البلاغيين فان هناك تقدماً وتأخراً وكأن الاصل «اذ قال الله ياعيسى إنّي رافعك اليّ ومطّهرك من الذين كفروا ومتوفّيك بعد انزالي اياك الى الدنيا...».[١٣]

ويبدو انه لابد من التدقيق في معنى الآية ليُفهم ان الآية المذكورة لاتدلّ على وفاة عيسى (عليه السّلام)، وليس صحيحاً ماتصورهُ البعض من ان كلمة «متوفّيك» من مادة «وفاة» وتدل على موت عيسى (عليه السّلام) لأن مادة «فوت» في اصطلاح أهل اللغة «أجوف واوى»، ومتوفى «من فعل توفّى» اصله «وفى»، وبمعنى إكمال شيء والعمل بالعهد الذي يدعونه بالـ«وفاء» بسبب تكميل واتمام العهد.

وفي العربية عندما يقال «توفى دَينه» يعني انه قد استوفى واخذ دينه بشكل كامل[١٤]، وخلاصة القول ان مادة «فوت» مع مادة «وفى» و«توفى» مختلفتان.

ويرى الطبري عند البحث في آية ﴿إنَّما يُريدُ الشَّيطٰنُ أن يُوقِعَ بَينَكُمُ العَدٰوَةَ والبَغضاءَ في الخَمرِ والمَيسِرِ ويَصُدَّكُم عَن ذِكرِاللّهِ وعَنِ الصَّلوٰةِ فَهَل أنتُم مُنتَهونَ﴾ المائدة:٩١، ان

الجملة الاستفهامية «فهل انتم منتهون» بمعنى الأمر، يعني «انتهوا»، ثم يورد امثلة ويقول: عندما يقولون بشكل استفهام: «أين» «أينَ»؟ فهذا الاستفهام بمعنى الأمر، يعني «أقم فلاتبرح»، وفي الآية مورد البحث التي جاءت بصورة استفهام تقريري يقول القرآن: أهناك، بعد كل هذا التأكيد والاستدلال، مجال الى الاعتذاراوالشك في ترك هاتين المعصيتين؟.

عند البحث في آية **﴿ولَقَد كُنتُم تَمَنَّونَ المَوتَ مِن قَبلِ أن تَلقَوهُ فَقَد رَأَيتُموهُ وأنتُم تَنظُرونَ﴾** آل عمران: **١٤٣**، التي نزلت بشأن الذين قالوا بعد واقعة بدر: ليت الشهادة كانت نصيبنا ايضاً «حيث كان بعض هؤلاء متظاهراً وكاذباً»، وهؤلاء الذين تظاهروا بتمني الشهادة كانوا قد فرّوا حين وقعت معركة بدر.[(١٥)]

وقد نزلت هذه الآية بشأن هؤلاء ووبختهم وقالت: انتم الذين كنتم تمنّون الموت والشهادة «فقد رأيتموه وأنتم تنظرون».

قال الطبري بشأن هذه الآية:[(١٦)] اولاً، هاء الضمير في فعل «رأيتموه» يرجع الى الموت بمعنى القتال، وكل ذلك يعني «فقد رأيتموه بمرآى منكم ومنظر» و «بقرب منكم»، واضاف الطبري: ثانياً ان «انتم تنظرون» على سبيل التأكيد، وكانت من قبل «رأيته عياناً» و «رأيته بعيني» و«سمعته بأذني».

وفي معرض البحث في آية **﴿ولَقَد صَدَقَكُمُ اللّهُ وَعدَهُ إذ تَحُسّونَهُم بِإذنِهِ حَتّىٰ إذا فَشِلتُم وتَنٰزَعتُم فِي الأمرِ وعَصَيتُم مِن بَعدِ ما أرىٰكُم ماتُحِبّونَ...﴾** آل عمران:١٥٢، قال الطبري: في العبارة تقدم وتأخر واصلها كان: «حتى اذا تنازعتم في الأمر فشلتم...» يعني ان العبارة كانت من الموارد التي فيها الكلمة المتقدمة متأخرة في المعنى.[(١٧)]

عند البحث في آية **﴿...إعدِلوا هُوَ أقرَبُ لِلتَّقوىٰ﴾** المائدة:٨ حيث يدعو القرآن المسلمين للعدل، في بداية الآية أمر للمؤمنين بالقيام في سبيل الله وبالشهاد ة بالعدل وفي القسم الثاني من الآية تأمر: ان عداء قوم يجب الاّ يكون مانعاً من اجراء العدل، وفي القسم الثالث للآية و من اجل اتكاء اكثر على العدل ولاعطائه اهمية أكبر يقول القرآن «إعدلوا هو اقرب للتقوى»، قال

الطبري[١٨]: مرجع ضمير «هو» في هذا المورد الى «عدل»، يعني: العدلُ اقرب للتقوى، واضاف انه يؤتى في العربية احياناً للفعل والمصدر بضمير، فمثلاً يقال «اعدلوا هو اقرب للبقوى» حيث ضمير «هو» يرجع الى مصدر الفعل «عدل»، وكما في آية ٢٧١ من سورة البقرة ﴿إن تُبدُوا الصَّدَقـٰتِ فَنِعِمّاهِيَ وإن تُخفوها وتُؤتوهَا الفُقَراءَ فَهُوَ خَيرٌ لَكُم...﴾ حيث ضمير «هو» يرجع الى مفهوم الجملة.

واحياناً فان اسم الاشارة «ذلك» ايضاً يرجع الى مفهوم الفعل، كما جاء في آية ﴿وإذا طَلَّقتُمُ النِّساءَ... ذٰلِكُم أزكىٰ لَكُم وأطهَرُ﴾ البقرة:٢٣٢، حيث ان اوائل الآية المذكورة تحدثت عن باب الطلاق واجرائه بعدالة ثم في نهاية الآية قالت «ذلكم ازكى لكم» اي ان هذا الامر سيكون تزكية ونماء في العقل والروح.

واوضح الطبري ان المجيء بضمير «هو» في جملة «اعدلوا هو اقرب للتقوى» قد سبّب رفع الصفة التفضيلية «اقرب» والجملة الاسمية دالة على الاستمرار والتجدد و الحدوث ولها بلاغة اقوى، في حين انه بدون ضمير «هو» كان يجب القول «اعدلوا اقرب للتقوى» كما في آية ﴿إنتَهوا خَيراً لَكُم﴾ النساء:١٧١، بنصب كلمة «خيراً».

عند البحث في آية ﴿لايُؤاخِذُكُمُ اللّهُ بِاللَّغوِ في أَيمـٰنِكُم ولٰكِن يُؤاخِذُكُم بِما عَقَّدتُمُ الأيمـٰنَ...﴾المائدة:٨٩، حيث كلمة «عقدتم» من باب تفعيل واصلها «عقد» بمعنى وصل رأسي الحبل، ويطلق مجازاً على الامورالمعنوية، حيث ان كل توافق محكم يقال له «عقد»، كتب الطبري[١٩]: في معنى باب التفعيل: التكرار والكثرة، وحين استعمل القرآن كلمة «عقدتم» من باب التفعيل، مع التشديد، وليس «عقدتم» بالتخفيف، فقد اراد ان يستنبط منها مفهوم الكثرة والتكرار.[٢٠]

والمقصود من «عقد الايمان» هوالقسم بجدّية وتصميم، حيث كفارة قسم كهذا واحد من ثلاثة ﴿فَكَفّـٰرَتُهُ إطعامُ عَشَرَةِ مَسـٰكينَ مِن أوسَطِ ماتُطعِمونَ أهليكُم أو كِسوَتُهُم أو تَحريرُ رَقَبَةٍ﴾ المائدة:٨٩، وأن تعذّر احدى هذه الكفارات ﴿فَمَن لَم يَجِدْ فَصيامُ ثَلـٰثَةِ أيَّامٍ﴾. المائدة:٨٩

عند البحث في آية ﴿وقالَتِ اليَهودُ

يَدُاللّهِ مَغلولَةٌ...﴾ المـائدة:٦٤، حيـث قال اليهود[٢١] ان يدالله مغلولة كنـاية عن عدم الانفـاق والعطاء، واجـابهم القـرآن ﴿...غُلّت أيدِيهِم ولُعِنـوا بِما قالوا بَل يَداهُ مَبسوطَتانِ يُنفِقُ كَيفَ يَشاءُ...﴾. المائدة:٦٤

قال الطبـري: كلمة «يـد» في هـذه الايـة مجـاز بمعنى الاعطـاء اوالانفـاق والبذل، لان البذل والاعطاء غالباً مايكون باليد، وقد قيل في شعر الاعشى في مدح رجل:

يداك يدا مجد وكـــفّ مفيدة
وكفّ اذا ما ضنن بالزاد تنفق[٢٢]

وقد استعمل القرآن كلمة «يد» على عادة العرب.

وقـد كتب الطبـري فـي ذيل الآيـة المـذكـورة ﴿وقـالـت اليهــود يـدالله مغلولة﴾:[٢٣] يعني بـذلك انهم قـالوا ان الله يبخل علينا ويمنعنا فضلـه فلايفضل كا لمغلـولة يـده الذي لايقـدران يبسطها بعطـــاء ولا بـذل معـــروف. واضـــاف الطبـري: ان البعـض قال: بمـا ان «يـد» بمعنى العطاء والبذل فقدكان من الافضل ان يأتـي القرآن بعـد «يد اللّـه مغلولـة» بـــ«بل يده مبسـوطة» وليـس «بل يـداه مبسوطتان».

واجاب الطبري انه بـاعتبار ان نعم الله «لاتعـد ولاتحصـــى» وقـــول القـرآن ﴿وإن تَعُـــدّوا نِعمَـــةَ اللّـــهِ لاتُحصوها...﴾ابراهيم:٣٤ والنمـل:١٨، فاعتماداً علـى هذا الاصل قال «بـل يداه مبسـوطتان» بصيغـة المثنى، اذ عـلاوة على تأكيـد المطلب اضاف كنايـة لطيفة عن جود الله وعطـائه، لان اسخياء الطبع والكرماء ينفقون بكلتا يديهم.

عند البحث فـي آية ﴿...إذا حَضَرَ أحَدَكُمُ المَوتُ حِيـنَ الوَصِيَّةِ اثنانِ ذَوا عَـدلٍ مِنكُم أو ءَاخَـرانِ مِـن غَيرِكُـم إن أنتُـم ضَرَبتُـم في الأرضِ فَأصـــٰبَتكُم مُصيبَةُ المَـوتِ تَحبِسونَهُمـا مِن بَعـدِ الصَّلـوٰةِ فَيُقسِمـــانِ بِـــاللّـــهِ...﴾ المائدة:١٠٦.

قـال الطبري: لأن كلمــة «الصلـوة» ذكـرت بـألـف ولام وكـــانـت معـرّفـة، فالمقصود هي صلـوة العصرللمسلمين وليســت صلوة غيـرالمسلميـن «اللذيـن يريـدان القسم»، لانه في صلـوة العصر يشترك جمــع اكبر من المصلّيـن، ولهذا كـان وقت العصــر وقـت التحـاكم بيـن المسلمين. وعلى قول الطبري «...واولى

القولين في ذلك بالصواب عندنا قول من قال تحبسونهما من بعد صلاة العصر، لان الله تعالى عرّف الصلوة في هذا الموضوع بادخال الالف واللام فيها ولاتدخلهما العرب الاّ في معروف امّا في جنس او في واحد معهود معروف عند المخاطبين...».[٢٤]

وفي قسم آخر من نفس الآية ١٠٦ سورة المائدة يعني **﴿يٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهٰدَةُ بَيْنِكُم إذا حَضَرَ أحَدَكُمُ المَوتُ حِينَ الوَصِيَّةِ اثنانِ ذَوَا عَدلٍ مِنكُم أو ءَاخَرانِ مِن غَيرِكُم﴾**. اشارالطبري الى «الحذف» وهو احد المباحث الرئيسية في علم المعاني في البلاغة، ونعلم انه قد يكون ترك ذكر شيء أبلغ من ذكره.

وقد كتب الطبري عند البحث في هذه الآية[٢٥]: ان كون كلمة «اثنان» مرفوعة بقول مدرسة نحو البصرة، من جهة انها كانت في الاصل «اثنان ذوا عدل منكم» في «شهادة اثنين ذوي عدل منكم» وحذفت كلمة «شهاد ة» وحلت محلّها كلمة «اثنان» التي رُفعت، كما في آية **﴿وَاسئَلِ القَريَةَ الَّتي...﴾** يوسف:٨٢ حيث كانت في الاصل «واسأل اهل القرية التي...» ثم حذفت كلمة «اهل» واعطي اعرابها الى «القرية»، وفي الآية الاولى فقد عطفت كلمة «آخران» على كلمة «اثنان» بحرف العطف «أو».

لكنّ الكوفيين يرون رأي ان رفع كلمة «اثنان» هو بكلمة «شهادة»، وبعض آخر قالوا ان رفع كلمة «شهادة» بفعل «اذا حضر»، وقد اختار الطبري هذا القول لأنه يعتقد ان جملة «اذا حضر» بمعنى «عند حضور احدكم الموت» و«اثنان» ايضاً مرفوعة بذلك.

وقد اشار الطبري في تفسيره الكبير بكثرة الى «الحذف» واورد امثلة على الحذف من اشعار العرب.[٢٦]

عند البحث في آية **﴿ولَوتَرىٰ إذ وُقِفوا عَلَى النّارِ فَقالوا يٰلَيتَنا نُرَدُّ ولانُكَذِّبَ بِآيٰتِ رَبِّنا ونَكونَ مِنَ المُؤمِنينَ﴾**الانعام:٢٧.

كتب الطبري[٢٧]: اولاً بملاحظة ان التفاوت بين «إذ» و«اذا» هو ان «إذ» بصدد المسائل المربوطة بالماضي و«اذا» مربوطة بالموضوعات الآتية، ووقوف المشركين في النار مربوطة بالمستقبل، وعلى هذا كان ينبغي استعمال «اذا»، بينما استعملت «إذ» في

هذه الآية، ان العرب قـد تضـع «اذ» مكان «اذا» وتضـــع «اذا» مكـــان «اذ»، واورد الطبري شعراً لشاهد علـى مدّعاه. وكتب الطبري: ثانياً ان القـرآن الكريم قال «اذ وقفوا» وذكر الفعل الثلاثي المجرد وقف بصيغة المجهول، وليس «اذا وقفوا»، فقد كان ذلـك افصح لانه فـي العربيـة يقال «وقفت الدابة»[٢٨] بغير ألف، اذا حبستها، وكذا يقال «وقفت الارض» عنـدما توقف الارض بعنوان الصدقة حيث يبقى اصلها ولايمكن بيعـه، وعلى هذا ففعـل «وقف» فعـل متعد ويمكـن ان يصـاغ منه فعـل للمجهول، وفـي الاتيان بـ«وقفوا» على انه مجهول في البلاغـة يتضمن نوعاً من التحقير.

عند البحث فـي آية ﴿وما مِن دابَّةٍ في الأرضِ ولا طـٰئِرٍ يَطيرُ بِجَنـاحَيهِ إلاّ..﴾الانعام:٣٨ حيـث قـــال بعــض الطاعنين ان جملة «يطير بجناحيه» زائدة ولافائدة مـن ذكرهـا، لانه معلـوم ان كل طائر يطير بجناحيه، ويقول الطبري عن الطاعنين «وهل يطير الطائر الاّ بجناحيه، فما في الخبر عن طيرانـه بالجناحين من فائدة ؟».

اولاً في جـواب هؤلاء يجـب القول: صـحيح ان كل طائريطير بجناحيه، ولكن لانه في بعض المـوارد تطلق هذه الكلمة على الامور المعنوية التي لها سمو وعلّو معّين، وعلى هذا فقـط فقد اضيفت جملة «يطير بجنـاحيه» لتخصيـص اطلاقهـا ليشمل الطيور فقـط، ويقول الطبري[٢٩]: فان القـرآن الكريم النازل بلسـان العرب ولغتهـم المتـداولة راعـى منطقهـم فـي تخـاطبهـم حيث ان هـذه الاستعمـالات موجود ة في باب المبالغة بلسان العرب، كمايقــال «كلّمت فلاناً بفمـي» و«مشيت اليه برجلي»، فعلى هذا الاصل اكدّ القرآن فـي باب المبـالغة وقـال «ولاطائريطيـر بجناحيه».

وفــي معـرض البحــث فـي آيـــة ﴿ولاتَقرَبـوا مالَ اليَتيمِ إلاّ بِالَّتـي هِيَ أحسَنُ حَتّىٰ يَبلُغَ أشُدَّهُ...﴾ الانعام:١٥٢ حيث حرّم القرآن التقـرب الى مال اليتيم «الاّ بمـا فيـه صلاحـه وتثميـره»، قـال الطبري[٣٠]: في الكلام حذف. لان العبارة المذكورة تدّل على جملة محذوفة، وعلى هذا فتـرك ذكر المحـذوف ابلغ، العبـارة كانت في الاصل: «ولاتقـربوا مال اليتيم الاّ بالتي هي احسن حتى يبلغ اشدّه، فاذا بلغ اشدّه فـأنستم منه رشداً، فادفعوا اليه

ماله».

وقد اشار الطبري في تفسيره الى نوع خاص من صنعة الالتفات وقال[٣١]: يمكن ان يكون الخطاب في بدايته لمفرد ثم يكون الجمع مورد الخطاب، ولهذا النوع من الالتفات امثلة كثيرة في القرآن الكريم مثل آية ﴿**يـٰأيُّهَا النَّبِيُّ إذا طَلَّقتُمُ النِّسـاءِ فَطَلِّقوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ...**﴾ الطلاق:١، حيث مورد الخطاب ظاهراً هوالنبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) ولكن الأمر صدر عاماً.

عند البحث في آية ﴿**وكَتَبنا لَهُ في الألواحِ مِن كُلِّ شَيءٍ مَوعِظَةً وتَفصيلاً لِكُلِّ شَيءٍ...**﴾الاعراف:١٤٥، استفاد الطبري من الالف واللام في «الالواح» وقال انها عوض عن المضاف اليه، وكان يرى ان العبارة كانت في الاصل: «وكتبنا لموسى في ألواحه...».[٣٢]

و اورد الطبري في هذا الشأن من شعر النابغة الذبياني مثالاً، وهو يرى انه يوجد في القرآن الكريم ألف ولام عوضاً عن المضاف اليه مثل آية ﴿**فإنَّ الجَنَّةَ هِيَ المَأوىٰ**﴾النازعات:٤١، حيث كانت في الاصل «فان الجنّة هي مأواه». وقد استفاد الطبري من هذا التعبير ان الله تعالى أنزل على موسى الواحاً كُتبت فيها الأوامر الالهية.

عند البحث في آية ﴿**...سَأُلقي في قُلوبِ الَّذينَ كَفَروا الرُّعبَ فَاضْرِبوا فَوقَ الأعناقِ وَاضْرِبوا مِنهُم كُلَّ بَنانٍ**﴾ الانفال:١٢، حيث أمر القرآن بضرب الكافرين على جماجمهم ورؤسهم «فوق الاعناق».

نقل الطبري اقوالاً مختلفة حول تركيب «فوق الاعناق» وبيّن روايات متغايرة، فالبعض قد قالوا «فاضربوا فوق الاعناق» يعني «فاضربوا الاعناق»، وبعض قالوا أيضاً «فاضربوا الرقاب».

ثم يضيف الطبري: الافضل ان نقول «فوق الاعناق» نوع من التأكيد، لان في العربية يقال: «رأيت نفس فلان» يعني «رأيته» و«فاضربوا فوق الاعناق» يعني «فاضربوا الاعناق».[٣٣]

وبشأن «واضربوا منهم كلَّ بنان» كتب ايضاً: و«البنان» جمع «بنانه» وهي اطراف اصابع اليدين والرجلين حيث ان الأية من باب تسمية الكلّ بالجزء كانت تعني اليدين والرجلين.[٣٤]

في البحث في آية **﴿ذٰلِكُم وأنَّ اللّهَ مُوهِنُ كَيدِ الكٰفِرينَ﴾** الانفال:١٨، حيث اسم الاشارة «ذلكم» يرجع الى المطالب السابقة في الآيات الآنفة الذكر، والله يريد قول «ذلك الذي سمعتم هو حال المؤمنين والكافرين» وبعد اسم الاشارة «ذلكم» يريد القرآن القول ان العاقبة هي نصر المؤمنين وان الله يبطل مكر الكافرين لكيلا يلحقوا الأذى بالمؤمنين بهذا البيان «...وأنّ الله موهنُ كيد الكٰفرين»

وقد بحث الطبري حول كلمة «موهن» وقال[٣٥]: قرأ اهل مكة والمدينة ونحاة البصرة «موهّن» بتشديده على انه من باب تفعيل، ولكن نحاة الكوفة قرأوا «موهن» بدون تشديد، وباعتقاد الطبري «والتشديد في ذلك اعجب اليّ» لان في مفهوم باب تفعيل «وهن» تدريجي وضعف يتلو بعضه بعضاً وهزائم متوالية، وهذا أبلغ (مع ان «موهن» بدون تشديد ايضاً صحيحة).

عندالبحث في آية **﴿...وإن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لا يُؤمِنوا بِها وإن يَرَوْا سَبيلَ الرُّشدِ لايَتَّخِذوهُ سَبيلاً وإن يَرَوْا سَبيلَ الغَيِّ يَتَّخِذوهُ سَبيلاً﴾** الاعراف:١٤٦.

كتب الطبري في معرض بحثه عن كلمة «رشد» في هذه الآية[٣٦]: بناءً على قول أبي عمروبن العلاء، فهذه الكلمة بضم الراء وسكون الشين بمعنى «الصلاح» المطلق كما في آية (٦) سورة النساء **﴿فَإن ءَانَستُم مِنهُم رُشداً﴾** وعلى فرض فتح الراء وفتح الشين فهي بمعنى «الاستقامة والصواب في الدين».

عند البحث في آية **﴿كَيفَ وإن يَظهَروا عَلَيكُم لايَرقُبُوا فيكُم إلاَّ ولاذِمَّةً يُرضونَكُم بِأَفواهِهِم وتَأبىٰ قُلوبُهُم وأكثَرُهُم فٰسِقونَ﴾** التوبة:٨، اشار الطبري الى حذف عبارة، وقال بانه في صورة تكرار اداة الاستفهام يمكن بقرينة حذف العبارة بعد اداة الاستفهام، كما في الآية المذكورة بعد «كيف» حيث حذفت عبارة «...يكون هؤلاء المشركون الذين نقضوا عهدهم» بقرينة الآية السابقة القائلة **﴿كَيفَ يَكونُ لِلمُشرِكينَ عَهدٌ عِندَاللّهِ وعِندَ رَسولِهِ...﴾** التوبة:٧.

ويورد الطبري لدعم مقولته شعر كعب بن سعد الغنوي كمثال:

وخبرّ ثماني انما الموت في القرى

فكيف وهذي هضبةوكثيب؟

حيث بعد «كيف» حذفت جملة «يكون الموت في القرى».[٣٧]

عند البحث في آية **﴿قالوا أتَعجَبينَ مِن أَمرِ اللّهِ رَحمَةُ اللّه[٣٨] وبَرَكٰتُهُ عَلَيكُم أهلَ البَيتِ إنَّهُ حَميدٌ مَجيدٌ﴾** هود:٧٣، يرى الطبري ان الالف واللام في كلمة «البيت» عوض عن المضاف اليه الذي هو عبارة عن «ابراهيم»، وفي الواقع فقد كانت الجملة ومعناها الحقيقي هكذا «رحمة الله وسعادته لكم اهل بيت ابراهيم».[٣٩]

ان الرحمة الالهية على ابراهيم واهل بيته ليست فقط ان الله نجّى ابراهيم (عليه السّلام) من براثن النمرود الظالم ولكن هذه الرحمة الالهية إستمرت بشكل يمكن القول انه مامن رحمة أكبر من مجيء النبي الاكرم (صلّى الله عليه وآله وسلّم) من اهل بيت ابراهيم (عليه السّلام). ويقول القرآن في نهاية الآية لتأكيد أكثر «انه حميد مجيد».[٤٠]

عند البحث في آية **﴿خٰلِدينَ فيها ما دامَتِ السَّمٰوٰتُ والأرضُ﴾**هود:١٠٧، اشار الطبري الى صفة التأبيد واضاف ان معنى«مادامت السموات والارض» يعني أبداً، وفي توضيحاته قال «وذلك ان العرب اذا ارادت ان تصف الشيء بالدوام ابداً قالت هذا دائم دوام السموات والارض بمعنى انه دائم أبداً».[٤١] والملفت للنظر هنا هو ان الخلود مقيدّ بـ«مادامت السموات والارض»، وعلى اساس صريح القرآن فان السموات تطوى والارض تفنى **﴿يَومَ تُبَدَّلُ الأرضُ غَيرَ الأرضِ والسَّمٰوٰتُ﴾**ابراهيم:٤٨. و**﴿يَومَ نَطوِي السَّماءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلكُتُبِ﴾** الانبيا:١٠٤، ولكن يجب العلم ان تعبيرات كهذه موجودة في العربية وهي كناية عن الابدية والخلود النسبي، كما يقال: إن هذا الوضع سيدوم «ما لاح كوكب» أو «ما لاح الجديدان».[٤٢]

عند البحث في آية **﴿ولَو شاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن في الأرضِ كُلُّهُم جَميعاً﴾** يونس:٩٩، حيث احتمال الاشارة الى

الايمـان الجبري والاضطـراري، وطبعـاً فـان ايمانـاً كهذا لاقيمـة له، وان اصـل الحريـة والاختيار يلزم ان يؤمـن الناس بالله عن ادراك وشعور.

وقد اجاب الطبري على الطـاعنين الذين قالوا: كلمة «كلّ» تدل على الجميع و«جميع» هي نفس «كلّ»، فما وجه تكرار ذلـك وكـلّ واحـدة منهمـا تغنـي عـن الاخرى؟، قال الطبري[٤٣]: ان هذا نفسه نـوع مـن التـأكيد وفـي القـرآن وجـود لعبارت التأكيد مثل﴿...لاتَتَّخِذوا إلٰهَينِ اثنَينِ...﴾النحل:٥١، حيث كلمـة «اثنين» وردت للتأكيد في حيـن ان كلمة «الهين» نفسها تفيد المثنّى.

عند البحث في آية ﴿إذ قالَ يوسُفُ لأبيهِ يـٰأبَتِ إنّي رَأيتُ أحَدَ عَشَرَ كَوكَباً والشَّمسَ والقَمَرَ رَأيتُهُم لي سٰجِدينَ﴾ يوسف:٤، قال الطبري[٤٤]: اولاً ان تكرار فعل «رأيتهم» كان للتـأكيد ويحوز اهمية بلاغية ويعبّر عن الحدّية والقطع وحتمية الوقوع.

وفي الواقع فقد اراد القرآن القول ان يوسف (عليه السّلام) لم يقصّ رؤيـاه لابيه عـن شك وتـردّد بـل عـن قطع ويقيـن، وتكرار ذلك من باب «كلّمت اخاك كلّمته».

والنكتـة الثـانية التـي اشـار اليهـا الطبري هي كلمة «ساجدين» التي جُمعت بـالياءوالنون وهذا النـوع من الجمـع مختص بذوي العقول، وفـي هذا المورد كـان ينبغـي ان يقـال «سـاجـدات»، وقـداوضـح الطبـري ذلـك بقـولـه: لان السجـود مـن افعـال الانسـان وذوي العقول، والشمس والقمر والكـواكب في هـذه الآية كنـايـة عـن الناس، لـذا قيـل «سـاجـدين»، وكـذا فاستعمـال الضمير «هم» للشمس والقمر والكـواكب باعتبار ان مرجع الضمير في المعنيـوالواقع الى اخوة واب وام يوسف (عليه السّلام).[٤٥]

عند البحث فـي آية ﴿...فاتَّقواللّهَ ولا تُخـزونِ فـي ضَيفـي...﴾هود:٧٨، تحدث الطبري عن المفـرد بمعنى الجمع وكتب[٤٦]: (والضيف فـي لفظ واحـد في هذا الجمع بمعنى الجمع، والعرب تسمي الواحد والجمع «ضيفـاً» بلفظ واحد. كما قالوا: رجل عدل وقوم عدل).

عند البحث في آية ﴿وما تَكونُ في

شَـأنٍ وماتَتلوا مِنهُ مِن قُرءَانٍ ولاتَعمَلونَ مِن عَمَلٍ إلاّ كُنّا عَلَيكُم شُهودًا...﴾ يونس:٦١.

حيث ورد القسم الاول والثاني من الآية بصورة المفرد والخطاب للنبي الكريم (صلّى الله عليه وآله وسلّم) والقسم الثالث بصورة الجمع وخطاب العموم «ولاتعملون من عمل».

قال الطبري[٤٧]: علاوة على انه يمكن القول ان الآيات القرآنية منزلة من الله تعالى وتلاوتها من قبل النبي الاكرم (صلّى الله عليه وآله وسلّم) والعمل بها من قبل جميع الناس، والحقيقة ان خطاب المفرد ثم مخاطبة الجمع من مختصات القرآن، كما في آية: ﴿يـٰأيُّهَا النَّبيُّ إذا طَلَّقتُمُ النِّساءَ...﴾ الطلاق:١، وحتى في الآيات القرآنية يؤتى بالمثنى احياناً لخطاب المفرد كما هو في آية ﴿قالَ قَد أُجيبَت دَعوَتُكُما فَاسْتَقيما ولاتَتَّبِعانِّ سَبيلَ الَّذينَ لايَعلَمونَ﴾ يونس: ٨٩، حيث عدل في الخطاب من المفرد الى المثنى، لأنه في الآية السابقة فان موسى دعا ربّه ﴿وقالَ موسىٰ رَبَّنا إنَّكَ ءَاتَيتَ فِرعَونَ ومَلأهُ زينَةً وأموالاً في الحَيوٰةِ الدُّنيا...﴾ يونس:٨٨، واضاف الطبري[٤٨]: ان لهذا نظيراً في شعر العرب، كما في شعر مضرس بن ربعي الاسدي، القائل:

فقلت لصاحبي لاتعجلانا

بنزع اصوله واجتز شيحا

وقد كتب الطبري[٤٩]: يمكن احياناً ذكر شيئين والاتيان بضمير لاحدهما فقط، كما ورد في آية ﴿هُوَ الَّذي جَعَلَ الشَّمسَ ضِياءاً والقَمَرَ نوراً وقَدَّرَهُ مَنازِلَ لِتَعلَموا عَدَدَالسِّنينَ...﴾ يونس:٥، فقد جيء بضمير للقمر فقط بعد ذكر كلّ من الشمس والقمر . وقد بيّن الطبري في بحث الآية المذكورة وجهين لهذا:

أحدهما ان تكون الهاء في قوله: «قدّره» للقمر خاصة، لانه بالأهّلة يعرف انقضاء الشهور والسنين لابالشمس،

والآخر: ان يكون اكتفى بذكر احدهما عن الآخر، نظير آية ﴿واللّهُ ورَسولُهُ أَحَقُّ أن يُرضُوهُ...﴾التوبه:٦٢ حيث طبق القاعده يجب ان يجعل

الضمير في «يرضوه» بصيغة المثنى لان مرجع الضمير الى شيئين. لكنه ورد بصورة المفرد، ويمكن ان يكون المنظور من ذلك ان يقال ان رضا الرسول من رضا الله وان هذين الرضائين بمنزلة رضىً واحد، ولا استقلال للنبي في مقابل الله تعالى[٥٠]، ونظير ذلك موجود في اشعارالعرب.[٥١]

عند البحث في آية ﴿...قُل فَأتُوا بِسورَةٍ مِثلِهِ...﴾يونس:٣٨، حيث يتحدى القرآن المعاندين ان يناظروه ويطلب منهم ان ياتوا بسورة مثل سوره، وقد اشار الطبري لحذف المضاف اليه «حيث حذفه من البلاغة» وقال ان الجملة كانت في الاصل «قل فأتوا بسورة مثل سورته» حيث حذفت سورة[٥٢]، كما يمكن احياناً ان يحذف فعل مع القرينة، كما في آية ﴿...فَأَجمِعُوا أمرَكُم وشُرَكاءكُم...﴾[٥٣] يونس: ٧١، حيث نصب «شركاء» بفعل محذوف وهو «ادعوا» ويعني كما يقول الطبري[٥٤]: ان المعنى كان أحكموا امركم وادعوا شركاءكم.

وهذا النوع من الحذف موجود في الشعر العربي مثل:

ورأيت زوجك في الوغى

متقلّداً سيفاً ورمحا

ومعلوم ان الرمح لايتقلّد، فعلى هذا يقال ان «حاملاً» محذوف.[٥٥]

الهوامش

---

(١) ٥: ٥٤٢.

(٢) ٥: ٥١.

(٣) قال الطبري في الجزء الخامس ص ٥٤٣ من تفسيره في بحثه ذيل الآية ٢٦٦ من سورة البقرة: وهذا المثل الذي ضربه اللّه للمنفقين اموالهم رئاء الناس في هذه الآية نظير للمثل الآخر الذي ضربه لهم بقوله «فمثله كمثل صفوان عليه تراب فاصابه وابل...».

(٤) تفسيرالطبري ٦: ٣٥٨

(٥) للتوسع في المطلب يراجع: تفسير نمونه، باشراف الاستاذ ناصر مكارم الشيرازي نشر دار الكتب الاسلامية ١٣٦٢، ج٢ ص٤٠٠

(٦) تفسير الطبري ٦: ٣٥٨-٣٥٩

(٧) ٦: ٤٢٠-٤٢١.

(٨) للتوسع البحث يراجع تفسير نمونه ٢: ٤١٦-٤١٧.

(٩) تفسير الطبري ٦: ٥٥٠-٥٥١.

(١٠) ٦: ٦٢.

(١١) تفسيرنمونه ٢: ٢٨٧.

(١٢) في مسائل البلاغة «علم المعاني» فان للتقديم والتأخير اهمية كبيرة، فحين نقول «زيد بن عمرو» اونقول «ابن عمرو زيد» فهاتان العبارتان لايمكن ان يكون مفهومهما واحداً، والعبارة اخرى فان تقديم شيء يعني ايلاء اهتمام خاص به.

(١٣) تفسيرالطبري ٦: ٤٥٨.

(١٤) تفسيرنمونه ٢: ٤٣٠.

(١٥) تفسيرالطبري ٦: ٢٨١-٢٨٢.

(١٦) ٧: ٢٤٨.

(١٧) ٧: ٢٩٢.

(١٨) ١٠: ٩٦.

(١٩) ١٠: ٥٢٤.

(٢٠) للتوسع يراجع تفسيرنمونه ٥: ٦٠-٦٦.

(٢١) قائل هذا القول كان واحداً من اليهود، ولكن لأن الباقين قد رضوا بقوله فقد نسب القرآن هذا القول لهم جميعاً «تفسير نمونه ٤: ٤٥٠».

(٢٢) ديوان الاعشى، ص ١٥٠، نقلاً عن حاشية تفسير الطبري ١٠: ٤٥١.

(٢٣) تفسير الطبري ١٠: ٤٥٥.

(٢٤) ١١: ١٧٦.

(٢٥) ١١: ١٥٩.

(٢٦) للتوسع في البحث يرجع الى تفسيرالطبري ١١: ١٩٧-٢٠٠-٥٧٨.

(٢٧) المصدر السابق ١١: ٣١٧.

(٢٨) يعني فعل ثلاثي مجرد وليس ثلاثي مزيد من باب افعال.

(٢٩) تفسير الطبري ١١: ٣٤٩.

(٣٠) ١٢: ٢٢١-٢٢٤.

(٣١) ١٢: ٢٩٨.

(٣٢) ١٣: ١٠٦.

(٣٣) ١٣: ٤٢٩-٤٣٠.

(٣٤) ١٣: ٤٣١.

(٣٥) ١٣: ٤٤٩-٤٥٠.

(٣٦) ١٣: ١١٥-١١٦.

(٣٧) ١٤: ١٤٥.

(٣٨) في كتابة كلمة «رحمت» فقد روعي الخط القرآني، لانه يقال ان الكتابة بتاء مبسوطة دلالة على بسط الرحمة الالهية.

(٣٩) تفسيرالطبري ١٥: ٤٠٠.

(٤٠) ويعني يقول الطبري: «ان الله محمود في تفضله عليكم وبما تفضل به من النعم عليكم وعلى سائر خلقه، مجيد: ذومجد ومدح وثناء كريم. «تفسير الطبري ١٥: ٤٠٠».

(٤١) تفسيرالطبري ١٥: ٤٨١.

(٤٢) للتوسع يراجع تفسير نمونه ١٢: ٢٤٥.

(٤٣) تفسير الطبري ١٥: ٥٢١.

(٤٤) ١٥: ٥٥٦.

(٤٥) نقل الطبري عن قول قتادة: «الكواكب: اخوته، والشمس والقمر: ابواه». «تفسير الطبري ١٥: ٥٥٧».

(٤٦) تفسيرالطبري ١٥: ٤١٦.

(٤٧) ١٥: ١٨٥.

(٤٨) ١٥: ١٨٥ المتن والحاشيه .

(٤٩) ١٥: ٢٣.

(٥٠) للتوسع في البحث يراجع تفسير نمونه ٨: ١٩–٢٠.

(٥١) تفسير الطبري ١٥: ٢٣ المتن والحاشيه .

(٥٢) ١٥: ٩١.

(٥٣) عنى بـ«الشركاء» آلهتهم واوثانهم «تفسير الطبري ١٥: ٢٤٩».

(٥٤) تفسيرالطبري ١٥: ١٤٨.

(٥٥) ١٥: ١٤٨–١٤٩.

* * *

في الإنفاق وما يتعلق بإخراج الزكاة

السيد حسين الطباطبائي اليزدي



■٤٦- قوله تعالى:

﴿يَسئَلونَكَ ماذا يُنفِقُونَ قُل ما أنفَقتُم مِن خَيرٍ فَلِلوالِدَينِ والأقرَبينَ وَاليَتَـٰمَىٰ والمَسَـٰكينِ وابنِ السَّبيلِ وَما تَفعَلـوا مِـن خَيرٍ فَـإنَّ اللهَ بِـهِ عَليـمٌ﴾ آية:٢١٥.

المفردات

النفقة: إخراج الشيء من الملك ببيع أو هبة أو صلة أو نحو ذلك، وقد غلب في العرف على ما كـان من عين أو ورق؛ كما في مجمع البيان.

الخير: هنا، هو المال، وسمي به لأنه حقـه أن ينفـق فـي وجـوهـه؛ كمـا هـو المشهـور بين المفسـريـن. وفي قـلائد الـدرر: لا يبعد أن يـراد بـالخيـر هنا مـا يشمل الأعمال البدنية.

الوالدين: أعم هنا ممن كان بواسطة أو بدون واسطة.

الأقارب: من ينتسب الى المنفق من الأولاد والإخوة وغيرهم.

المسكين: من ليس له نفقة سنته.

إبن السبيـل: المسافر المنقطـع عن ماله وأهله.

النزول

نزلـت في عمـرو بن الجمـوح وكان شيخاً كبيراً ذا مال كثير؛ فقال: يا رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) بماذا أتصدق على من أتصدق، فأنزل الله هذه الآية؛ كما في مجمع البيان.[1]

وفي أسباب النزول للواحدي[2] رواه عـن إبن عبـاس في روايـة أبـي صـالـح بلفظه. وقال: في رواية عطـاء نزلت الآية

في رجل أتى النبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) فقال: إن لي ديناراً؛ فقال: انفقه على نفسك فقال: إن لي دينارين؛ فقال: انفقها على أهلك؛ فقال: إن لي ثلاثة؛ فقال: انفقها على خادمك؛ فقال: إن لي أربعة؛ فقال: انفقها على والديك؛ فقال: إن لي خمسة؛ فقال: انفقها على قرابتك؛ فقال: إن لي ستة؛ فقال: انفقها في سبيل الله.

التفسير

بعدما ذكر سبحانه وتعالى في الآيات السابقة، أن حب الدنيا وزينتها هو الذي أغرى الناس بالشقاق والنفاق، وأن أهل الحق والإيمان هم الذين يتحملون البأساء والضراء في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم؛ فأحب أن يذكر هنا ما يرغب الإنسان في الإنفاق في ذلك السبيل ولا ريب أن بذل المال كبذل النفس، كلاهما من آيات الإيمان، فلما كان السامع مما تقدم نفسه تتوجه الى البذل فيسأل عن طريقه؛ فجاء السؤال مقروناً بالجواب.

فقال عز ألاؤه: **﴿يَسئَلونَكَ ماذا يُنفِقُون قُل ما أنفَقتُم مِن خَيرٍ فَلِلوالِدَينِ والأقرَبينَ وَاليَتَـٰمَىٰ والمَسَـٰكينِ وابنِ السَّبيلِ﴾.**

سألوا النبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) عن مقدار ما ينفقون، وعن بيان الجهة التي ينفقون فيها؛ كما تقدم في وجه نزول الآية.

فأجاب عن الشق الأول من السؤال، بتعبيره عما أنفقوا بالخير، ليعلم أن ثوابه وأجره يعود الى المنفق قليلاً كان أو كثيراً.

وعن الشق الثاني، بأن يقدم الوالدين لأنهما قد ربياه صغيراً وتعبا في تربيته، ثم الأولاد وأولادهم والإخوة لأنهم أولى الناس بعطفه ورعايته.

ويمكن أن يقال: أنه تعالى شأنه عبر عنهم بالأقربين للإشارة من أنه كلما كان المنفق عليه أقرب اليه رحماً وأمس به قرابة كان أولى من غيره في الإنفاق عليه، لأنه اذا تركه يحتاج الى غيره، فيكون ذلك عاراً وشناراً عليه.

ثم اليتامى لعدم قدرتهم على الكسب لصغر سنّهم.

ثم المساكين وأبناء السبيل، للتكافل العام بين المسلمين، فهم أعضاء أسرة واحدة فيجب أن يتعاونوا في السراء والضراء.

﴿وما تَفعَلوا مِن خَيرٍ فَإنَّ اللهَ بِهِ

عَلِيمٌ﴾ أي: وما تنفقوه في وجوه البر، وما تعملوا من عمل صالح يجازيكم به الله، ولا يغيب عنه شيء وإن أسررتم به، لأنه لا يخفى عليه خافية ولا يضيع عنده أجر المحسنين.

الحكم

قد عدّ الأصحاب قدس الله أسرارهم هذه الآية الشريفة من آيات الزكاة، وذكروها في جملة أمور تتبع الإخراج.

واختلفوا في معنى الإنفاق هنا، فذهب جماعة على أن المراد بها الصدقة المندوبة، وإليه مال شيخنا الجزائري «قده» في قلائد الدرر حيث قال: بل هو الظاهر.

وبه قال كثير من الجمهور؛ كما يظهر من تفسير القرطبي[٣] وأحكام القرآن لإبن العربي.[٤]

وفي كنز العرفان: جواز حملها على الصدقة الواجبة؛ وقال: لا ينافي ذكر الوالدين لوجوب نفقتهما، المانع من إعطاء الواجبة، لجواز إعطائهما لا في جهة النفقة ولو من سهم الفقراء كإعطائهما ما يحتاجان اليه في طلب العلم أو فعل عبادة زائدة عن قدر ما هو حقهما، أو في مؤنة الزواج، إذ لا يجب إعقاق الوالد.

أقول: الظاهر حمله على مطلق الصدقة، الأعم من الواجب والمندوب أولى، ليدخل فيها جميع مندوبات الصدقات وواجبات النفقات وصلة الأرحام وغير ذلك، ولا ينافيه وجود دليل آخر يخص هذا العموم في إعطاء الزكاة الى واجبي النفقة.

وما نسب الى السدّي[٥]: من أنه نزلت هذه الآية قبل فرض الزكاة، ثم نسختها الزكاة المفروضة.

لم يثبت من طريق أهل البيت (عليهم السّلام)، مع أنه لا وجه له هنا لعدم المنافاة، وإمكان حمله على الخاص والعام، كما ذكرنا. والله العالم.

ولا يخفى أن في الآية إشارة الى إستحباب تخصيص القرابة بالإنفاق؛ كما روي عن الصادق (عليه السّلام) قال: سئلَ رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) أي الصدقة أفضل؛ قال: على الرحم الكاتح.

وفي خبر آخر عنه (عليه السّلام) قال: من وصل قريباً بحجة أو عمرة كتب الله له حجتين وعمرتين، وكذلك من حمل عن حميم يضاعف الله له الأجر ضعفين.

وفي خبر آخر: صلة الرحم بأربعة وعشرين.

وقال (عليه السّلام): لا صدقة وذو الرحم محتاج.

وعن الصادق (عليه السّلام) عن آبائه (عليهم السّلام) عن النبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) في حديث المناهي قال: ومن مشى الى ذي قرابة بنفسه وماله ليصل رحمه أعطاه الله عزوجل أجر مائة شهيد وله بكل خطوة أربعون ألف حسنة ومحي عنه أربعون ألف سيئة ورفع له من الدرجات مثل ذلك وكان كأنما عبد الله عزوجل مائة سنة صابراً محتسباً.

الى غير ذلك من الأخبار الدالة على ذلك الموجود في الوسائل.[٦]

وروى مسلم في صحيحه[٧] -بإسناده- الى جابر قال: أعتق رجل من بني عذرة عبداً له عن دبر فبلغ ذلك رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) فقال: ألك مال غيره فقال: لا؛ فقال: من يشتريه مني فاشتراه نعيم بن عبد الله العدوي بثمانمائة درهم فجاء بها رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) فدفعها اليه، ثم قال: إبدأ بنفسك فتصدق عليها فإن فَضُلَ شيء فلأهلك، فإن فَضُلَ عن أهلك شيء فلذي قرابتك، فإن فَضُلَ عن ذي قرابتك شيء فهكذا وهكذا يقول: بين يديك وعن يمينك وعن شمالك.

الهوامش

---

(١) ٢/ ٣٠٩.

(٢) ص٤٥.

(٣) ٣/ ٣٧.

(٤) ١/ ١٤٥.

(٥) كما في تفسير القرطبي٣/ ٣٧.

(٦) كتاب الزكاة-باب تأكد إستحباب الصدقة على ذي رحم ص١١٣.

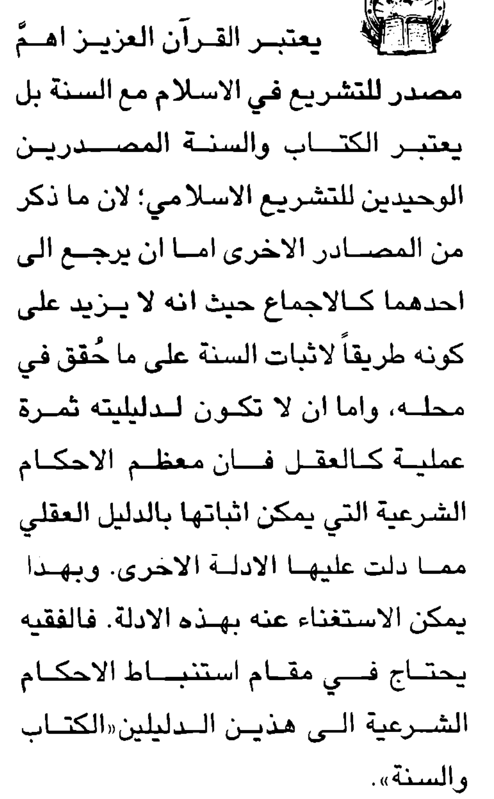
(٧) كتاب الزكاة١/ ٢٧٤.

* * *

أحكام الوضوء

القسم الأول

الشيخ محمد هادي آل راضي



مقدمة:

يعتبر القرآن العزيز اهمَّ مصدر للتشريع في الاسلام مع السنة بل يعتبر الكتاب والسنة المصدرين الوحيدين للتشريع الاسلامي؛ لان ما ذكر من المصادر الاخرى اما ان يرجع الى احدهما كالاجماع حيث انه لا يزيد على كونه طريقاً لاثبات السنة على ما حُقق في محله، واما ان لا تكون لدليليته ثمرة عملية كالعقل فان معظم الاحكام الشرعية التي يمكن اثباتها بالدليل العقلي مما دلت عليها الادلة الاخرى. وبهذا يمكن الاستغناء عنه بهذه الادلة. فالفقيه يحتاج في مقام استنباط الاحكام الشرعية الى هذين الدليلين «الكتاب والسنة».

والمقصود بالكتاب كدليل هو الايات القرآنية التي تتعرض لبيان الاحكام الشرعية وتكون دليلاً مثبتاً لها. وهي التي تسمى بايات الاحكام، وتبلغ خمسمائة آية على ماذكروا، وان كانت الاحكام المستنبطة منها اكثر من ذلك بكثير اذا لاحظنا ما يستفاد او ما استفيد منها بالدلالات الاخرى غير المطابقية كما ستعرف.

وفي هذه الدراسة سيكون التركيز على امرين مهمين؛

الاول: كيفية استفادة الحكم الشرعي من الاية القرآنية

الثاني: المقارنة بين طريقة الاستنباط من الكتاب التي يمارسها علماء الامامية وبين طريقة الاستنباط عند العامة. وكل من الامرين يحتاج الى دراسة الاية من جميع النواحي اللغوية

والتاريخيــة واسباب النزول وغيـر ذلك. وقــد تدخــل في الــدراســة علوم أخــرى يتوقف عليها بيان كيفية الاستنباط.

وهناك اسلوبان يمكـن للباحث في هـــذا المجـال ان ينتهجهمـــا، الاول: ان تبحـث آيات الاحكـام بحسب تسلسلهـا الــوارد فــي القـرآن على طـريقـة كتـب التفسير. الثاني: ان تبحث الايات بحسب الموضوعـات على طريقة الكتـب الفقهية بان تجمع كل الايــات المتعرضة للطهارة مثلاً وتبحث في كتاب الطهارة وهكذا.

ومن الـواضح عـدم فنية الاسلـوب الاول؛ لانه يستلزم البحث عن الموضـوع الواحد مراراً عديـدة كلما تعرضت الايات لذلـك. مع تخلل البحـث عن المـواضيع الاخرى اثنـاء ذلك، وهذا متعـب للدارس وللقارىء كما لا يخفــى. والمصادر التي تبحث فــي آيات الاحكام تتبــع الاسلوب الثاني، ولـم اجد فيما بين يـدي من هذه المصادر مــن اتبع الاسلـوب الاول. نعم كتاب آيــات الاحكام للشــافعي المتـوفى سنة ٤٥٨هــ لم يتبع أياً من الاسلوبين بل لم يجر على اساس واضـح.

والمـلاحـظ ان معظم الكتـب التــي أُلفت في هذا المجـال لم تستوف البحث في الايات استيفاءً تاماً يوصلنا الى اثبات الحكم الشرعي او نفيه كما هو المتعارف فــي مجــال البحث الفقهــي، فــان اغلـب الدارسيــن لا يصلون الــى النتيجة التــي تتوخاها هذه البحوث، فهم اما ان يذكروا الحكم الشرعــي مبنياً على فهم الآخـرين الذين ينقلون عنهم واما ان يذكروه مبنياً على احتمال في الآيــة لم يتعبوا انفسهم في تقييمه؛ ولذا فان كثيراً من النتائج في هذا المجــال تبقى معلقــة لا يمكن حتــى نسبتها الى صاحــب الكتاب. ولعل السرَّ في ذلك ان استنباط الحكـم الشرعي من الآية يتوقف على جملـة من الامور –كما تقـدم–. وقد يصعـب علــى الباحـث ان يجتهد فيها جميعاً ويكوِّن رأياً نهائياً فيها حتى يصل الى اثبات الحكم الشرعي.

وعلى سبيل المثال نــذكر الروايات الكثيرة الــواردة في شــأن النزول فــانها مما يحتاجــه اليها الباحث حــاجة اكيدة، حيث انهــا تلقي ظــلالاً على الآيــة وتعين على فهم المراد منها بل تلك آيات لا يمكن فهمها بشكــل تام دون الاستعــانة بهــذه الروايــات. ومن الواضــح ان غالــب هذه الروايات ليست منقحة، من حيث السند، وهذا يحتــاج الى بذل جهد مستقـل قد لا

يتوفر للباحث، ولذا قد يُستند اليها في تشخيص معنى الآية والوصول الى نتيجة مبنية على صحة تلك الروايات، وهذا معنى تعليق البحث.

وهذه الظاهرة تكاد تكون معدومة في البحوث الفقهية ويمكن ان يكون السبب في ذلك مع علمنا بقدرة الباحثين على تلافي هذا النقص –هو ان الفقيه في البحث الفقهي يريد التوصل الى نتيجة يفتي بها ويلتزم بها بينه وبين ربه وهذا يحتاج الى سدّ كل الثغرات الموجودة في عملية الاستنباط في حين ان الباحث في آيات الاحكام لا يريد ذلك، ولذا قد يترك بعض الثغرات مفتوحة، واما الفقيه فنجد أنه حينما يعزم على بحث الآية بحثاً تاماً يوصله الى نتيجة قطعية فانه يستوعب البحث عن الآية من جميع جوانبها مع سدِّ كل الثغرات.[1]

كتاب الطهارة

الآية الاولى:

قوله تعالى: **﴿يـٰأيُّهَا الَّذينَ ءَامَنوا إذا قُمتُم إلَى الصَّلوٰةِ فَاغْسِلوا وُجوهَكُم وأيدِيَكُم إلَى المَرٰفِقِ وامسَحوا بِرُءُوسِكُم وأَرجُلَكُم إلَى الكَعبَينِ وإن كُنتُم جُنُباً فَاطَّهَّروا وإن كُنتُم مَرضىٰ أو عَلىٰ سَفَرٍ أو جاءَ أَحَدٌ مِنكُم مِنَ الغائِطِ أو لٰمَستُمُ النِّساءَ فَلَم تَجِدوا ماءًا فتَيَمَّموا صَعيداً طَيِّباً فَامْسَحوا بِوُجوهِكُم وأيديكُم مِنهُ ما يُريدُ اللَّهُ لِيَجعَلَ عَلَيكُم مِن حَرَجٍ ولٰكِن يُريدُ لِيُطَهِّرَكُم ولِيُتِمَّ نِعمَتَهُ عَلَيكُم لَعَلَّكُم تَشكُرونَ﴾**.[2]

هذه الآية الشريفة تتعرض الى موضوع الطهارات الثلاث، والفقرة الاولى منها تتعرض للوضوء وهي محل البحث فعلاً وفيها توجد عدة مباحث.

البحث الاول:

ان ظاهر الخطاب من الآية هو الاختصاص بالمؤمنين وهذا يعني ان الخطاب بما يشتمل عليه من تكاليف يختص بهم ولا يشمل غيرهم فهل يمكن الالتزام بهذا الظاهر؟ واذا لم نلتزم به فما هو الوجه في تخصيص الخطاب بهم؟

من الواضح ان هذا التساؤل انما يطرح بناء على النظرية القائلة بان الكفار مكلفون بالفروع كما هم مكلفون بالاصول كما ذهب اليه المشهور من الفريقين. وفيه انه يحتاج الى توجيه الآية

من حيث مخالفة ظاهرها لما ذهبوا اليه.

واما بناءً على الرأى الاخر من هذه المسئلة القائل بان الكفار غير مكلفين بالفروع فلا اشكال في الاخذ بظاهر الآية والالتزام باختصاص التكليف الذي يتضمنه الخطاب بالمؤمنين. وهذا الرأي ذهب اليه بعض علمائنا كصاحب الوافي والحدائق، ونسب الى المحدث الاسترباذي واختاره بعض المحققين من المتأخرين، ومن العامة اختاره ابو حنيفة ونسب الى بعضهم التفصيل بين الاحكام الوضعية والتكليفية بالتزام تعميم الاحكام الوضعية للكفار دون التكليفيه. ولعل السرّ هو عدم وجود محذور في تعميم الاولى كما هو موجود في الثانية وهو عدم التمكن من الامتثال وقصد التقرب. وعلى كل حال فالسؤال يرد بناءً على ما ذهب اليه المشهور وهو جارٍ في كل آية تتضمن تكليفاً وتتصدر بخطاب ياايها الذين آمنوا ونحوه.

والصحيح من الجواب ان الاشكال اساساً مبني على دعوى دلالة الجملة على انتفاء الحكم عن غير المؤمنين، وهذا يثبت بمفهوم الوصف للجملة او ما يشابهه باعتبار ان الحكم في الآية ثبت لاشخاص اتصفوا بالايمان فينتفي الحكم بانتفاء هذا الوصف وهذا ينتج الاختصاص. في حين ان الثابت في محله عدم دلالة الجملة الوضعية على المفهوم فلا تدل الجملة على انتفاء الحكم عن غير الواجد للوصف، وانما هي تثبت الحكم للواجد من غير ان تتعرض لنفيه عن غيره ولذا يكون الفاقد مسكوتاً عنه، فلا يستفاد حكمه من نفس الاية.

وهذا يعني ان الآية تثبت الحكم للمؤمنين من غير ان تدل على انتفائه عن غيرهم فلا يلزم الاشكال السابق على رأي المشهور.

نعم يبقى بيان فائدة التقييد بالوصف اذا فرض امكان كون الحكم عاماً ثابتاً حتى مع انتفاء الوصف فانه قد يدعى لغوية التقييد بالوصف في الجملة. والجواب انه يكفي لرفع محذور اللغوية وجود بعض الفوائد المترتبة على هذا التقييد من قبيل شدة اهتمام المتكلم بالحصة الواجدة للوصف. وهنا يمكن ان تكون النكتة الموجبة للتقييد في الآية الشريفة هو ان المؤمنين هم المهيئون للامتثال المنتفعون بالاعمال، واما غيرهم فليس مهيئاً لذلك لانه يحتاج الى

الايمان حتى يصبح متمكناً من الامتثال ومنتفعاً بالاعمال وهذه نكتة تصحح التقييد وان كان الحكم ثابتاً في حق الكافر ايضاً.

البحث الثاني:

-يرتبط بقوله تعالى: ﴿**إذا قُمتُم إلَى الصَّلوٰةِ**﴾. قيل ان القيام يمكن تصوره على نحوين؛ قيام دخول وقيام تهيؤ وعلى الاول يكون معنى الآية اذا قمتم قيام دخول في الصلاة وعلى الثاني اذا قمتم قيام تهيؤ واستعداد للصلاة.

وقيل انه يتعين المصير الى الثاني لعدم امكان الالتزام بالاول لان قيام الدخول يلزم منه ان يكون الوضوء بعد التلبس بالصلاة وهذا يخالف شرطية الطهارة للصلاة، بخلاف ما اذا قلنا بالثاني فلايلزم منه هذا المحذور.

وذهب بعضهم الى امكان الالتزام بالاول ولا يلزم المحذور، وذلك بدعوى وجود مقدر محذوف في الآية وهو الارادة فكأن الآية تقول اذا اردتم القيام للصلاة وفيه يرتفع الاشكال. والتخريج الفني لهذه الدعوى ان يكون من باب اطلاق المسبب على السبب اي اطلاق اللفظ الموضوع للمسبب وهو القيام على السبب وهو الارادة، باعتبار ان القيام كفعل اختياري معلول للارادة ومسبوق بها كبقية الافعال الاختيارية. هذه العلاقة تصحح اطلاق اللفظ الموضوع لاحدهما على الاخر. ونظيره الحديث المعروف «كما تدين تدان» اي كما تجازي تجازى، فان المصحح لاطلاق المجازاة على الفعل الاول الذي هو اضرار بالغير واعتداء عليه هو انه علة وسبب للمجازاة «رد الفعل»، فاللفظ الموضوع للمسبب هنا وهو المجازاة اطلق على سببه. ومن هذا القبيل قوله تعالى: ﴿**فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيكُم فَاعْتَدُوا عَلَيهِ بِمِثلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيكُم**﴾[٣] ونظير الآية قوله تعالى: ﴿**فَإذا قَرَأْتَ القُرءَانَ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ**﴾[٤] اي اذا اردت قراءة القرآن.

والصحيح انه لاموجب للالتزام بذلك بل يمكن الالتزام بظاهر الآية من دون تقدير ومن دون ان يلزم المحذور السابق، وذلك لان كلمة «الى» موضوعة للغاية، وهي تعني ان ما بعدها غاية للفعل الواقع قبلها، وانه ينتهي اليها ويقف عندها؛ فقولك صم الى الليل يعني ان الليل غاية للصوم اي يجب عليك صيام

ينتهي بالليل وعليه فيكون معنى الآية بناء على ان القيام فيها قيام دخول -هو اذا قمتم قياماً من زمان ينتهي بكم ويدخلكم في الصلاة فاغسلوا وجوهكم... فتكون الغاية زمانية ويكون الوضوءواقعاً مثل الصلاة اي في الزمان الذي يدخل وينتهي بالصلاة.

وهناك احتمال آخر في تفسير القيام لا يرد عليه الاشكال اصلاً وهو ان المراد هو القيام من النوم ويكون مفاد الآية اذا قمتم من النوم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم... فيكون الوضوء واقعاً قبل الصلاة اي حين القيام عن المضاجع. وهذا التفسير تدل عليه روايات واردة من الفريقين فمن طرق العامة ما اخرجه مالك والشافعي عن زيد بن اسلم ان تفسير الآية اذا قمتم من المضاجع يعني النوم الى الصلاة[٥]. ومن طرقنا موثقة ابن بكير قال قلت لابي عبد الله (عليه السّلام) قوله تعالى: «اذا قمتم الى الصلاة» ما يعني بذلك اذا قمتم الى الصلا ة؟ قال اذا قمتم من النوم قلت ينقض النوم الوضوء قال نعم...».[٦]

البحث الثالث:

وهو يرتبط بوجوب الوضوء المستفاد من الاية، حيث ان مقتضى اطلاقه ثبوت الوجوب في حق المتطهر والمحدث معاً، لان الآية لم تقيد من يجب عليه الوضوء بالمحدث. وعليه فتدل الآية على وجوب الوضوء على كل من قام الى الصلاة ولو كان متطهراً، وهذا مما لا خلاف في بطلانه، فلابد من بيان وجه مصحح لعدم الالتزام بالاطلاق. وهناك عدة وجوه ذكرت في المقام وهي:

الوجه الاول:

دعوى تقييد الاطلاق بالاجماع والروايات الخاصة الواردة من طريق العامة والخاصة، الدالة على عدم وجوب الوضوء على المتطهر، فتكون مقيدة لهذا الاطلاق. فمن طرق العامة ما اخرجه مسلم وغيره، من ان النبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) صلى الخمس في يوم فتح مكة بوضوء واحد، فقال عمر: صنعت ما لم تصنعه، فقال (صلّى الله عليه وآله وسلّم) عمداً فعلته.[٧]

وهي صريحة في عدم وجوب الوضوء للمتطهر. ومن طرفنا ما رواه

زرارة، قلت لابي جعفر (عليه السّلام) أيصلي الرجل بوضوء واحد صلاة الليل والنهار كلها، قال: نعم ما لم يحدث.[٨]، وغير ذلك من الفريقين. وهذا الوجه يلتزم بانّنا لو بقينا والاية فهي مطلقة تشمل حتى المتطهر.

الوجه الثاني:

ما نقل عن بعض علماء العامة، من ان الامر في الآية للندب، فلا يستفاد منهّا الا استحباب الوضوء لكل من قام الى الصلاة، ولا مانع من الالتزام باطلاق ذلك، اي باستحباب الوضوء على المتطهر. نعم المحدث يجب عليه الوضوء بادلة أخرى تدل على ذلك، وهي كثيرة. وهذه الادلة لا تعتبر مقيدة للاية وانما هي مؤكدة للطلب بالنسبة الى المحدث تاكيداً يصل الى حد الالتزام والوجوب.

ويرد على هذا الوجه اولاً، انه خلاف المتفق عليه. من ان الآية بنفسها دالة على وجوب الوضوء على المحدث، ولذا يستدلون بها عليه.

وثانياً: ان كون الامر للندب، لاقرينة عليه، ودعوى ظهوره فيه مردودة، بما ثبت في محله من ان الامر ظاهر في الوجوب.

الوجه الثالث:

الالتزام بالنسخ، بان يقال إن الآية شرّعت في البداية وجوب الوضوء مطلقاً، ثم نسخ هذا التشريع بناسخ يدل على رفع وجوب الوضوء عن المتطهر، ويبقى الحكم في حق المحدث. وهذا الوجه التزم به بعض العامة، مستدلاً عليه بما رواه الحاكم في المستدرك عن عبد الله بن حنظله«ان رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) أمر بالوضوء لكل صلاة طاهراً كان او غير طاهر، فلما شق ذلك عليه أمر بالسواك عن كل صلاة، ووضع عنه الوضوء الا من حدث»[٩] ويستفاد منه نسخ الامر الاول. وبهذا الوجه يدفع المحذور، اذ لا بأس بالالتزام بوجوب الوضوء مطلقاً لحكم واقعي منسوخ، وليس فيه مخالفة للاجماع على عدم وجوبه على المتطهر. وهذا الوجه لا يختلف عن الوجهين السابقين بحسب النتيجة والفرق بينه وبين الاول هو فرق من الناحية الفنية فقط، فان الوجه الاول يقتضي الالتزام، بان الاطلاق ليس مراداً جدياً للمولى من البداية، لان القيد يكون

قرينة على المراد الجدي للمتكلم بالاطلاق، وانه عبارة عن المقيد، واما على هذا الوجه فالاطلاق يكون مطلوباً حقيقة وجداً الى زمان النسخ.

ويرد عليه اولاً: ان الاصل عدم النسخ وهذا امر متفق عليه بين الفريقين، ولايصار اليه الا بدليل. والدليل المذكور في هذا الوجه ليس تاماً حتى عند العامة، ولذا لم يلتزم بهذا الوجه مشهورهم؛ خصوصاً مع افتراض المشقة في متن الحديث، واي مشقة في وجوب الوضوء على المتطهر، وبالاخص اذا كان هو النبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم).

وثانياً: ان هذا الوجه يحتاج الى افتراض ناسخ، وطبعاً ما رواه في المستدرك لا يصلح للنسخ، وانما هو يتحدث عن نسخ الحكم بناسخ غيره، كما هو ظاهر قوله ووضع عنه الوضوء... الناسخ اما ان يكون من الكتاب او من السنة، وعلى كلا التقديرين، فلا ينسجم مع ما اتفق عليه الفريقان من أن سورة المائدة التي وردت فيها هذه الاية، هي آخر او من أواخر ما نزل على النبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم)؛ فمن طرق العامة ورد هذا المضمون«ان سورة المائدة من آخر ما نزل فأحلوا حلالها وحرموا حرامها»[١٠]، ومن طرقنا ورد«انما أُنزلت المائدة قبل ان يقبض (صلّى الله عليه وآله وسلّم) بشهرين او ثلاثة»[١١]. فالدال على النسخ اذا كان آية، فهو ينافي كون المائدة آخر سور القرآن نزولاً، مضافاً الى ان ذلك لم يدَّعِه احد، وان كان سنة فلابد من فرض وجوده في الفترة الواقعة بين نزول المائدة وبين وفاته (صلّى الله عليه وآله وسلّم). وهذا مما يصعب اثباته بل قد يكون خلاف ظاهر نفس الرواية، بمقتضى العطف بالفاء من قوله«فلما شق ذلك عليه»، فانه ظاهر في ان المشقه المستلزمة للنسخ كانت بعد ان أمر بالوضوء لكل صلاة مباشرة؛ ومن الواضح ان أمره (صلّى الله عليه وآله وسلّم) بذلك كان في بداية الدعوة لا في آخر ايامه (صلّى الله عليه وآله وسلّم)، فلابد ان يكون النسخ كذلك، وهذا ينافي كون المائدة اخر القرآن نزولاً كما قلنا.

الوجه الرابع:

وهو يرفع اصل الاشكال ان نلتزم بما تقدم من الروايات المفسرة للقيام بالاية بالقيام من النوم وقد تختص الآية بالمحدث فلا اطلاق فيها حتى يرد

الاشكال.

الوجه الخامس:

انكار الاطلاق من الآية الشريفة، بدعوى ان الايات القرآنية المثبتة للاحكام الشرعية هي في مقام اصل التشريع في مقابل عدمه وليست بصدد بيان كل التفصيلات المتعلقه بذلك التشريع؛ واذا لم تكن في هذا الصدد فلا ينعقد لها اطلاق من تلك الناحية حتى يتمسك به لنفي اعتبار مايشك باعتباره؛ وذلك لان من اهم مقدمات الحكمة التي يعتمد عليها الاطلاق، هي كون المتكلم في مقام البيان من الجهة التي يراد التمسك بالاطلاق من ناحيتها. وعليه فالمستفاد من الآية قضية مهملة وهي في قوة الجزئية.

وهذا الوجه لا يمكن الالتزام به كمطلب كلي يطبق على كل الايات القرآنية، فانها تختلف باختلاف مضامينها، فقد يصح ذلك في آية«احَلّ الله البيع» «تجارة عن تراض» وامثالها، واما فيما نحن فيه، فقد يقال بان لسان الآية لسان بيان التفاصيل المتعلقة بالوضوء، كتحديد ما يجب غسله وما يجب مسحه ومن يجب عليه ذلك.

البحث الرابع:

يرتبط بقوله تعالى«فاغسلوا»، ولا اشكال في دلالة الهيئة على الوجوب، فيستفاد من الآية وجوب الامور المذكورة فيها عند القيام للصلاة؛ وهذا متفق عليه بهذا المقدار وان اختلف في كيفية اثبات هذا الظهور، هل هو بالوضع او بالاطلاق او بحكم العقل. واما المادة اي الغسل الواجب فقد فسرّ في اللغة بانه عبارة عن امرار الماء على الشيء لغرض تنظيفه وازالة الاوساخ عنه[١٢]. وسيأتي مزيد من التوضيح عند الكلام على المسح الواجب.

البحث الخامس:

في قوله تعالى«وجوهكم» فما معنى الوجه؟. الظاهر انه مأخوذ من المواجهة، باعتبار ان العضو الخاص هو اول ما يواجه الانسان عند المقابلة، فاذا اردنا ان نحدد الوجه كعضو يجب غسله، فلابد ان نستند الى هذه النكته، اذ لا يمكن ان نستفيد من الاية -بقطع النظر عن الروايات- التحديدات التي يذكرها الفقهاء للوجه؛ وعليه فما يظهر من صورة الانسان عند مواجهته يسمى وجهاً. وكأن الآية اتكلت في تحديد العضو المغسول

علـى وضـوح المـراد منـه. ثـم ان هـذا التحـديد المبنـي على تلـك النكته ليـس دقيقاً كما هو واضـح، ولذا وقع الخلاف في تحـديد الوجـه خصوصاً عنـد علماء العامـة، حيث ذهـب بعضهم الـى ادخال الاذنين في الوجه، وذهب آخر الى ادخال ما ظهر منهما فقط، وحـدده آخر بانه من مبـدأ سطـح الجبهـة طـولاً الـى اسفـل الجبين، وعرضاً ما بين شحمتي الاذنين، وعلل بـان المواجهـة تقع بـذلك. وعليـه فلابد مـن الرجوع الى الروايـات لتحديد الوجه الذي يجب غسلـه، وبعد المراجعة تبين انها تحدده من قصاص الشعر الى الـذقن طـولاً، وما اشتمـل عليه الابهـام والوسطـى عرضاً، مثـل صحيحة زرارة عن ابي جعفر (عليه السّلام) قال: الوجه الذي أمر الله عـزوجل بغسلــه، الذي لا ينبغـي لاحد ان يزيد عليه ولا ينقص منه، ان زاد عليه لم يؤجر وان نقص منه أثم، ما دارت عليه الوسطى والابهام من قصاص شعر الرأس الى الـذقن وما سوى ذلـك فليس من الوجه»[١٣] ومـن الـواضـح ان هـذه الصحيحة ناظرة الى الآيـة الشريفة فهي مفسرة للاية ورافعة لـلاجمال الموجود فيها من هذه الناحية.

يبقـى الكـلام فـي غسـل البشـرة الواقعة تحت الشعر في الوجه فهل يجب غسلهـا وايصـال الماء اليهـا ام يكتفـى بغسل ظاهر الشعر؟. وهنا يوجد تفصيل بيـن الشعـر الكثيف والخفيـف، فيجـب غسل البشرة في الثاني دون الاول. وهذا التفصيل يمكن تخريجـه بقطع النظر عن الروايـات الخاصـة -على اسـاس نكتة المواجهـه المستفادة مـن كلمة الـوجه، لوضـوح انه فـي الشعر الخفيـف يكون المواجه للانسان هو نفس البشرة، بينما في الكثيف ما يواجـه الانسان هو الشعر الظاهـر وليس البشرة، فلا يلـزم ايصال الماء الى البشرة الواقعة تحته.

البحث السادس:

في كيفيـة غسل الوجه، فهـل يجب الغسل مـن الاعلى الى الاسفـل او يجوز الغسل منكوساً؟ قيل ان مقتضى الاطلاق في قولـه تعالى«فاغسلوا وجـوهكم» هو جواز الغسل منكوسـاً، لان الغسل -كما تقدم- عبارة عن امرار الماء على العضو، وهذا المفهـوم كما يتحقـق بالغسـل من الاعلى الى الاسفل، كذلك يتحقق بالغسل منكوساً، فانه يصـدق على من فعل ذلك

انه غسل وجهه، وليس في الآية ما يقتضي الاختصاص بالفرد الاول؛ ولعل هذا الاطلاق هو الذي جعل علماء العامة وبعض علمائنا يذهبون الى جواز النكس كالسيد المرتضى وابن ادريس والشهيد وغيرهم. والمشهور ذهب الى عدم جواز النكس اما بدعوى وجود مقيدات للاطلاق من الآية بعد التسليم به، واما بانكار اصل الاطلاق فهنا دعويان:

الاولى: دعوى وجود مقيدات، وهيّ اما ادلة لفظية دالة على اعتبار الغسل من الاعلى الى الاسفل، مثل رواية قرب الاسناد عن ابي جرير الرقاشي، قال قلت لابي الحسن موسى (عليه السّلام) كيف اتوضأ للصلاة؟ فقال لا تعمق في الوضوء ولا تلطم وجهك بالماء لطماً ولكن اغسله من اعلى وجهك الى اسفله بالماء مسحاً، وكذلك فامسح الماء على ذراعيك ورأسك وقدميك(١٤) ولا اشكال في تقييد هذه الرواية اطلاق الآية لو تمت سنداً ودلالة، والبحث في ذلك موكول الى محله. واما روايات بيانية واردة في حكاية وضوء النبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) مثل صحيحة زرارة قال حكى لنا ابو جعفر (عليه السّلام) وضوء رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم)، فدعا بقدح من ماء فأخذ كفاً من ماء فأسدله من اعلى الوجه ثم مسح وجهه...[١٥] ويدعى انها ظاهرة في لزوم ذلك لان فعل المعصوم اقترن بما يوجب ذلك وهو كونه في مقام البيان والتعليم. هذه الروايات بقطع النظر عن المناقشات الخاصة فيها–نوقش في امكان الاعتماد عليها في تقييد اطلاق الآية الشريفة وذلك لاحتمال كون غسل الامام (عليه السّلام) من الاعلى باعتباره احد فردي الواجب خصوصاً مع الالتفات الى ان هذا الفرد هو الذي يلائم طبع الانسان فانه اذا ترك على طبيعته بغسل وجهه من الاعلى الى الاسفل ويرى ان العكس فيه تكلف لا بمعنى انه ليس من افراد الواجب وعليه فلا دليل على تعيين الفرد الاول. كما انه يحتمل ان يكون اختيار الامام (عليه السّلام) لهذا الفرد في مقام حكاية وضوء النبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) مبنياً على كونه افضل افراد الواجب ومع هذا الاحتمال لا تصلح الروايات لتقييد اطلاق الاية، نعم اذا ثبت وجود تتمة لهذه الرواية كما نقلها بعض الفقهاء وهي انه (عليه السّلام) قال بعد ان توضأ: ان هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة الا به– امكن الالتزام بالتقييد

لدلالتها على وجوب الكيفية الخاصة للوضوء كما صدرت منه (عليه السّلام).

الدعوى الثانية، دعوى انصراف الآية الشريفة الى الفرد المتعارف من الخارج، وهو الغسل من الاعلى الى الاسفل، وهذا الانصراف يمنع من انعقاد الاطلاق في الاية؛ وعليه فالاية لا تشمل الفرد الاخر النادر حتى يستدل بها على جوازه. وهذا الانصراف اذا كان ناشئاً من غلبة الوجود الخارجي للفرد المنصرف اليه فهو لا يمنع من انعقاد الاطلاق كما حقق في محله لانه انصراف بدوي لا ينافي سريان الحكم على جميع الافراد ومثاله غلبة كون الانسان في الخارج سليماً في جوارحه فان هذا لا يوجب انصراف لفظ الانسان اليه دون الفرد المعيب مثلاً. واما اذا ادعي ان الانصراف ناشيء من كثرة استعمال اللفظ المطلق في ذلك الفرد، على نحو يوجب نشوء علقة جديدة بين اللفظ وذلك الفرد في طول علقته بالطبيعة الشاملة لكلا الفردين. فقد تتم الدعوى السابقة لان الانصراف في المقام حقيقي يوجب ما يشبه الوضع الجديد للفظ المطلق. الا ان الكلام في صحة هذه الدعوى وهي ليست واضحة.

الهوامش

---

(١) راجع ما كتبه السيد الخوئي والسيد الشهيد الصدر (قدس) حول آية «وانزلنا من السماء ماء طهوراً».

(٢) المائدة:٦.

(٣) البقرة:١٩٤.

(٤) النحل:٩٧.

(٥) الام: وارتضاه الشافعي من احكام القرآن:٤٥١.

(٦) الوسائل ابواب نواقض الوضوء:ب٣ح٧.

(٧) نقلاً عن تفسير القرطبي:٨١/٦.

(٨) الوسائل ابواب الوضوء:ب٧ح١.

(٩) نقلاً عن تفسير القرطبي:٨١/٦.

(١٠) نقلاً عن تفسير القرطبي:٣١/٦.

(١١) الوسائل ابواب نواقض الوضوء:ب٣٨ح٦.

(١٢) راجع مفردات الراغب:٣٧٣ وغيره.

(١٣) الوسائل ابواب نواقض الوضوء:ب١٧ح١.

(١٤) الوسائل:ب١٥و٣٠ من ابواب الوضوء.

(١٥) الوسائل:ب١٥ من ابواب الوضوء.

خمسة نماذج قرآنية مُتقابلة

الأستاذ أحمد القاضي

توطئة:

هذه النماذج الخمسةُ منبثة هنا وهناك بين آي الذكر الحكيم، وما يجمعها انها متقابلة بين أجلى نموذجين انسانيين طرحهما القرآن المجيد على بساط الوعظ والاعتبار. واذا ما انعمنا النظر في كل زوج منها ألفينا مدى التنافر والتضاد القائم بينهما، وما ذاك الاّ لأنّ«كل إناءٍ بالذي فيه ينضحُ» وكل شجرة تؤتي أكُلَها من سنخها ان حلواً طيّباً فطيّب، وان خبيثا نكداً فخبيث. ولذا فإن المراد من هذا التقابل هو تبيان بشاعة وفظاعة الكفر قبالة جمال وروعة الايمان. إنها محاولة لرسم صورةٍ واحدةٍ للموقف الواحد وباللونين الابيض والأسود والضّد-كما يقول الشاعرُ العربي- يُظهرُ حسنه الضدُ.

البعض من النماذج المنتقاة ورد في سياق قرآني واحد، في آيةٍ أو اكثر -والبعض الآخر لم ينتظم فى مثل هذا السياق، بل دعتنا ضرورة البحث الى عقد المقابلة بين نموذجين في سورتين متباعدتين الاّ انهما -في المحصلة النهائية- محكومان بمنهج البحث الذي يعتمد المقابلة -كما اسلفت- أساساً له.

بقي ان أقول، جواباً على سؤال: هل النماذج المنتخبة هي في القرآن خمسة فقط؟! بالتأكيد لا، الا ان هذا هو ما يسمح به مجال البحث هنا. و إني لآمل ان تكون المادة قيد البحث الأولي فاتحة لدراسات أوسع فيما يمكن ان يندرج تحت لافتة التفسير الموضوعي للقرآن الكريم.

النماذج على منصة البحث:

النموذج الاول: «إبنا ابراهيم ونوح»

العينة الأولى: ابن ابراهيم«اسماعيل» وقد تحدثت عنه سورةُ «الصافات» الايات(١٠٠-١٠٧) هكذا:

﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّٰلِحِينَ*فَبَشَّرنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيم*فَلَمَّا بَلَغَ مَعهُ السَّعيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي المَنَامِ أَنِّي أَذبَحُكَ فَانظُر مَاذا تَرَىٰ قَالَ يَٰأَبَتِ افعَل مَاتُؤمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّٰبِرِينَ*فَلَمَّا أَسلَمَا وَتَلَّهُ لِلجَبِينِ*وَنَٰدَينَٰهُ أَن يَٰإِبرَاهِيمُ*قَد صَدَّقتَ الرُّءيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجزِي المُحسِنِينَ*إِنَّ هَٰذا لَهُوَ البَلَٰؤُاْ المُبِينُ*وَفَدَينَٰهُ بِذِبحٍ عَظِيمٍ*﴾.

العينة الثانية: ابن نوح«كنعان» على اكثر الروايات والا فقد وردت في التفاسير اسماء اخرى لا حاجة بنا للوقوف عندها طويلا. فما يهمنا النموذج لا الاسم، كما لا يهمنا ايضا موقع كنعان في التسلسل من ابناء نوح.

جاء في سورة«هود» الايات(٤٢-٤٦) قوله تعالى:

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ابنَهُ وَكَانَ فِي مَعزِلٍ يَٰبُنَيَّ اركَب مَعَنا ولاتَكن مَعَ الكَٰفِرِينَ*قال سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعصِمُنِي مِنَ الماءِ قَالَ لاعَاصِمَ اليَومَ مِن أَمرِ اللهِ إِلاّ مَن رَحِمَ وحالَ بَينَهما المَوجُ فَكانَ مِنَ المُغرَقِينَ*وَقِيلَ يا أَرضُ ابلَعِي مَاءَكِ ويَٰسَماءُ أَقلِعِي وَغِيضَ الماءُ وقُضِيَ الأمرُ وَاستَوَت عَلَى الجُودِيِّ وَقِيلَ بُعداً للقَومِ الظَّٰلِمِينَ*وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّه فَقالَ رَبِّ إِنَّ ابنِي مِن أَهلي وإِنَّ وَعدَكَ الحقُّ وأنت أحكَمُ الحَٰكِمِينَ*قال يَٰنُوحُ إِنَّه لَيسَ مِن أهلِك إِنَّه عَمَلٌ غَيرُ صَٰلِحٍ فلا تَسئَلْنِ ما لَيسَ لك به عِلمٌ إِني أَعِظُك أن تَكُونَ مِنَ الجَٰهِلِينَ*﴾.

العلامات الفارقة فى كلّ عينة:

في عيّنة«اسماعيل» (عليه السّلام) تطالعنا مسألة ابيه ابراهيم في ان يهب الله له من الصالحين «فهو لم يطلب ولداً ايّ ولد من خلال ارضاء غريزة الابوّة في داخله، بل اراده صالحا يتحرك فى طاعة الله على أساس ان يحقق للحياة خطاً للصلاح في قاعدة الايمان بالله»[١]

فالعلامة الأولى هنا هي«الصلاح».

وتأتي الاستجابة الربانية كبشرى بـ«غلام حليم» ليقترن الصلاح بالحلم وان كان هذا فرعاً لذاك الأصل مثلما أنّ حلم اسماعيل هو فرع لحلم أبيه ابراهيم«انّ ابراهيم لحليم أوّاه منيب».(٢)

وحينما تكتمل فتوة اسماعيل يتضح الحلم والصلاح جليّين باستجابته للأمر الألهى الصادر على هيئة رؤيا صادقة عرضها عليه ابوه فلم يستخف بالعرض أو يرفضه أو يجادل فيه:

-يابني اني ارى في المنام أني اذبحك فانظر ماذا ترى؟!

-ياأبتِ افعل ما تؤمر ستجدني ان شاء الله من الصابرين!

بهذا الحوار المقتضب يتم العرض والتلبية: «ستجدني ان شاء الله من الصابرين»، وبهذه الاجابة الطافحة بالايمان يبدو جلياً كم هو اسماعيل مؤمن بربه بار بابيه. يقول العلامة الطباطبائي في ميزانه تعقيباً على ردّ اسماعيل: «تطييب منه لنفس ابيه، انه لايجزع منه ولايأتي بما يهيج وجد الوالد على ولده المرقل بدمائه.

وقد زاد في كلامه صفاء على صفاء اذ قيّد وعده بالصبر بقوله: «ان شاء الله» فأشار الى ان اتصافه بهذه الصفة الكريمة -اعني الصبر- ليس له من نفسه، ولا أن زمامه بيده، بل هو من مواهب الله ومنته..».(٣)

وليس في القصة -كما هو بيّن- اي هلع أو جزع لامن قبل الاب ولا من لدن الأبن«انما هو الاستسلام الواعي المتعقل، القاصد المريد، العارف بما يفعل، المطمئن لما يكون. لابل هنا الرضى الهادىء المستبشر المتذوق للطاعة وطعمها الجميل».(٤)

وبكلمات ثلاث: انها قصةُ «الابتلاء» و«الوفاء» و«الجزاء»!

أما في عيّنة «كنعان» فماذا نلاحظ؟

النداء الذي يصدر عن نوح يأتي من بعيد ذلك ان ابنه، وبخلاف الفئة المؤمنة الملتفة حوله- «كان في معزل» اشارة الى انه انتبذ مكاناً قصيا، واختار ان يكون«مع الكافرين» بكل صلفهم وعنادهم واستكبارهم:

- «يابني اركب معنا ولاتكن مع الكافرين».

- «سآوي الى جبل يعصمني من الماء».

- «لاعاصمَ اليومَ من أمر الله الاّ من رحم».

ويسدلُ الموجُ الستار على المشهد سريعا بابتلاعه كنعـان ليرتفع ثانية عن مشهد مناجاة نوح مع ربه بما تحمله من لهجـة الاستعتـاب المقرون بـالادب النبوي:

-رب ان ابني مـن اهلي وان وعـدك الحق وانت احكم الحاكمين!

-يانوحُ انه ليس مـن اهلك انه عمل غير صالح فلا تسئلَن ما ليس لك به علم إني اعظك ان تكون من الجاهلين!!

فالنتيجة التي تخلـص اليها القصة ان عمل كنعـان غير صالح، وانـه لا يمتُ الى النبوة والايمان بسبـب وان كان بينه وبينها صلة البنوّة.

العينتان وجهاً لوجه:

لسنا -في كل النماذج قيد الدرس- بصـدد وتفسير الآيـات المتحـدثة عـن نماذجنا المستلّة منها، ولـذا فاننا نكتفي بالقدر اليسير مـن اضواء التفسير، لاننا نريد التعـويل على المقابلـة بين النماذج اكثر من القيام بعـرض تفسيري بحت لا نرى له ضرورة طـالما ان كتب التفسير تكفلت بذلك وأَوفت.

فبعد العـرض العاجل لابنـيّ نبيين من أنبيـاء الله تعالـى، دعونـا نتأمـل في نقاط الافتراق والتباين بينهما:

-فاسمـاعيل نمـوذج البنوّة البـارّة التي تعين على أمـر الله بالصبر في ذات الله. وكنعان نمـوذج«البنوّة العـاقة التـي لاتحفل بالابوّة الملهوفة».(٥)

-اسماعيل يتقبل الأمر الالهي الذي ابلغـه به ابـوه علـى شـدته، وهـو هنـا «الذبـح» وكنعان يـرفض الـدعوة التـي وجههـا اليـه ابـوه على ليـونتهـا، وهـي هنا«النجاة»!

-اسماعيل مؤمن بـالغيب بلا أدنى تردد ليقينـه ان رؤيا أبيه أمـرُ الهي، وان تنفيذهـا طاعة لله، وبـالتالي فـان الجزاء الأوفى المترتب عليها من الله وحده، بينما نجد ان كنعان يرفض تصديق أبيه في ان المتخلف عن ركوب السفينـة غارقُ هالك لامحالة، وعليـه فلا ايمان له بـالغيب بما كـذّب بـه أبـاه المبعـوث بـأمـر الغيـب وسلطانه.

-جزاء اسمـاعيل الممتثـل لأمر الله سبحانه النجاة والافتداء بالذبح العظيم، امّا الغرق فكان بـالنسبة لكنعان المتمرد

على الارادة الربانية جزاءً وفاقا.

-النتيجة المستخلصة من القصتين هـي: «الحقيقة الكبيـرة في هـذا الديـن: حقيقة العـروة الوثقى التـي ترجـع اليها الخيوط جميعا: عروة العقيـدة التي تربط بيـن الفرد والفـرد مـا لايـربطه النسـب والقرابة..«انـه ليس من اهلك» انـه منبّت منك وانـت منبّت منه ولـو كان ابنـك من صلبك»[٦] وهـذه هي ذاتُ الحقيقـة التـي يقررهـا ويقرّها القـرآن الكريم بـالنسبة لابراهيم (عليه السّلام): **﴿قال إنِّي جَـٰعِلُك للنَّـاسِ إمامـاً قـال ومِـن ذُرِّيَّتي قـال لايَنالُ عَهدِي الظَّـٰلِمينَ﴾**.[٧]

النوذج الثاني: «إبنا آدم»

العينة الاولى: قابيل.

العينة الثانية: هابيل.

وقد سـرد الله تعالـى قصتهما فـي سورة المائدة، الآيات(٢٧-٣٢) بالشكل التالي:

﴿واتـلُ علَيهـم نَبـأَ ابنـَي ءَادمَ بِالحقِّ إذ قَرَّبا قُرباناً فتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهما ولم يُتَقَبـَّلْ مِنَ الآخَرِ قال لَأقتُلَنـَّك قال إنَّما يَتقَبَّلُ اللهُ مِنَ المُتَّقينَ*لَئن بَسَطتَ إلَيَّ يـَدَكَ لِتَقتُلَني ما أنَـا بِباسِطٍ يَدِيَ إلَيـك لأقتُلَـك إنـِّي أخـافُ اللهَ رَبَّ العَـٰلَمينَ*إنِّي أُريـدُ أن تَبوءَ بـِإثمـي وإثمِكَ فتَكونَ مِن أصحَـٰبِ النَّارَ وذٰلِك جَزاءُ الظَّـٰلِمينَ*فطَوَّعَت لَه نَفسُه قَتلَ أخيـه فقَتَلَـه فـأصبـَحَ مـِن الخَـٰسِرينَ*فَبَعَثَ اللهُ غُراباً يَبحَثُ في الأرضِ لِيُرِيَهُ كَيفَ يـُواري سَوْأةَ أخيه قال يَـٰوَيلَتَىٰ أعَجَزتُ أن أكونَ مِثلَ هَـٰذا الغُرابِ فَأُواريَ سَوْأةَ أخي فأصبَحَ مِن النَّـٰدِمينَ*مِن أجلِ ذٰلك كَتَبنا عَلَىٰ بَني إسراءيلَ أنَّه مَن قَتـَلَ نَفساً بِغَيرِ نَفسٍ أَو فَسادٍ في الأرضِ فكَأنَّمـا قَتَلَ النَّاسَ جَميعًا ومَن أحياها فكَأنَّما أحيَا النَّاسَ جَميعاً ولقد جاءَتهـُم رُسُلُنا بِالبَيِّنَـٰتِ ثمَّ إنَّ كَثيراً مِنهُم بَعـدَ ذٰلِك في الأرضِ لَمُسرِفونَ﴾.

لاتعنينا بشـيء -ونحـن ندرس هذا النموذج- ماهيـة القربان الذي تقـرب به كلُ مـن قابيل وهـابيل.. نسكتُ عنـه كما سكت القرآن، ونوجه عنايتنا الى المرحلة التي تلـت عملية التقرب بـالقرابيـن وفق السياق القرآني الآتي:

-لاقتلنك!

-انمـا يتقبل الله مـن المتقين! لئـن بسطت الـي يدك لتقتلني مـا أنا ببـاسطٍ

يـديَ اليـك لأقتلــك إنــيّ اخــافُ الله ربَّ العالمين انـيّ اريدُ ان تبوء باثمـي واثمك فتكـون من أصحــاب النــار وذلك جــزاء الظالمين.

هذا هـو كل الذي جـرى بين قــابيل وهــابيل مـن حــوار حسبمــا ينقله الينــا القــرآن الكريـم. ومن خــلاله يمكننــا ان نتبين طبيعة ابني آدم اللـذين يقفان عند مفترق طريـق كما يتضح من استقــرائنا للعلامات الفارقة لكليهما.

العلامات الفارقة لكل عينة:

العينة الاولى: «قابيل»

السبب الـوحيد الـذي نتعرف عليـه -حسب النـص القرآنــي- لاقدام قــابيل على قتـل اخيه هــابيل هـو قبول قـربان الثاني في حين لم يقبل قربان الأول لعلةٍ مجهولـة لم تكشـف الآية النقــاب عنها، اللّهــم الاّ عبــارة: «انمــا يتقبـل الله مــن المتقين» الـدالة على تمتـع هابيـل بهذه الملكة دون قابيل. ومع ان هابيل لا دخل له في مسألة القبول الراجعة أساساً الى الله سبحانـه فهو الـذي يقرر مـا اذا كان العملُ -اي عمل- مقبولا أم لا وفق معيار خاص تأتي التقوى فــي مقدمة مفرداته.

اقول مع ذلك فان قابيل لا يتفهم المسألة ضمن هــذا الاعتبار. ولايمكن فهـم قراره بقتل اخيــه الاّ على انــه«الحسد» فقـط لا غير، والاّ فما ذنب اخيه ان يتقبل الله عمله أو قــربــانه، إنّ فيــه -اي قــرار القتـل- ضميمــة اعتراض صــريـح على الـذات المقـدسة التـي توهـم قابيـل انحيازهــا لساحــة أخيه، تعــالى الله عــن ذلك علـّواً كبيرا. ومن هنا فان قــابيل يريد ان يقتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض، انما هو ثائر منتقم لنفسه التي هيجها الحسد الذي يُعمي ويُصم فـلا تعود تبصرُ غير طريق الانتقام. يقول العلامة الطباطبائي في ميزانه: «القصة تدل على ان من طباع هــذا النــوع الانسانــي ان يحملـه اتبــاع الهوى والحســد الذي هو الحنـق للناس بما ليس في اختيــارهم.. ان يحمله أوهنُ شــيء على منــازعة الـربــوبية، وابطــال غرض الخلقة بقتل احدهم أخاه من نوعه، وحتى شقيقـه لابيه وأمــه»(٨) هذا الــى جانب اشاحة قابيـل وجهه عن اخيه وهو يعظه وينهاه عن ارتكاب جريمته النكراء، فلقـد ملك قـرار القتل منــه زمام نفســه، واستحوذ عليـه الشيطان بما لم يـدع له مجالاً للمراجعة او التراجع.

العينة الثانية: «هابيل»

تتكشف ملامح هابيل من خلال: «تقواه» و«علمه». «أما كونه من المتقين فلقوله: «انّما يتقبل الله من المتقين» واما كونه من العلماء بالله فلقوله: «اني اخاف الله ربَّ العالمين» وقد قال تعالى: ﴿إنَّما يخشى اللهَ مِن عِبادهِ العُلَمَـٰؤُا﴾[9]

ويخطىء من يتصور أن هابيل كان ضعيفاً ازاء قابيل -حتى في المنظار المادي- فكل ما في الأمر ان هذا توسلّ بالبطش وسفك الدماء اللذين لا يدلان بحال على القوة، فيما حكمّ ذاك العقل لينظر الى أبعد من حدود اللحظة الآنية الانفعالية الفاقدة لكل أشكال الضبط والتوازن: «انه موقف «اللاعنف» أو«ارادة السلام» الذي يعبر عن نفسه بهذه البساطة الموحية.. فهو لا يواجه موقفه التهديدي بموقف تهديدي مضاد، لانه لا يؤمن بالمبدأ الذي يدفع الانسان الى قتل اخيه الانسان قريبا كان أو بعيدا، لمجرد نزوة عارضة او مزاج انفعالي، بل يؤمن بالمبدأ الذي يعطي للمواقف الحادة فرصة التراجع والمرونة بفضل هدوء الفكر ورحابة الصدر ليسيطر على السلبيات التي تفجر الموقف وتخلق المشكلة... ثم يحاول ان يربط ذلك كله بالايمان بالله الذي يريد للانسان السلام في الحياة، فيعبر عنه بأنه يخاف الله ربّ العالمين الذي يطلع على كل اقواله وأفعاله فيحاسبه على كل شيء».[10]

واذا اخذنا برواية الامام الباقر (عليه السّلام) التي يوردها العياشي في تفسيره من ان قابيل بغى على هابيل«ولم يزل يرصده ويتبع خلوته حتى ظفر به منتحيا من آدم فوثب عليه وقتله»[11] نستشف ان قابيل قتل أخاه غيلة وقتل الغيلة -كما هو معروف- أجبن القتل.

العينتان وجهاً لوجه:

-اذا كان قابيل يمثل الحسد والبغي والكفر- فان هابيل هو أنموذجُ الايمان والترفع والتسامي فـ«القصة تقدم نموذجاً لطبيعة الشر والعدوان الصارخ الذي لا مبرر له، ونموذجاً لطبيعة الخير والسماحة والطيبة والوداعة».[12]

-قابيل قاتل للنفس المحرّمة والمحترمة بغير نفس او فساد في الأرض، وهابيل يرى في ذلك إثماً ومدخلاً للنار وظلماً، فلم يردّ الصاع لا بصاعين ولا بمثله لانه ببساطة «يخاف

الله رب العالمين».

-المتهم هنا قابيل لانه اقدم على حادث قتل متعمد مع سبق الاصرار والترصد، والبريء هابيل الذي «لاجريرة له توجب الحفيظة عليه وتبيّت قتله،فالامر لم يكن له يد فيه، وانما تولته قوة غيبية، فما كان هناك مبرر لحنق الاخ على اخيه».(١٣)

-قابيل لم يُقدّم المبررات المقبولة والمقنعة على جريمته، اما هابيل فقد نهاه عن المنكر بما أوتي من قدرة على الوعظ والهداية، وما استثاره قط بما يكرس حالة الانتقام لديه، بل على العكس من ذلك حاول جاهداً ان يثنيه عن قراره فلم يفلح.

-واذا كان القرآن الكريم قد حدّد الموقف من قابيل بأنه«خاسر» «فأصبح من الخاسرين» وأنه«نادم» «فاصبح من النادمين» فانه يمكن القول باطمئنان ان هابيل قد ربح في هذا التحدي وكسب الموقف لصالحه وان كان هو الضحية. وحسبنا وحسبه أن الاية التي ختمت القصة ابانت ان قتله يساوي او يعادل قتل الناس جميعا: **﴿مِن أجْلِ ذٰلِك كَتَبنا عَلَىٰ بَني إسراءيلَ أنَّه مَن قَتَلَ نَفسًا بِغَيرِ نَفسٍ أو فَسادٍ في الأرضِ فكَأنَّما قَتَلَ النَّاسَ جَميعًا ومَن أحياها فكَأنَّما أحيَا النَّاسَ جَميعًا﴾**.

النموذج الثالث: «ذو الجنتين وصاحبه»:

على مدى اثنتي عشرة آية من سورة الكهف(٣٢-٤٤) يحدثنا القرآن الكريم عن هذا النموذج الذي تكثر في الحياة نظائره، حيث يقول الله سبحانه:

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَثَلاً رَجُلَينِ جَعَلنا لأحَدِهِما جَنَّتَينِ مِن اَعنٰبٍ وحَفَفنٰهُما بِنَخلٍ وجَعَلنا بَينَهُما زَرعاً كِلتَا الجَنَّتَينِ ءَاتَت أُكُلَها ولَم تَظلِمْ مِنه شَيئاً وفَجَّرنا خِلٰلَهُما نَهَراً*وَكان له ثَمَرٌ فقال لِصٰحِبِه وهوَ يُحاوِرُه أنَا أكثَرُ مِنكَ مالاً وأعَزُّ نَفَراً*ودَخَلَ جَنَّتَه وهو ظٰلِمٌ لِنَفسِه قال ما أظُنُّ أن تَبيدَ هٰذِه أبَداً*وما أظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً ولَئِن رُدِدتُ الَىٰ رَبِّي لَأجِدَنَّ خَيراً مِنها مُنقَلَباً*قالَ له صٰحِبُه وهوَ يُحاوِرُه أكَفَرتَ بالَّذي خَلَقَك مِن تُرابٍ ثُمَّ مِن نُطفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰك رَجُلاً*لٰكِنَّاْ هوَ اللهُ ربِّي ولا أُشرِكُ بِرَبِّي أحَداً*ولَولا إذ دَخَلتَ جَنَّتَك قُلتَ ما شاءَ اللهُ لاقُوَّةَ إلَّا باللهِ إن

تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مالاً ووَلَداً*فَعَسَىٰ رَبِّي أن يُؤتِيَنِ خَيراً مِن جَنَّتِك ويُرسِلَ عليها حُسبَـاناً مِن السَّماءِ فَتُصبِحَ صَعيداً زَلَقاً*أو يُصبِحَ ماؤها غَوراً فلَن تَستَطيعَ لَه طَلَباً*وأُحيطَ بِثَمَرِه فَأصبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيهِ عَلَىٰ ما أنفَقَ فيها وهِيَ خاويَةٌ عَلَىٰ عُروشِها ويَقولُ يَـٰلَيتَني لم أُشرِكْ بِرَبِّي أحَداً*ولم تكُن له فِئَةٌ يَنصُرونَه من دونِ اللهِ وما كان مُنتَصِراً*هُنالِك الوَلايَةُ للهِ الحقِّ هو خَيرٌ ثَواباً وخيرٌ عُقباً﴾.

العلامات الفارقة لكل عينة:

العينة الاولى: صاحب الجنتين.

ثريٌّ على جانب عظيم من الثراء، ملكيته: جنتان من اعناب، بينهما زرع، ويحيط بهما النخلُ من جميع الجهات، وخلال الجنتين نهر دفاق يجري باضطراد، فلم يبق امام الجنتين الا ان ينموا كل النماء ويعطيا وافر العطاء.. انها صورة الدنيا التي تزينت بابهى زينتها فخطفت بصر صاحبها وهو يتأملها تغدق عليه وتفيض.

هاتان الجنتان الغارقتان في النعيم ماذا فعلتا بصاحبهما: ألهاه التكاثر فراح يتباهى متبخترا: «أنَا اكثر منك مالاً، واعز نفرا» وغلبت عليه شهوته، واستولى عليه سلطانه فتبجح! «ما اظن ان تبيد هذه أبدا» وتمادى في غيه وطغيانه حتى انكر قيام الساعة: «وما اظن الساعة قائمة» ألم يقل سبحانه: **﴿كَلَّاۤ إِنَّ الإنسَـٰنَ لَيَطغَىٰ*أن رَءَاهُ استَغنَىٰ﴾**(١٤) ويبلغ به العجبُ مبلغه فيهتف مزهوا: «ولئن رددتُ الى ربي لاجدن خيراً منها منقلبا»

هذا هو صاحب الجنتين: اعمته النُعمى فأنسته ذكر الله.. مغرور.. متكبر.. ظالم.. يكذّب بيوم الدين.. تغرّه الاماني.. مشرك.. مُثلُه وقيمه: الثروة والجاه والولد.

العينة الثانية: المؤمن المُعدَم.

هذا المؤمن الذي تعرضه الآيات الآنفة الذكر فى قبال صاحب الجنتين، معدم لا يملك ما يملكه صاحبه بل ولا بعضه.. كل ما يملكه هو«ايمانه» فحسب، فأيّ الاثنين اعظم ملكا؟!

احتجاجه الوحيد والكبير على صاحبه هو قوله: «ان تَرَنِ أنا اقل منك مالاً وولدا فعسى ربي ان يؤتينِ خيراً من جنتك»! إيمان بالغيب حيال اغراق تام في متاع الحياة الدنيا... وثقة مطلقة بالله

مقلّب الاحوال، بازاء نسيان كامل لمسبب الاسباب وواهب الجنتين.

العينتان وجها لوجه:

-نظرة صاحب الجنتين استعلائية فلقد «بدأ الحوار مع صاحبه من موقع الاحساس بالقوة والفوقية والامتياز بسبب مايملك من كثرة المال والاتباع، فكان خطابه -معه- ينطلق من محاولته لاخضاعه نفسيّا بمواجهته بواقع الفارق الكبير بينهما، وتميّزه عنه»(١٥) اما موقف المؤمن المعدم فموقف «الانسان الرسالي الذى يستنكر على هذا الغني المزهوّ بغناه، كفره باليوم الآخر ونسيانه الله»(١٦) ويخاطبه بعزة الايمان لا ذلة الفقر.

-ذو الجنتين ينكر المعاد ولا يؤمن بيوم الحساب بينما صاحبه يؤمن ان الساعة آتية لاريب فيها «فعسى ربى ان يؤتينِ خيراً من جنتك».

-ذو الجنتين يظنّ ان ملكه دائمُ لايبلى«ما أظن ان تبيد هذه أبدا» فيما يرى صاحبه ان كل نعيم لا محالة زائل«...ويرسل عليها حسبانا من السماء فتصبح صعيداً زلقا أو يصبح ماؤها غورا فلن تستطيع له طلبا».

-القيمة الكبرى عند ذي الجنتين الثراء والرخاء والرهط «اما صاحبه المؤمن الفقير... فهو لايعتبر الثراء قيمة كبيرة ترتفع بصاحبها في حساب القيم، ولايرى فيه ضمانة قوية، للمستقبل، تبعث على الاطمئنان به والاستسلام له... بل الثقة بالله، والقوةبه، فهو مصدر القوة في الوجود ومعطياته، وهو أساس الثقة بالمستقبل، كما كان اساس الثقة بالماضي».(١٧)

-«صاحب الجنتين نموذج للرجل الذي تذهله الثروة، وتبطره النعمة، فينسى القوة الكبرى التي تسيطر على اقدار الناس والحياة، ويحسب هذه النعمة خالدة لاتفنى، فلن تخذله القوة ولا الجاه، وصاحبه نموذج للرجل المؤمن، المعتز بايمانه، الذاكر لربه، يرى النعمة دليلاً على المنعم، موجبة لحمده وذكره، لابجحوده وكفره» (١٨)

النموذج الرابع: الابكم والعادل.

﴿وضَرَب اللهُ مَثَلاً رَجُلَينِ أحَدُهُما أَبكَمُ لايَقدِرُ عَلَىٰ شَيءٍ وهو كَلٌّ عَلَىٰ مَولَيهُ أينَما يُوَجِّههُ لايَأتِ بخَيرٍ هل

يَستَوي هـو ومَن يـامُرُ بـالعَدلِ وهـو عَلَىٰ صِراطٍ مُستَقيمٍ». [١٩]

هما رجلان:

الأول: ابكم.

-لايقدر على شيء.

-كَلٌّ على مولاه.

-لايأتِ بخير.

الثاني: على عكسه تماماً:

-يأمر بالعدل.

-على صراط مستقيم.

-وبالتالي، فالخير منه مأمول.

اذن، فـالعلامـات الفارقـة لكل مـن الـرجليـن في هـذا النمـوذج مشـخصـة مفـروزة، ولم يبـق الا ان نقـابل بينهمـا لنحصل على الاجابة بالنفي على السؤال المطـروح في الآيـة عـن استواء الابكـم بالعادل.

-«الآيـة مقـــايســة بيـــن رجليـن مفـروضين متقـابليـن فـي اوصافهمـا المذكورة، أبكم: اي محـروم من ان يفهم الكلام ويفهـم غيره بالكـلام لكونـه ابكم لايسمـع ولا ينطـق، فهو فـاقـد لجميـع الفعـاليـات والمـزايـا التــي يكتسبهـا الانسان... وآمر بالعدل: اي ملتزم بالحد الـوسـط فــي الاعمــال فـلا افــراط ولاتفريط». [٢٠]

-«الغـرض مـن المثـل المضـروب -في الآية- اقامة الحجة على التوحيد مع اشـارة الى النبوة والتشريع». [٢١]

-دارت آراء المفسرين للاية حول ما اذا كان المثل المضروب متعلقاً بالاصنام البكمـاء التي كـانـت قريـش تـدين لهـا وتعبدهـا من غيـر الله من جـانب وبـالله العادل الهادي الى الصراط المستقيم من جانـب آخر، ام برجليـن: مؤمن وكـافر.. ويبدو ان الـرأي الذي عليه الاكثريـة هو الاول لا الثانـي، الأمر الذي يضفـي على النموذج المنتقى -وهـو في حالة تقـابل أيضـاً- اهميـة اكبـر مما لـو كـان بيـن رجليـن، فـالتعبيـر القـرآنـي وان كـان استخدم كلمة «الرجلين» الا أنه اراد -كما هو المفهـوم من الآيـة- تقريـب المعنى بسوقه مثـلاً حيّاً من الوسـط الاجتماعي لـرجلين احـدهما لايـؤمـل منه الخيـر.. عاجز... عالـة... لايسمـع ولاينطق، وآخر يقـف على الطـرف النقيض: يـؤمل منـه الخيـر... قـادر... بيده الأمـر... عـادل... وعلى الصراط المستقيم.

-وعلـى ضوء ذلـك، فهذا النمـوذج للـرجلين المفـروضيـن نموذج لخطيـن

متعاكسين، واتجاهين مختلفين، ومحورين متباينين، ويمكننا القول -تأسيساً على ماتقدم- ان كل معبود غير الله سبحانه: «ابكم، لايقدر على شيء، وهو كلٌّ على مولاه، اينما يوجهه لايأتِ بخير».

-واذن، فالتسوية بين الاصنام الحجرية او البشرية وبين الله تعالى غير ممكنة البتة بل فيها ظلمٌ وتجنّ كبيران:

﴿أفمَن يَمشي مُكِبّاً علىٰ وَجهِهِ أهدَىٰ أمَّن يَمشي سَوِيّاً علىٰ صِراطٍ مُستَقيمٍ﴾.[٢٢]

﴿وقال اللهُ لاتَتَّخِذوا إلٰهَينِ اثنَينِ إنَّما هو إلٰهٌ واحِدٌ فَإيّٰيَ فَارهَبونِ﴾.[٢٣]

﴿للَّذينَ لا يؤمِنونَ بالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوءِ وللهِ المَثَلُ الأعلَىٰ﴾.[٢٤]

النموذج الخامس: «الطالحتان والصالحتان»

﴿ضَربَ اللهُ مَثَلاً للَّذينَ كَفروا امرَأتَ نوحٍ وَامرَأتَ لوطٍ كانَتا تَحتَ عَبدَينِ مِن عِبادِنا صٰلِحَينِ فَخانَتاهُما فَلم يُغنيا عَنهما مِنَ اللهِ شَيئاً وَقيلَ ادخُلاَ النّارَ مع الدّاخِلينَ﴾.[٢٥]

﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً للَّذينَ ءَامَنوا امرَأتَ فِرعَونَ إذ قالَت رَبِّ ابنِ لي عِندَك بَيتاً في الجَنَّةِ وَنَجِّني مِن فِرعَونَ وعَمَلِه وَنَجِّني مِنَ القَومِ الظّٰلِمينَ[٢٦] **ومَريَمَ ابنَتَ عِمرانَ الَّتي أحصَنَت فَرجَها فنَفَخنا فيه مِن رُوحِنا وَصَدَّقَت بِكَلِمٰتِ رَبِّها وكُتُبِه وكانَت مِنَ القٰنِتينَ»**.[٢٧]

في هذا النموذج اربع عيّنات نسوية: اثنتان كافرتان واثنتان مؤمنتان، وحسب منهج التقابل الذي تعاملنا به مع النماذج الاربعة السالفة الذكر، فلا جديد هنا الا الزيادة فى عدد العينات التي تقف الاثنتان منهما في صف والاثنتان الاخريان في الصف المقابل.

العلامات الفارقة للعينتين الطالحتين:

زوجتان من ازواج الأنبياء: امرأة نوح وامرأة لوط. وحسبنا في التعريف بهما ما كان القرآن عرفّهما به:

امرأة نوح: **﴿حَتّىٰ إذا جاءَ أمرُنا وَفارَ التَّنّورُ قُلنا احمِل فيها مِن كُلٍّ زَوجَينِ اثنَينِ وأهلَكَ إلاّ مَن سَبَقَ عليه القَولُ﴾**[٢٨] فهي المستثناة من حمولة

سفينة النجاة لانها بصريح التعبير القرآني «خائنة».

امرأة لوط: ﴿فَأَسرِ بِأَهلِكَ بِقِطعٍ مِنَ الَّيلِ وَلايَلتَفِت مِنكم أَحَدٌ إلاّ امرَأَتَكَ إنَّه مُصيبُها ما أصابَهم﴾[٢٩] فهي المستثناة ايضاً من رحلة النجاة، لانها بصريح القرآن ايضاً «خائنة».

وهكذا فان ما يجمع بين المرأتين هو أنهما زوجان لنبيين من انبياء الله: «كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين» وأنهما خائنتان، فأي الخيانة ارتكبتاها؟ يقول محمد الصادقي في فرقانه: «ان الخيانة خلاف الأمانة... انها خيانة تدخل صاحبها النار، فليست اذاً نشوزاً في الامور البيتية العادية فحسب، وانما التي تحقق جزاء النار من الكفر ومخلفاته» ويضيف: مهانتهما اكثر من سواهما لانهما هتكتا ساحة النبوة، ولوثتا جوها بإطالة السنة الناس على العبدين الصالحين. ﴿يَـٰنِساءَ النَّبِيِّ مَن يَأتِ مِنكُنَّ بِفَـٰحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَـٰعَفْ لَهَا العَذابُ ضِعفَينِ﴾[٣٠] وفي الأجمال فانهما استحقتا عقوبة النار، شأنهما شأن بقية الكافرين، «وقيل ادخلا النار مع الداخلين» لأن عملهما من سنخ عمل اصحاب النار فهؤلاء خونة وتانك خائنتان، وبالتالي فليس لخائنٍ شفيع.

العلامات الفارقة للعينتين الصالحتين:

هما «آسية بنت مزاحم» زوجة فرعون، و«مريم ابنةعمران» أم السيد المسيح (عليه السّلام)، اثنتان من أربع نساء لهن السيادة على نساء أهل الجنة وهن السابقات اليها بما عرف عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من الثناء عليهن والاشارة الى منازلهن.

ففي مجمع البيان عن ابي موسى عن النبي (صلى الله عليه وآله) قال: «كَمُلَ من الرجالِ كثير، ولم يكمل من النساء الا أربع: آسية بنت مزاحم امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد».[٣١]

أما «آسية»: «فقد اختارت جوار ربها والقرب منه على ان تكون انيسة فرعون وعشيقته، وهي ملكةُ مصر. وآثرت بيتا يبنيه لها ربها على بيت فرعون الذي فيه مما تشتهيه الانفس وتتمناه القلوب ما تقف دونه الآمال. فقد كانت عزفت نفسها عما هي فيه من زينة الحياة الدنيا، وهي

لها خاضعة، وتعلقت بما عند ربها من الكرامة والزلفى، فآمنت بالغيب، واستقامت على ايمانها جتى قضت»[٣٢] وقد تبرأت من فرعون وعمله، وفزعت الى الله سبحانه لينجيها من المجتَمَعّين الفاسدين: القصر الفرعوني والراكنين اليه.

وأما «مريم» فهي مثال التجرد والانقطاع الى الله عزوجل منذ نعومة اظفارها، فلقد اوقفتها أمّها على خدمة الله، واطلقت عليها اسم مريم: «وانيّ سميتها مريم»، ومريم بلغتها تعني«العابدة»[٣٣] وهي التي صُنعت على عين الله **﴿وأنبَتَها نَباتاً حَسَناً وكَفَّلَها زَكَرِيَّا﴾**[٣٤] «واستعمال الانبات اشارة الى تكامل مريم اخلاقياً وروحياً»[٣٥] وهي التي اصطفاها الله وطهرها: **﴿وإذ قالتِ المَلَـٰئِكَةُ يَـٰمَريَمُ إنَّ اللهَ اصطَفَيـٰكِ وطَهـَّرَكِ واصطَفَيـٰكِ علىٰ نِساءِ العَـٰلَمينَ﴾**[٣٦] وهي الصدّيقة التي صدقت بكلمات ربها وكتبه من التوراة والانجيل **﴿مَا المَسيحُ ابنُ مَريَمَ إلاّ رَسولٌ قد خَلَت مِن قَبلِه الرُّسُلُ وأمُّه صِدِّيقَةٌ﴾**[٣٧] وهي كذلك القانتة المطيعة لله الخاضعة له **﴿يَـٰمَريَمُ اقنُتي لِرَبـِّكِ واسجُدي وَاركَعي مَع الرَّاكِعينَ﴾**[٣٨]

العينات الأربع وجهاً لوجه:

-إمرأتا نوح ولوط مثال للكافرات في بيوت المؤمنين. وآسية مثال للمؤمنة في البيت الكافر، اما مريم فهي التي تطهرت وأحصنت فرجها فنفخ فيه الله من روحه.

-امرأتا نوح ولوط خائنتان«ولن يعفيهن من التبعة انهما زوجات نبي أو وصي من المسلمين»[٣٩] وآسية مؤمنة ولا جريرة عليها من فرعون وعمله وان كانت في كنفه وزوجاً له. واما مريم فمؤمنة لم يقدح في سمعتها وصفاء ايمانها ما كانت اليهود تكيله من البهتان عليها: **﴿وقَولِهِم علىٰ مَريَمَ بُهتَـٰناً عَظيماً﴾**.[٤٠]

-«ان شقاء الكفار وهلاكهم انما كان بخيانتهم لله ورسوله وكفرهم، ولم ينفعهم اتصالُ بسبب الانبياء المكرمين. وان سعادة المؤمنين وفلاحهم انما كان باخلاصهم الايمان بالله ورسوله، والقنوت، وحسن الطاعة، ولم يضرهم اتصال باعداء الله بسبب، فانما ملاك الكرامة عند الله التقوى».[٤١]

القواسم المشتركة بين النماذج الخمسة:

الآن وقد انتهينا من هذا الاستعراض السريع للنماذج الخمسة المتقابلة لا نروم تركها هكذا من غير ان نحدد قواسمها المشتركة لنرى اين تلتقي واين تفترق.

-فنحنُ امام نموذج يؤمن بالغيب وآخر كافر به، فتحت عنوان الفئة الاولى يندرج «اسماعيل، هابيل، المؤمن المعدمّ، العادل وآسية ومريم» وتحت لواء الفئة الثانية ينضوي«كنعان، قابيل، ذو الجنتين، الابكم، وامرأتا نوح ولوط».

-ونحن امام النموذج الانسانيّ السامي والشاخص كقدوة حسنة، وتمثله الفئة الاولى، ومن هذه الفئة ينتظر ان تعمر الانسانية بالحق والخير والجمال وتزدهر بالأمن والسلام، وترتقي في مدارج العلم والاخلاق، فيما يقف قبال هؤلاء النموذج الانسانيّ الهابط والمنبوذ الذي على يديه تفسد البلاد والعباد، ويسود الارض الدمار والهلاك، وتشتعل الحروب والفتن، وتردي الاتباع والانصار في مهاوي الردى ومتاهات الذل والضلال.

-الانتماء الحقيقي والتبعية الوطيدة هي للعقيدة لا لسواها من قرابةٍ أو أهل أو نسبٍ أو أيّ سبب: «انه ليس من اهلك، انه عمل غير صالح» «قال ومن ذريتي، قال: لاينال عهدي الظالمين» «فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً».

-وبناء على خصال النماذج الأولى فهم اصحاب النعيم والجنةُ مأوى لهم، اما النماذج الاخرى، ولخصالها الخبيثة الدنيئة، فهم اصحاب الجحيم والنارُ مثوىً لهم وبذلك حقت كلمة ربك صدقا وعدلا.

الهوامش

---

(١) من وحي القرآن-الحلقة(١٩)- السيد محمد حسين فضل الله.

(٢) هود:٧٥.

(٣) الميزان في تفسير القرآن:٢٢- العلامة الطباطبائي.

(٤) في ظلال القرآن:٧- سيد قطب.

(٥) في ظلال القرآن:٤- سيد قطب.

(٦) في ظلال القرآن:٤- سيد قطب.

(٧) البقرة:١٢٤.

(٨) الميزان في تفسير القرآن:٦- العلامة

الطباطبائي.

(٩) الميزان في تفسير القرآن:٦- العلامة الطباطبائي.

(١٠) من وحي القرآن-الحلقة(٨)- السيد محمد حسين فضل الله.

(١١) الميزان٦:٣١٨.

(١٢) في ظلال القرآن:٢- سيد قطب.

(١٣) نفس المصدر ونفس الجزء.

(١٤) العلق:٦-٧.

(١٥) الحوار في القرآن. محمد حسين فضل الله.

(١٦) نفس المصدر.

(١٧) نفس المصدر.

(١٨) في ظلال القرآن:٥- سيد قطب.

(١٩) النحل:٧٦.

(٢٠) الميزان:١٢٩٠- العلامة الطباطبائي.

(٢١) نفس المصدر..

(٢٢) الملك:٢٢.

(٢٣) النحل:٥١.

(٢٤) النحل:٥٩.

(٢٥) التحريم:١٠.

(٢٦) التحريم:١١.

(٢٧) التحريم:١٢.

(٢٨) هود:٤٠.

(٢٩) هود:٨١.

(٣٠) الفرقان فى تفسير القرآن:٢٧-٢٨ محمد الصادقي بالقرآن والسُنّة.

(٣١) مجمع البيان في تفسير القرآن:١٠/ العلامة الطبرسي.

(٣٢) الميزان في تفسير القرآن:٢٨- العلامة الطباطبائي.

(٣٣) الامثل في تفسير كتاب الله المنزل:٢- ناصر مكارم الشيرازي وجماعة من المؤلفين.

(٣٤) آل عمران:٣٧.

(٣٥) الامثل في تفسير كتاب الله المنزل:٢- ناصر الشيرازي وجماعته.

(٣٦) آل عمران:٤٢.

(٣٧) المائدة:٧٥.

(٣٨) آل عمران:٤٣.

(٣٩) في ظلال القرآن:٨- سيد قطب.

(٤٠) النساء/ ١٥٦.

(٤١) الميزان في تفسير القرآن:٢٨- العلامة الطباطبائي.

* * *

كيل التهم للنبي الأكرم

الشيخ جعفر سبحاني



حياة الرسول وشخصيته في القرآن

كان إسلوب تحطيم الشخصيات عن طريق كيل التهم إليهم أقدم حربة بيد الجهّال يطعنون بها على المصلحين وقد إستعملها مشركو عصر الرسالة في بدء الدعوة، ولم تكن الفرص تسنح لهم بقتله وإغتياله فحاولوا إغتيال شخصيته ليسقطوه عن أعين الناس، فإنّ نجاح المصلح في نشر دعوته يكمن في إتسامه بالقداسة والطهارة والعقلية الرزينة. فلو إفتقد المصلح تلك السمات عن طريق الإتهام بما يضادها ذهب سعيه أدراج الرياح وأصبحت جهوده سدى، فلأجل ذلك إختارت قريش القيام بشن حرب نفسية ضروس لا هوادة فيها للحط من قيمته وكرامته والحيلولة دون نفوذ كلمته.

ولكنهم مهما بذلوا من جهود لإنجاح مؤامراتهم لم تتجاوز تهمهم الكهانة والسحر والجنون وأشباهها لأنَّ النبي قد كان من الطهارة النفسية والأمانة العالية وسائر الصفات الكريمه على حدّ حال دون إلصاق تهم أُخرى به ككونه خائناً سارقاً قاتلا غير عفيف، وهذا أحد الدلائل البارزة المشرقة على أنّه كان فوق التهم المشينة المزرية، وكانت حياته طيلة أربعين سنة مقرونة بالصلاح والفلاح والأمانة ولو كانت هناك أرضية صالحة لتوصيف النبي بها، لما أمسكوا

عنها.

نعم قام العدو باتهامه بأمور يشكل إثباتها كما يشكل نفيها عن المتهم، وهذه هي الطريقة المألوفة عند بني الشياطين لمس كرامة المصلحين حيث يشنّون عليهم بمثل هذه التهم لإسقاطهم عن أعين الناس.

يقول سبحانه: **﴿كَذٰلِك ماأتَى الَّذينَ مِن قَبلِهِم مِن رَسولٍ إلاَّ قالوا سَٰحِرٌ أو مَجنونٌ﴾**.(الذاريات:٥٢)

هكذا كانت سيرة الأعداء في طرد المصلحين عن الساحة، ثم إنَّ التهم التي حكاها القرآن عن لسان أعداء النبي تتلخص في العناوين التالية:

١– الكهانة:

وهي في اللغة عبارة عن إتصال الإنسان بالجن ليتلقى منهم أنباء الماضين وأخبار اللاحقين ومس خلالها يتمكّن من التنبؤ بالمستقبل، يقول سبحانه مشيراً الى تلك التهمة وردّها: **﴿ولا بِقَولِ كاهِنٍ قَليلاً ما تَذَكَّرونَ﴾**.(الحاقة:٤٢)

٢– السحر:

وهو قوة نفسانية للساحر يقدر معها على إنجاز أُمور خارقة للعادة مموّهة، ومن تلك الأُمور التفريق بين المرء وزوجته والوالد وولده بل بين أفراد العائلة كافة.

قال سبحانه: **﴿وعَجِبوا أن جاءَهُم مُنذِرٌ مِنهُم وقالَ الكَٰفِرونَ هَٰذا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾**(ص:٤).

٣– المسحورية:

والمراد منه تأثّره بسحر الآخرين، وأنّ هناك ساحراً أو سحرة سَحروا النبي وأثّروا فيه. يقول سبحانه حاكياً عن المشركين: **﴿إن تَتَّبِعونَ إلاَّ رَجُلاً مَسحوراً﴾**.(الفرقان:٨)

ثم يردّه بقوله سبحانه: **﴿أُنظُر كَيفَ ضَرَبوا لَكَ الأمثَٰلَ فَضَلُّوا فَلا يَستَطيعونَ سَبيلاً﴾**(الفرقان:٩) والمراد من قوله «ضَرَبُوا لَكَ الأمثَالَ» أي وصفوك بالمسحورية، وقد أتّهم بنفس تلك التهمة النبي صالح. قال سبحانه حاكياً عن أعدائه: **﴿قالوا إنَّما أنتَ مِنَ**

﴿المُسَحَّرِينَ﴾(الشعراء:١٥٣) ومما يجدر ذكره أن إتهام النبي بكونه مسحوراً ليست تهمة مستقلة تغاير الجنون جوهراً، بل هي نفس هذه التهمة ولكنها صيغت بلفظ أكثر أدباً هذه شيمة الدهاة حيث يمزجون السم بالعسل.

٤- الجنون:

ومفهومه غني عن البيان وقد مضىّ أنّها تهمة شائعة تلصق بالمصلحين من جانب خصومهم من غير فرق بين النبي وغيره، وبين نبينا وسائر الأنبياء، كما عرفت[1]. قال سبحانه نقلاً عن المشركين: **﴿وقالوا يَـٰأيُّهَا الَّذي نُزِّلَ عَلَيهِ الذِّكرُ إنَّكَ لَمَجنونٌ﴾**(الحجر:٦)، قال تعالى: **﴿و ما صاحِبُكُم بِمَجنونٍ﴾**(التكوير:٢٢) وقال عزّ من قائل: **﴿فَذَكِّرْ فَما أنتَ بِنِعمَةِ رَبِّكَ بِكاهِنٍ ولا مَجنونٍ﴾**(الطور:٢٩) والمبرر لهم بوصفه بالجنون ومؤاخذتهم له، وقوفه لوحده في وجه الرأي العام المتمثل في الشرك. والسذّج من الناس يصفون من يتبنى الفكر الذي لا يوافقه عليه الرأي العام وهو يريد تطبيقه في المجتمع، بأنّه مجنون لا يعرف قدر نفسه ومنزلته وسوف يهدر دمه لا محالة.

ما أسخف هذه التهم إذ كيف يتهمون من هو أرجحهم عقلاً وأبينهم قولاً منذ ترعرع الى أن بلغ أشده بالجنون والكهانة مضافاً الى ما في هذا من التناقض والإضطراب، فإنّ الكهنة كانوا من الطبقة العليا بين الناس يرجع إليهم القوم في المشاكل والمعضلات وأين هو من الجنون؟ فكيف جمعوا بين كونه كاهناً ومجنوناً؟ ولقد لمسنا ذلك في حياتنا القصيرة في مجتمعنا ورأينا كيف رمى رجال الإصلاح بنظائر هذه التهم وما ذلك إلاّ لأنّهم قاموا في وجه المستعمرين والناهبين لثروة أقطار العالم الإسلامي، فما كان نصيبهم جراء مقاومتهم، إلاّ إتّهامهم بالجنون والتدهور العقلي، والغربة عن الواقع والحياة.

٥- التعلم من الغير:

إنّ أعداء النبي من قريش وغيرهم

وقفوا على مرأى عظمة تعاليمه وسموها ولكن الحالة النفسية قد صدّتهم عن تصديق قوله والإذعان لرسالته الإلهية وإنتسابه الى الوحي والسماء، فقاموا بتزوير آخر وهو أنّه مُعَلَّم قد تلقّى تعاليمه من غيره. يقول سبحانه: ﴿...وقد جاءَهُم رَسولٌ مُبينٌ*ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنهُ وقالوا مُعَلَّمٌ مَجنونٌ﴾. (الدخان:١٣و١٤)

وأما من هو المعلم الذي كان قد علّم النبي وغذاه بتلك المبادىء والقيم، فلم يذكروه. ولكن إقتران هذه التهمة، بتهمة الجنون يدل على أنّ المعلّم المزعوم هو الجن فهو عن طريق صلته بهم تلقى رسالته عنهم –وبالتالي– أُصيب في عقله فصار معلّماً مجنوناً بزعمهم.

وهناك إحتمال آخر وهو أنّه تلقّى مبادئه عن بشر آخر، وقد أُشير إليه في قوله سبحانه: ﴿ولَقَد نَعلَمُ أنّهُم يَقولونَ إنّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسانُ الّذي يُلحِدونَ إلَيهِ أعجَمِيٌّ وهَـٰذا لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبينٌ﴾.(النحل:١٠٣)

قال إبن عباس: قالت قريش: إنّما يعلمه بلعام «وكان قيناً بمكة رومياً نصرانياً»، وقال الضحّاك: أرادوا به سلمان الفارسي[٢] قالوا إنه يتعلم القصص منه، وقال مجاهد وقتاده: أرادوا به عبد البني الحضرمي رومياً يقال له يعيش أو عائش صاحب كتاب، أسلم وحسن إسلامه، وقال عبد الله بن مسلم: كان غلامان في الجاهلية نصرانيان من أهل عين التمر، إسم أحدهما يسار وإسم الآخر خير، كانا صيقلين يقرءان كتاباً لهما بلسانهم وكان رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) ربّما مرّ بهما واستمع لقراءتهما، فقالوا: إنّما يتعلّم منهما ثم ألزمهم الله تعالى الحجة وأكذبهم بأن قال: لسان الذي يضيفون إليه التعليم ويميلون إليه القول، أعجمي لا يفصح ولا يتكلم بالعربية فكيف يتعلم منه من هو في أعلى طبقات البيان، وهذا القرآن بلسان عربي مبين، فاذا كانت العرب تعجز عن الإتيان بمثله وهو بلغتهم فكيف يأتي الأعجمي بمثله؟.[٣]

قال إبن هشام، قالوا: إنّما يعلمه رجل باليمامة يقال له الرحمن ولن نؤمن

به أبداً، فنزل قوله سبحانه: ﴿**كَذٰلِكَ أرسَلنٰكَ في أُمَّةٍ قَد خَلَت مِن قَبلِها أُمَمٌ لِتَتلُوَ عَلَيهِمُ الَّذي أوحَينا إلَيكَ وهُم يَكفُرونَ بِالرَّحمٰنِ قُل هُوَ رَبِّي لا إلٰهَ إلاَّ هُوَ عَلَيهِ تَوَكَّلتُ وإلَيهِ مَتابِ**﴾(الرعد:٣٠).[٤]

روى إبن هشام: إن النضر بن الحارث كان إذا جلس رسول الله مجلساً، فدعا فيه الى الله تعالى وتلا فيه القرآن، وحذر فيه قريشاً ما أصاب الأمم الخالية، خلفه في مجلسه أذا قام، فحدثهم عن رستم واسفنديار وملوك فارس ثم يقول: والله ما محمد بأحسن حديثاً منّي وما حديثه إلاّ أساطير الأولين، إكتتبها كما إكتتبتها فأنزل الله فيه: ﴿**وقالُوا أسٰطِيرُ الأوَّلينَ اكْتَتَبَها فَهيَ تُملىٰ عَلَيهِ بُكرَةً وأصيلاً*قُل أنزَلَهُ الَّذي يَعلَمُ السِّرَّ في السَّمٰوٰتِ والأرضِ إنَّهُ كانَ غَفوراً رَحيماً**﴾.(الفرقان:٥و٦)

ونزل فيه: ﴿**وَيلٌ لِكُلِّ أفَّاكٍ أثيم*يَسمَعُ ءايٰتِ اللهِ تُتلَىٰ عَلَيهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُستَكبِراً كَأن لَم يَسمَعْها فَبَشِّرهُ بِعَذابٍ أليمٍ**﴾(الجاثية:٧و٨).[٥]

٦- كذّاب:

وما وصفوه به إلا لأجل أنه كان يكافح عقيدتهم ويقارع دينهم. قال سبحانه حاكياً عنهم تلك التهمة: ﴿**وعَجِبوا أن جاءَهُم مُنذِرٌ مِنهُم وقالَ الكٰفِرونَ هٰذا سٰحِرٌ كَذّابٌ**﴾.(ص:٤)

٧- مفتر:

وإنّما وصفوه به لأنه ينسب تعاليمه الى السماء. يقول سبحانه حاكياً عنهم: ﴿**...قالوا إنَّما أنتَ مُفتَرٍ بَل أكثَرُهُم لا يَعلَمونَ**﴾(النحل:١٠١) ويقول أيضاً: ﴿**وقالَ الَّذينَ كَفَروا إن هٰذا إلاَّ إفكٌ افْتَرَيٰهُ وأعانَهُ عَلَيهِ قَومٌ ءاخَرونَ فَقَد جاءُوا ظُلماً وَزوراً**﴾(الفرقان:٤). وهذه الآية تعبر عن أنهم كانوا يتهمونه بأنّ القرآن ليس من صنعه وحده بل هناك قوم أعانوه عليه، فربّما كانوا يفسّرونه بشكل آخر وهو أن القرآن ليس شيئاً جديداً بل هي أساطير الأولين تملى عليه بكرة وأصيلاً، كما قال سبحانه: ﴿**وقالوا أسٰطيرُ الأوَّلينَ اكْتَتَبَها فَهيَ تُملىٰ عَلَيهِ بُكرَةً وأصيلاً**﴾.(الفرقان:٥)

وقد دحض الوحي هذه التهمة وكشف عن زيفها بأمرين:

الأول: لو صحّ قولكم إن هذا الكتاب من صنع محمد فنسبه الى الوحي فأتوا بعشر سور مثله مفتريات، فإنه لبشر مثلكم وأنتم بشر مثله. قال سبحانه: ﴿**أم يَقولونَ افتَرَيْهُ قُل فَأتوا بِعَشرِ سُوَرٍ مِثلِهِ مُفتَرَياتٍ وادعُوا مَنِ استَطَعتُم مِن دونِ اللهِ إن كُنتُم صَـٰدِقينَ*فَإن لَم يَستَجيبوا لَكُم فَاعْلَموا أنَّما أُنزِلَ بِعِلمِ اللهِ وأن لا إلَـٰهَ إلاَّ هُوَ فَهَل أنتُم مُسلِمونَ**﴾.(هود:١٣و١٤)

الثاني: كيف تقولون بأنه استنسخ هذه الأساطير بإملاء الغير مع أنه ما أملى كتاباً، ولا خط صحيفة فكيف تتهمونه بالإستنساخ والإستكتاب؟ قال سبحانه: ﴿**وما كُنتَ تَتلُوا مِن قَبلِهِ مِن كِتَـٰبٍ ولا تَخُطُّهُ بِيَمينِكَ إذاً لاَرْتابَ المُبطِلونَ*بَل هُوَ ءايَـٰتٌ بَيِّنَـٰتٌ في صُدورِ الَّذينَ أوتُوا العِلمَ وما يَجحَدُ بِآيَـٰتِنا إلاَّ الظَّـٰلِمونَ**﴾. (العنكبوت:٤٨و٤٩)

٨- مفتر أو مجنون:

على ترديد بينهما -ربما كان القوم يتردّدون في توصيف النبي بين كونه عاقلاً مفترياً على الله سبحانه أو مجنوناً معدم العقل والشعور، وهذه شيمة الدهاة في إستنقاص فضل الأشخاص حيث يلصقون التهم بمخالفيهم الأقوياء بلسان التردّد وعدم الجزم، لدفع نسبة شناعة التهمة عن أنفسهم كما يحكي عنهم سبحانه: ﴿**أفتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِباً أم بِهِ جِنَّةٌ**﴾.(سبأ:٨)

٩- شاعر:

إن القوم كانوا أُسود الفصاحة وفرسان البلاغة وقد أدركوا بفطرتهم سموّ القرآن وعلو مرتبته في ذلك المجال، ومن جانب كانوا في العذاء والحسد على مرتبة صدّتهم عن الإعتراف بكونه منزّلاً من السماء، حاولوا أن يفسروه بالشعر فوصفوه بالشاعر وقالوا: ﴿**أم يَقولونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيبَ المَنونِ**﴾(الطور:٣٠) وحاصل هذه التهمة إنه شاعر وأعذب الشعر أكذبه،

فلنصبر عليه ولنتربص به صروف الدهر وأحداثه فسيكون حاله حال زهير والنابغة وأضرابهم ممن انقرضوا وصاروا كأمس الدابر.

وقد ردّ سبحانه على تلك التهمة يأمر نبيه بقوله: **﴿قُل تَرَبَّصوا فَإِنّي مَعَكُم مِنَ المُتَرَبِّصينَ* أم تَأمُرُهُم أحلَٰمُهُم بِهَٰذا أم هُم قَومٌ طاغونَ* أم يَقولونَ تَقَوَّلَهُ بَل لا يُؤمِنونَ* فَليَأتوا بِحَديثٍ مِثلِهِ إن كانوا صَٰدِقينَ﴾**.(الطور:٣١-٣٤)

إن الله سبحانه أمر النبي أن يتهددهم ويتوعّدهم بأمور:

أ- **﴿قُل تَرَبَّصوا فَإِنّي مَعَكُم مِنَ المُتَرَبِّصينَ﴾**: انتظروا وتمهلوا في ريب المنون فإني متربص معكم منتظر قضاء الله فيّ وفيكم وستعلمون لمن تكون حسن العاقبة والظفر في الدنيا والآخرة.

ب- **﴿أم تَأمُرُهُم أحلَٰمُهُم بِهَٰذا﴾**؟ أي هل تأمرهم عقولهم بنشر هذه التهم، فإن هذه التهم الثلاث لا تجتمع بحسب مدّعاهم في آن واحد، فإنّ المجنون من زال تعقله وإدراكه، فكيف يقوى على إنشاء الشعر الرصين، أو كيف يكون قوله حجة في الأخبار عن المغيبات؟

وقصارى القول: إن هؤلاء المتحاملين كانوا قد فقدوا رشدهم فأخذوا يتخبَطون في تهمهم وكلامهم من دون وعي.

ج- **﴿أم هُم قَومٌ طاغونَ﴾**: بل، الحق، إن الذي حملهم على ما يقولون هو عنادهم وعتوهم عن الحق وطغيانهم.

د- **﴿أم يَقولونَ تَقَوَّلَهُ﴾**: أي إن عقولهم لم تأمرهم بهذا ولم تدعهم إليه بل حملهم الطغيان على تكذيبك ولأجل ذلك يقولون: إفتعل القرآن من تلقاء نفسه.

هـ - **﴿بَل لا يُؤمِنونَ﴾**: أي قصارى القول: إنهم لا يؤمنون ولا يصدقون بذلك عناداً وحسداً واستكباراً وإنما هذه تهم اتخذوها ذريعة الى التمويه وستروا بها عداءهم وعنادهم.

و- **﴿فَليَأتوا بِحَديثٍ مِثلِهِ إن كانوا صَٰدِقينَ﴾**: أي إن كان شاعراً فلديكم الشعراء الفصحاء، أو كاهناً فلديكم الكهان الأذكياء، وإن كان قد

تقوله فلديكم الخطباء الذين يحضرون الخطب ويجيدون إنشاء القول في كل فنون الكلام، فليأتوا بمثل هذا القرآن إن كانوا صادقين فيما يزعمون، فإن أسباب التحدي بالقول متوفرة لديكم كما هي متوفرة لديه، بل فيكم من طالت مزاولته للخطب والأشعار وكثرة الممارسة لأساليب النظم والنثر وحفظ أيام العرب ووقائعها أكثر من محمد (صلّى الله عليه وآله وسلّم).(٦)

وقال سبحانه ردّاً على هذه الفرية:

﴿وما عَلَّمناهُ الشِّعرَ وما يَنبَغي لَهُ إن هُوَ إلاَّ ذِكرٌ وقُرءَانٌ مُبينٌ﴾.(يس:٦٩)

فأين القرآن من الشعر وأين محمد من الشعراء؟

١٠- أضغاث أحلام:

والمراد منه تخاليط أحلام رأها في المنام ويحكي عنهم سبحانه بقوله:

﴿وأسَرُّوا النَّجوَى الَّذينَ ظَلَموا هَل هَـٰذا إلاَّ بَشَرٌ مِثلُكُم أفَتَأتونَ السِّحرَ وأنتُم تُبصِرونَ*قالَ رَبِّي يَعلَمُ القَولَ فِي السَّماءِ والأرضِ وهوَ السَّميعُ العَليمُ*بَل قالوا أضغَـٰثُ أحلَـٰمٍ بَلِ افتَرَىٰهُ بَل هُوَ شاعِرٌ فَليَأتِنا بِآيَةٍ كَما أُرسِلَ الأوَّلونَ﴾.(الأنبياء:٣-٥)

بيّن سبحانه في هاتين الآيتين إقتسامهم القول في النبي، فقال بعضهم أخلاط أحلام قد رأها في النوم وقال آخرون: بل إختلقه من تلقاء نفسه ونسبه الى الله، وقال قوم: بل هو شاعر وما أتى به شعر، يخيل الى السامع معاني لا حقيقة لها، مضافاً الى أنّهم استبعدوا أن يكون بشر مثلهم نبيّاً.

وهذا الإضطراب والتردّد في القول دأب المحجوج المغلوب على أمره، لا يتردّد إلاّ بين باطل وأكثر بطلاناً ويتذبذب بين فاسد وأفسد منه.

فلو بني على تحليل القرآن بواحد من هذه الوجوه، فكونه سحراً -مع كونه فاسداً- أقرب من كونه أضغاث أحلام، فأين هذا النظم البديع من تخاليط الكلام التي لا تضبط؟ وادعاء كونها مفتريات أبعد وأبعد لأنه (صلّى الله عليه وآله وسلّم) قد إشتهر بالأمانة والصدق، مضافاً الى أنّهم أعرف الناس بالفرق بين النظم

والنثر، فكيف يصفونه بالشعر؟ كما أنهم يفـرقون بيـن الغايـات التـي يصاغ لهـا الشعـر والغايـات التي ينشـدها القـرآن كيف يتهمونـه بالشعر مع أنهـم يعلمون أنه لم ينشـد شعراً وما اجتمع بـالشعراء ولا حام حوله مدى أربعين سنة؟[٧]

إنّ المتمعن في أحـوال النبي ينتهي من خـلال هذه التهم الـى أنه كـان رجلاً صـالحـاً طاهـراً ديّناً عفيفـاً نقي الجيـب مأمونـاً على المال والعرض والنفـس، لم يدنّس نفسـه بفاحشة ولم يتجـاوز حق أحد قـط بل كـانت حيـاته حيـاة إنسان مثالي فلأجل ذلـك لم يجد الأعداء سبيلاً الى رميه بهذه التهـم فحاولوا أن يتهموه بأمـور نفسية يعسر إثبـاتها كمـا يعسر نفيها، وأمـا أنهم كيف اتهموه بـالسحر؟ فيقول إبن هشـام:

«إنّ الوليـد بن المغيـرة إجتمع إليـه نفر مـن قريش، أنـه قد حضر المـوسم، وأن وفود العرب ستقدم عليكـم فيه، وقد سمعوا بأمر صـاحبكـم هذا، فأجمعوا فيه رأياً واحـداً، ولا تختلفوا فيكـذب بعضكم بعضاً، ويرد قولكم بعضــه بعضاً، قالوا: فأنت يا أبا عبد شمـس فقل وأقم لنا رأياً نقول بـه، قال: بـل أنتم فقـولوا أسمـع، قالـوا: نقول كـاهن، قـال: لا والله ما هـو بكاهن، لقـد رأينا الكهان فما هو بـزمزمة الكاهن ولا سجعه، قالوا: فنقول: مجنون، قال: مـا هو بمجنـون، لقد رأينـا الجنون وعرفناه، فما هــو بخنقه ولا تخالجه، ولا وسوسته، قالوا: فنقـول: شاعر، قال: ما هو بشاعـر، لقد عرفنا الشعـر كله رجزه وهزجه وقـريضه ومقبوضه ومبسـوطه، فما هـو بالشعر، قـالوا: فنقول سـاحر، قال: مـا هو بساحـر، لقد رأينـا السحّار وسحرهـم، فما هـو بنفثهم ولا عقـدهم، قالوا: فمـا نقول يا أبا عبـد شمس؟ قال: والله إن لقوله لحـلاوة، وإن أصله لعذق، وإن فرعه لجناة وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلاّ عرف أنه باطل، وإن أقرب القول فيه لأن تقـولوا سـاحر، جـاء بقول هـو سحــر يفرق بـه بين المـرء وأبيه، وبيـن المرء وأخيه، وبين المـرء وزوجته، وبين المـرء وعشيرتـه. فتفـرقـوا عنه بـذلـك، فجعلـوا يجلسـون بسبيل النـاس حيـن قدموا الموسم، لا يمر بهم أحد إلا حذروه

أيّاه، وذكروا لهم أمره. فأنزل الله تعالى في الوليد بن المغيرة في ذلك قوله: **﴿ذَرني ومَن خَلَقتُ وَحيداً*وجَعَلتُ لَهُ مالاً مَمدوداً*وبَنينَ شُهوداً*ومَهَّدتُ لَهُ تَمهيداً*ثُمَّ يَطمَعُ أن أَزيدَ*كَلاّ إنَّهُ كانَ لآيَـٰتِنا عَنيداً*سَأُرهِقُهُ صَعوداً*إنَّهُ فَكَّرَ وقَدَّرَ*فَقُتِلَ كَيفَ قَدَّرَ*ثُمَّ قُتِلَ كَيفَ قَدَّرَ*ثُمَّ نَظَرَ*ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ*ثُمَّ أدبَرَ وَاستَكبَرَ*فَقالَ إن هَـٰذا إلاَّ سِحرٌ يُؤثَرُ*إن هَـٰذا إلاَّ قَولُ البَشَرِ﴾**.(المدثر:١١-٢٥)

وأنزل الله في النفر الذين كانوا يصنفون القول في رسول الله وفيما جاء به من الله تعالى: **﴿كَما أنزَلنا عَلَى المُقتَسِمينَ*الَّذينَ جَعَلُوا القُرءَانَ عِضينَ*فَوَرَبِّكَ لَنَسئَلَنَّهُم أجمَعينَ*عَمّا كانوا يَعمَلونَ﴾**(الحجر:٩٠-٩٣).[٨]

الهوامش

---

(١) الذاريات:٥٢.

(٢) كيف يقول ذلك مع أن سلمان أدرك النبي في مهجره، لا في موطنه.

(٣) مجمع البيان٢:٣٨٦.

(٤) السيرة النبوية-لإبن هشام١:٣٣١.

(٥) السيرة النبوية-لإبن هشام١:٣٥٧.

(٦) تفسير المراغي٢٥:٣٢.

(٧) تفسير المراغي١٧:٧.

(٨) السيرة النبوية-لإبن هشام١:٢٧٠.

ميراثان في كتاب الله

القسم الثاني

الشيخ محمد مهدي الآصفي

الميراث الثاني

واما ميراث المؤمنين من سلفهم. من الأنبياء والصديقين والصالحين فهو العبودية ومنطلقاتها واحكامها وقيمها واخلاقها.

وهذا الميراث ينتقل من جيل ليسلمه الى الجيل الذي يأتي من بعده.

والقرآن الكريم يشير في اكثر من موضع الى هذا الميراث الحضاري، يقول تعالى:

﴿ثمَّ أورَثنَا الكِتَٰبَ الَّذينَ اصطَفَينا مِن عِبادِنا﴾. (فاطر:٣٢)

﴿ولَقد ءَاتَينا موسَى الهُدَىٰ وأورَثنا بَني إسراءيلَ الكِتَٰبَ﴾. (غافر:٥٣)

إن هذا الميراث ليس ميراث المال والسلطان، وإنما هو ميراث الهدى والبينات والكتاب والعبودية والقيم والاخلاق، ميراث يحفظه قوم ويضيعه قوم آخرون.

وليس بقليل الاقوام الذين ضيعوا هذا الميراث واستبدلوا بالصلاة الشهوات.

يقول تعالى:

﴿أُولَٰئِكَ الّذينَ أنعَمَ اللهُ عَلَيهِم مِن النَّبيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ ومِمَّن حَمَلنا مع نوحٍ ومِن ذُرِّيَّةِ إبراهيمَ و إسراءيلَ ومِمَّن هَدَينا واجتَبَينا إذا تُتلَىٰ عَلَيهم ءَايَٰتُ الرَّحمَٰنِ خَرّوا سُجَّداً وبُكياً﴾﴿فَخَلَفَ مِن بَعدِهِم خَلْفٌ أضَٰعُوا الصَّلوٰةَ واتَّبَعوا الشَّهَواتِ فَسَوفَ يَلقَونَ غَيّاً﴾. (مريم:٥٨-٥٩)

وحدة المسيرة الربانية على وجه الارض:

ولا يتكون هذا الميراث الحضاري مرة واحدة وإنما يتكون ويقوى ويتسع تيارها ويتأصل اكثر في الارض، وفي نفوس المؤمنين كلما يمر به جيل أو يمتد به الزمن.

وهذا الميراث العقائدي والحضاري الكبير يشمل الايمان بالله، والرسول، والقيم، والولاء، لله وللرسول ولاوليائه، والاخلاق، والقيم، والسلوك، والحب، والبغض، والاعراف، والتقاليد، وحتى المصطلحات، والشعارات... وهي تنتظم في حقول من حياة الانسان.

وليس من الممكن اطلاقاً أن تتكون كل هذه الكنوز العقائدية والحضارية في حياة الجيل مرة واحدة... وإنما تتحول من جيل الى جيل يستلمها كل جيل ليسلمها الى الجيل اللاحق.

وخلال هذا الانتقال والعبور عبر الاجيال يزداد هذا الميراث عمقاً وأصالة ورسوخاً ووضوحاً.

ونحن نلاحظ في القرآن هذا التماسك والارتباط بين أجزاء ومراحل هذه المسيرة العقائدية والحضارية الكبرى، ونلاحظ تأكيد القرآن على الارتباط بهذه المسيرة، بشكل عام ومن دون تفرقة، وأن هذه المسيرة بمجموعها هي الاسلام، ولن يقبل الله تعالى غيره من الانسان.

﴿قل ءَامَنَّا بِاللّهِ وما أُنزِلَ عَلَينا وما أُنزِلَ عَلَىٰ إبراهيمَ وإسمَٰعيلَ وإسحَٰقَ ويَعقوبَ والأسباطِ وما أوتيَ موسَىٰ وعيسَىٰ والنَّبيُّونَ مِن رَبِّهِم لا نُفَرِّقُ بَينَ أَحَدٍ مِنهُم ونَحنُ لَه مُسلِمونَ *ومَن يَبتَغِ غَيرَ الإسلَٰمِ ديناً فلَن يُقبَلَ مِنهُ وهوَ في الآخِرَةِ مِنَ الخَٰسِرينَ﴾.(آل عمران:٨٤-٨٥)

﴿قولوا ءَامَنَّا بِاللّهِ وما أُنزِلَ إلَينا وما أُنزِلَ إلَىٰ إبراهيمَ وإسمَٰعيلَ وإسحَٰقَ ويَعقوبَ والأسباطِ وما أوتيَ موسَىٰ وعيسَىٰ وما أوتيَ النَّبيُّونَ مِن رَبِّهِم لا نُفَرِّقُ بَينَ أحَدٍ مِنهُم ونَحنُ له مُسلِمونَ*فإن ءَامَنوا بِمِثلِ ما ءَامَنتُم به فَقَدِ اهتَدَوا وإن تَوَلَّوا فإنَّما هُم في شِقاقٍ فَسَيَكفيكَهُمُ اللهُ وهوَ السَّميعُ العَليمُ*صِبغَةَ اللّهِ ومَن أحسَنُ مِنَ اللهِ صِبغَةً ونَحنُ لَه عَٰبِدونَ﴾.(البقرة:١٣٦-١٣٨)

وليس معنى ذلك أن نأخذ نحن

اليوم ديننا من التوراة والانجيل... وإنما المقصود أن هذه المسيرة مسيرة واحدة، وأننا نؤمن بالله والأنبياء جميعاً، لا نفرق بينهم، وأن حلقات هذه المسيرة مترابطة ومتماسكة، وأن هذه المسيرة التي تمر عبر الاجيال والقرون هي الاسلام الذي لا يرتضي الله للإنسان غيره ديناً.

ومن يرتبط بهذه المسيرة الربانية على وجه الارض فقد اهتدى، ومن تولى عنها فهو في شقاق وحرب، وليس بينهما فاصل وبرزخ.

وهذه المسيرة هي الصبغة الالهية التي يجب أن تصبغ حياة الانسان وتاريخه، وعقله، وعواطفه، وسلوكه، وتحركه، وسلمه، وحربه، بلونها الخاص.

وأن للحضارة الربانية التي يتوارثها المؤمنون في الارض لوناً خاصاً ومتميزاً عن سائر الالوان الجاهلية.

فأقرأ هذه الايات المباركات من سورة الأنعام:

﴿وتِلك حُجَّتُنا ءاتَينَٰها إبراهيمَ علَىٰ قومِهِ نَرفَعُ دَرَجَٰتٍ مَن نَشاءُ إنَّ رَبَّك حَكيمٌ عَليمٌ*ووَهَبنا لَه إسحَٰقَ ويَعقوبَ كُلاً هَدَينا ونوحاً هَدَينا مِن قَبلُ ومِن ذُرِّيَّتِهِ داوُدَ وسُلَيمَٰنَ وأيُّوبَ ويوسُفَ وموسَىٰ وهَٰرونَ وكذٰلِك نَجزي المُحسِنينَ*وزَكَرِيَّا ويَحيَىٰ وعيسَىٰ وإلياسَ كُلٌّ مِن الصَّٰلِحينَ* وإسمَٰعيلَ والْيَسَعَ ويونُسَ ولوطاً وكُلاًّ فَضَّلنا عَلَى العَٰلَمينَ*ومِن ءَابائِهِم وذُرِّيَّٰتِهِم وإخوانِهِم واجتَبَينَٰهُم وهَدَينَٰهُم إلَىٰ صِراطٍ مُستَقيم*ذٰلِك هُدَى اللهِ يَهدي بِه مَن يَشاءُ مِن عِبادِه ولَو أشرَكوا لَحَبِطَ عَنهُم ما كانوا يَعمَلونَ*أُولٰئِك الَّذينَ ءاتَينَٰهُمُ الكِتَٰبَ والحُكمَ والنُّبُوَّةَ فَإن يَكفُرْ بِها هَٰؤُلاءِ فَقَد وَكَّلْنا بِها قَوماً لَيسُوا بِها بِكَٰفِرينَ*أُولٰئِك الَّذينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَىٰهُمُ اقتَدِهْ﴾.(الانعام:٨٢-٩٠)

أرأيت كيف يتماسك اطراف هذا الميراث الالهي الكبير، وتتجاذب اجزاؤه وترتبط مراحله ببعض، وكل نبي يرث هذا الميراث من نبي مرسل قبله، وكل أمة من المؤمنين ترث هذا الميراث من أمة مؤمنة قبلها.

رسالة واحدة، وهدى واحد، وولاء واحد، وشريعة واحدة، وحب واحد، وسلم واحد، وحرب واحدة وخلق واحد، وصنعة واحدة، وإسلام واحد... وعناء واحد، وإبتلاء واحد، ومحنة واحدة من لدن آدم

(عليه السلام) الى ابراهيم (عليه السلام) الى رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم).

ثم بعد استعراض سريع لمسيرة النور والهدى هذه يقول تعالى لنبيه (صلّى الله عليه وآله وسلّم):

﴿أولٰئك الَّذينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَيٰهُمُ اقتَدِهْ﴾.

تعميق الاحساس بالوراثة:

يحرص القرآن الكريم على تعميق مفهوم الوراثة بشكل خاص في نفوس المؤمنين... ويصور المسيرة الالهية للحضارة مسيرة واحدة ذات حلقات مترابطة، متماسكة، يشدّ بعضها بعضاً ويخلف اللاحق منها السابق.

والأنبياء (عليهم السلام) في هذه المسيرة يؤكدون دائماً على وحدة المسيرة، ووشائج القرى التي تربط القيمين على هذه المسيرة الربانية. وكل نبي يأتي يصدّق من قبله من الرسل والانبياء، ويؤكد أن هذه المسيرة الربانية مسيرة واحدة لا تعدد فيها وهي الاسلام، ولن يقبل الله تعالى غيره ديناً.

﴿إنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإسلَٰمُ وما اختَلَفَ الَّذينَ أُوتوا الكِتَٰبَ إلاَّ مِن بَعدِ ما جاءَهُمُ العِلمُ بَغياً بَينَهُم﴾.(آل عمران:١٩)

﴿قُل ءَامَنَّا بِاللهِ وما أُنزِلَ عَلَينا وما أُنزِلَ عَلَىٰ إبراهيمَ وإسمَٰعيلَ وإسحَٰقَ ويَعقوبَ والأسباطِ وما أُوتيَ موسَىٰ وعيسَىٰ والنَّبيُّونَ مِن رَبِّهِم لا نُفَرِّقُ بَينَ أحَدٍ مِنهُم ونَحنُ لَه مُسلِمونَ*ومَن يَبتَغِ غَيرَ الإسلَٰمِ ديناً فَلَن يُقبَلَ مِنهُ وهوَ في الآخِرَةِ مِنَ الخَٰسِرينَ﴾.(آل عمران:٨٤-٨٥)

فليس في هذه المسيرة تعدد ولا اختلاف، وان اختلفت مراحلها، الا أن الخط واحد والمسيرة واحدة والغاية واحدة.

ويرتبط المؤمنون السائرون على هذه المسيرة الربانية الواحدة على اختلاف العصور... بصلات قربى وشيجة، فيكون بعضهم من بعض، وهم جميعاً يشكلون اسرة توحيدية واحدة في الارض، ويرتبط اعضاء هذه الاسرة ببعض باوثق الصلات والوشائج.

تأملوا في هذه الاية الكريمة في نهاية سورة الحج:

﴿جَٰهِدوا في اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هو اجتَبَىٰكُم وما جَعَلَ علَيكُم في الدِّينِ مِن

حَرَجٍ مِلَّةَ أَبيكُم إبراهيمَ هو سَمَّيٰكُمُ المُسلِمينَ مِن قَبلُ وفي هٰذا لِيَكونَ الرَّسولُ شَهيداً عَلَيكم وتَكونوا شُهَداءَ علَى النَّاسِ فأَقيموا الصَّلوٰةَ وءَاتوا الزَّكوٰةَ واعتَصِموا باللّهِ هو مَولَيٰكُم فَنِعمَ المَولَىٰ ونِعمَ النَّصيرُ﴾.(الحج:٧٨)

وترسم لنا هذه الاية العجيبة المسيرة الحضارية التي تولى القيمومة عليها من قبلنا أبونا إبراهيم (عليه السّلامُ)، ثم كان رسول اللّه (صلّى الله عليه وآله وسلّم) على هذا الخط شهيداً وقيماً على الناس فيما بعد، ونحن اليوم شهداء في هذا الخط على الناس.

وقوام هذا الخط إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والاعتصام بحبل اللّه... والله تعالى هو مولانا ويتولى أمورنا جميعاً.

وتستوقفنا هذه الكلمة القرآنية العجيبة طويلاً «ملّة أبيكم إبراهيم» أنها ليست بأُبوة نسب، فأية أُبوة هذه التي يذكرها القرآن. إنها أبوة الحضارة الالهية على وجه الارض وأبوة أسرة التوحيد، ونحن اليوم أبناء إبراهيم (عليه السّلام) وورثته. وميراثنا منه هو إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والاعتصام بحبل اللّه.

وشاهد الصدق على وحدة الخط، ووحدة الميراث، ووحدة الحضارة، ووحدة القيم، ووحدة أسرة التوحيد في التاريخ... التصادق الموجود في مراحل الخط المختلفة... فكلّ نبي يأتي يصدق من قبله من الأنبياء، رسول اللّه (صلّى الله عليه وآله وسلّم) خاتم الانبياء يصدق كل من جاء قبله من الأنبياء والمرسلين من دون استثناء، ومن دون تفريق.

﴿نَزَّلَ عَلَيك الكِتَٰبَ بالحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَينَ يَدَيهِ﴾.(آل عمران:٣)

﴿وقَفَّينا علَىٰ ءَاثَٰرِهِم بِعيسَى ابنِ مَريَمَ مُصَدِّقاً لِما بَينَ يَدَيهِ مِن التَّورَىٰةِ وءَاتَينَٰهُ الإنجيلَ فيهِ هُدًى ونورٌ ومُصَدِّقاً لِما بَينَ يَدَيهِ مِن التَّورَىٰةِ وهُدًى ومَوعِظَةٌ لِلمُتَّقينَ... وأَنزَلنا إلَيك الكِتَٰبَ بِالحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَينَ يَدَيهِ مِنَ الكِتَٰبِ ومُهَيمِناً عَلَيهِ﴾.(المائدة:٤٦،٤٨)

إن هذا التجاوب والتصادق لأطراف مسيرة طويلة عميقة في التاريخ يكشف عن وحدة المسيرة ووحدة المنطلق والغاية فيها.

إن الاحساس بوحدة المسيرة ووحدة أسرة التوحيد يجعل إرتباط

الانسان المؤمن بهذه المسيرة وبهذه الاسرة إرتباطاً وثيقاً قوياً، لا يصدر عن العقل فقط، وإنما يصدر عن العقل والعاطفة.

وكلما يقوى إنشداد الانسان بهذا الخط والتراث والاسرة الالهية يكون أقدر على حماية نفسه من الانزلاق في مزالق الهوى والشهوات.

إن إحساسه بالارتباط بأسرة التوحيد، وأنه فرع من هذه الشجرة الباسقة الضاربة في أعماق التاريخ، وليس نبتة طارئة، مجتثة من فوق الارض ما لها من قرار... هذا الاحساس يعطي الانسان كثيراً من الحصانة والمناعة تجاه المغريات والشهوات، يحجبه من مصايد الشيطان وكيده ومن شراك الشجرة الخبيثة في التاريخ التي تحاول أن تلتف على هذه الشجرة الطيبة، وتقتلعها من جذورها.

هدى الله ومعيته للعاملين:

إن طريق الدعوة الى الله تعالى طريق عسير صعب، وليس في مسالك الانسان طريق أصعب وأشق منه.

والذين تساقطوا على هذا الطريق أو تخلفوا عنه، أو ضاعوا وتاهوا كثيرون، لم يتمكنوا من مواصلة السّير على الطريق رغم إستقامة الطريق ووضوحه.

والعاملون على هذا الطريق من الدعاة الى الله يتعرضون كثيراً لمتاعب الطريق ومخاطره ومزالقه واكثر ما يحيط العاملين في سبيل الله والدعاة الى الله من مخاطر ومتاعب في هذا الطريق اثنان:

مخاطر الضياع والضلال والتيه.

ومخاطر التعب واليأس والخوف وإيثار العافية وحب الدنيا والتقاعس والتخلف.

وهذان النوعان من المخاطر يحفّان طريق الله والدعاة اليه تعالى، وقلما ينجو أحد ممن يعمل في سبيل الله ويدعو اليه من مثل هذه العوائق النفسية.

ولولا رحمة من الله تعالى...

﴿والَّذينَ جَـٰهَدوا فينا لَنَهديَنَّهم سُبُلَنا وإنَّ اللهَ لَمَعَ المُحسِنينَ﴾.(العنكبوت:٦٩)

الذين يجاهدون في سبيل اللّه، ويعطون من أنفسهم وذويهم واموالهم لله تعالى، يعينهم الله تعالى في أمرين:

١- الدلالة والهداية والبصيرة والوعي والفقة والتمييز بين الحق

والباطل. وهذه هي المنحة الالهية الاولى، ولولا أن الله تعالى يرزق المجاهدين من عباده، بصيرة في دينهم، وهدى، ووعياً، وفقها في الدين، لتاه من هؤلاء الكثيرون في متاهات الطريق والمسالك.

٢- التثبيت والدعم والتطمين والتأييد. وطريق الدعوة الى الله تعالى محفوفة بكثير من التثبيط، والانسان العامل يواجه على طريق ذات الشوكة هذه العوائق التي تعيق تقدمه كثيراً.

ومن هذه العوائق «الخوف» و «حب الدنيا» و «إيثار العافية والراحة» و«اليأس» و «قصر النظر» في العمل و«الكسل» و«ضعف النفس» و «الشح».

هذه العقبات هي اسباب تخلف الناس وتساقطهم اثناء الطريق... والشيطان يعمل اولاً لتضليل العاملين وإيقاعهم في الغواية والشك والضلال. فاذا تم له تحقيق هذه الغاية فقد حقق كلّ ما يريد، وإن لم يتوفق في ذلك، بدأ بالدور الثاني من مهمته بالقاء اليأس والخوف والضعف وحب الدنيا وإيثار العافية في نفوس العاملين.

واذا قدر للدعاة الى الله النجاة من الشرك الاول للشيطان فان الشيطان يمد لهم الشرك الثاني في هذه المرحلة، وقليل من العاملين من يستطيع أن يجتاز في هذه المرحلة «عوائق الطريق» ويمضي مستمراً في سيره، متكلاً على الله القوي العزيز.

واذا كان الداعية يحتاج في المرحلة الاولى لاجتياز التضليل والتعميه والتلبيس الى هدى وبصيرة من الله تعالى، فإنه يحتاج في المرحلة الثانية لاجتياز العوائق الى دعم وتثبيت من الله تعالى والى معية الله عزوجل المستمرة له عند كل منعطف ومزلق في الطريق، وألا يكله الله تعالى الى نفسه طرفة عين، فإن الله عزوجل اذا اوكل عبده الى نفسه طرفة عين كان من الهالكين والساقطين.

والى هاتين المنحتين الالهيتين «الهدى والمعيّة الالهية» تشير الآية الكريمة.

﴿والَّذينَ جَـٰهَدوا فينا لَنَهديَنَّهُم سُبُلَنا وإنَّ اللهَ لَمَعَ المُحسِنينَ﴾.

عقبات الطريق:

وتعميق الأحساس بالوراثة يعين الدعاة الى الله على اجتياز هاتين المرحلتين من عقبات الطريق:

عقبة التضليل والتيه والضياع

وعقبة العوائق النفسية والموضوعية المبثوثة على طريق العاملين في سبيل الله.

عقبة الضلال و إنعدام الرؤية:

ونبدأ بالعقبة الأولى:

إن الطريق الى الله صراط مستقيم ليس فيه أمت ولا عوج بالتأكيد.

ولكن سلطان الهوى في نفس الأنسان هو الذي يعمي الأنسان عن الحق ويدفع الانسان الى متاهات الضلال والضياع، ويلبس الحق بالباطل والباطل بالحق، ويبعث في نفس الأنسان الشك والريب، ويسلبه اليقين والوضوح.

الهدى والهوى:

يقول الشاطبي

«قد جعل الله اتباع الهوى مضاداً للحق وعدّه قسيماً له كما في قوله تعالى:

﴿ يَا داوُدُ إنَّا جَعَلنَـٰكَ خَليفَةً في الأرضِ فَاحكُمْ بَينَ النَّاسِ بِالحَقِّ ولا تَتَّبِعِ الهَوَىٰ فيُضِلَّكَ عَن سَبيلِ اللّهِ...﴾ الاية.

وقال في قسيمه **﴿وأمَّا مَن خَافَ مَقامَ رَبِّه ونَهَى النَّفسَ عَنِ الهَوَىٰ*فإنَّ الجَنَّةَ هيَ المَأوَىٰ﴾**.

وقال: **﴿وما يَنطِقُ عَنِ الهَوَىٰ*إن هو إلاَّ وَحيٌ يوحَىٰ﴾**.

فقد حصر الامر في شيئين: الوحي وهو الشريعة والهوى، فلا ثالث لهما.

واذا كان الامر كذلك فهما متضادان، وحين تعين الحق في الوحي: توجه للهوى ضده فاتباع الهوى مضاد للحق.

وقال تعالى **﴿أفَرَأيتَ مَنِ اتَّخَذَ إلَـٰهَهُ هَوَيٰهُ وأضَلَّهُ اللهُ عَلَىٰ عِلم﴾**.

وقال**﴿أولٰئِك الَّذينَ طَبَعَ اللهُ عَلىٰ قُلوبِهِم واتَّبَعوا أهواءَهُم﴾**.

وقال**﴿أفَمَن كان عَلىٰ بَيِّنَةٍ مِن رَبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَه سوءُ عَمَلِه واتَّبَعوا أهواءَهُم﴾**.

فهذا كله واضح في أن قصد الشارع الخروج عن اتباع الهوى.[1]

وعندما يلتبس الامر على الأنسان بسبب الهوى فليس افضل من أن يستهدي الأنسان بهدي من سبقه من الأنبياء والصديقين على هذا الطريق الطويل، فان الشيطان يتربص بالأنسان الدوائر عند كل منعطف من منعطفات الطريق ليضلله وليدفعه عن الصراط

المستقيم الى متاهات الطريق.

فاذا مشى الانسان لوحده على هذا الطريق لا يأمن الشيطان والهوى ولكن عندما يضع خطاه على مواضع خطى الأنبياء والمرسلين، ويربط نفسه بهذه المسيرة الربانية في التاريخ ينجو من وساوس الشيطان واغراء الهوى، فلا ينالان منه شيئاً، ولا يصيبانه بسوء.

فقد يلتبس امر الطريق على الانسان اذا كان يسير وحده، اما حينما يشعر أنه يقتدي بهدي الأنبياء، ويسير على طريقهم.... يضع خطاه بثقة واطمئنان على طريق ذات الشوكة.

فقد أُخطىء أنا الطريق لوحدي ولكن لا يمكن أن يُخطىء الطريق هذا الحشد الهائل والمسير الطويل من الصفوة الصالحة من عباد الله من الأنبياء والمرسلين والصديقين والشهداء فهم المعالم على الطريق وعندما تحتف الطريق بمثل هذه المعالم والاشارات فلا يمكن أن يضيع الانسان او يلتبس عليه الامر.

ولامر ما اذا دعونا الله تعالى في الصلاة أن يرزقنا الهداية الى الصراط المستقيم «اهدنا الصراط المستقيم» نعقب ذلك مباشرة بتشخيص الصراط المستقيم تشخيصاً عينياً خارجاً، فهؤلاء الذين أنعم الله عليهم من عباده الصالحين ولم يغضب عليهم ولم يضلوا:

﴿صِراطَ الَّذينَ أنعَمتَ عَلَيهِم غَيرِ المَغضوبِ عَلَيهِم ولا الضَّالينَ﴾.

وفي سورة الأنعام بعد ما تستعرض السورة المباركة ذكر عدد من الأنبياء (عليهم السّلام) منذ عهد إبراهيم ابي الأنبياء (سلام الله عليه) الى رسول اللّه (صلّى الله عليه وآله وسلّم)... يخاطب الله تعالى نبيه (صلّى الله عليه وآله وسلّم) بقوله:

﴿...أولٰئِك الَّذينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَيٰهُمُ اقتَدِهْ﴾.(الأنعام:٩٥)

العقبة الثانية «العوائق»:

ولا تقِل خطورة العقبة الثانية عن العقبة الاولى، ولا تقل ضحاياها عنها.

إن قضية هذه العقبة هي العوائق التي تعيق حركة العاملبن و تسبب لهم التخلف عن الحركة والتساقط اثناء الطريق.

وهذه العوائق على قسمين منها عوائق موضوعية مبثوثة على الطريق.

ومنها عوائق ذاتية كامنه في نفوس

الناس، وكلتاهما تعيقان حركة العاملين في سبيل الله واذا التقتا كان تأثيرهما تأثيراً قوياً بالغاً في نفوس العاملين.

فمن العوائق الموضوعية طول الطريق، وبعد الشقة، والمتاعب التي يحفل بها هذا الطريق من البأساء والضراء.

والدعاة الى الله يعجبهم أن يكون الطريق قصيراً مريحاً، آمناً من المخاوف والاخطار، ولكن الله تعالى يريد لعباده أن يسلكوا اليه طريق ذات الشوكة.

﴿وتَوَدُّونَ أنَّ غَيرَ ذاتِ الشَّوكَةِ تَكونُ لَكُم ويُريدُ اللهُ أن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَتِهِ ويَقطَعَ دابِرَ الكَافِرينَ﴾.(الأنفال:٧)

فالطريق الى الله اذا كان قصيراً مريحاً، آمناً، سهلاً، لن يحقق الحق، ولن يقطع دابر الكافرين ولن تتم السيادة والسلطان لدين الله على وجه الارض الا حينما يسلك الدعاة طريق ذات الشوكة الى اللّه.

وليست هذه البأساء والضراء خاصة بهذه الامة، فهي سنة الله في حياة العاملين جميعاً، لم يشذ منهم احد عن هذه السنة الالهية الصعبة.

﴿أم حَسِبتُم أن تَدخُلوا الجَنَّةَ ولَمَّا يَأتِكُم مَثَلُ الَّذينَ خَلَوْا مِن قَبلِكم مَسَّتهُمُ البَأْساءُ والضَّرَّاءُ﴾.(البقرة:٢١٤)

ولو كان امر هذا الطريق يسيراً، والمسافة قريبة لم يتخلف عن الطريق أحد من الناس، ولكن طول المسافة، وبعد الشقة، جعل الناس يتفرقون من حول الدعوة، ويتخلفون عن المسيرة.

﴿لَو كان عَرَضاً قَريباً وسَفَراً قاصِداً لاتَّبَعوكَ ولٰكِنْ بَعُدَت عَلَيهِمُ الشُّقَّةُ﴾.(التوبة:٤٢)

... وهناك عوائق ذاتية في داخل النفوس، وهي اخطر بكثير واكثر بكثير من العوائق الموضوعية القائمة على الطريق.

ومن خصائص هذه العوائق أنها تختفي ساعات اليسر وتبرز ساعات العسر والشدة، ولنقرأ هذه الايات المباركات من سورة الاحزاب من العوائق الكامنة في نفوس المؤمنين والتي تبرز في ساعات الشدة ولحظات العسر:

﴿... أُذكُروا نِعمَةَ اللهِ عَلَيكُم إذ جاءَتكُم جُنودٌ فَأرسَلنا عَلَيهِم ريحاً وجُنوداً لم تَرَوها وكانَ اللهُ بما تَعمَلونَ

بَصيراً*إذ جاءُوكم مِن فَوقِكم ومِن أَسفَلَ مِنكُم وإذ زاغَتِ الأبصَٰرُ وبَلَغَتِ القُلوبُ الحَناجِرَ وتَظُنّونَ بِاللهِ الظُّنونَاْ*هُنالِكَ ابتُلِيَ المؤمِنونَ وزُلزِلوا زِلزالاً شَديداً﴾.(الاحزاب:٩-١١)

وفي نفس السياق:

﴿قد يَعلَمُ اللهُ المُعَوِّقينَ مِنكُم والقائِلينَ لإخوانِهِم هَلُمَّ إلَينا ولا يأتونَ البَأسَ إلاَّ قَليلاً*أشِحَّةً عَلَيكُم فَإذا جاءَ الخَوفُ رَأَيتَهُم يَنظُرونَ إلَيكَ تَدورُ أعيُنُهُم كَالَّذي يُغشَىٰ عَلَيهِ مِن المَوتِ فَإذا ذَهَبَ الخَوفُ سَلَقوكُم بِألسِنَةٍ حِدادٍ أَشِحَّةً عَلَى الخَيرِ أولٰئِك لم يُؤمِنوا فَأحبَطَ اللهُ أعمَٰلَهُم وَكانَ ذٰلِك عَلَى اللهِ يَسيراً﴾.(الاحزاب:١٨-١٩)

ولا تخص هذه العوائق ونقاط الضعف نفوس المنافقين والصغار من المؤمنين فقط، وانما تشمل المؤمنين الذين امتحن الله قلوبهم للايمان احياناً.

فقد اثرت نكسة أحد في نفوس المؤمنين الاشداء الذين امتحن الله قلوبهم ونصرهم الله ببدر... الا القليل منهم، الذين ثبتت نفوسهم في نكسة أحد ولم يضعفوا ولم يتزلزلوا، وعن هؤلاء يقول تعالى بعد معركة أحد:

﴿ولا تَهِنوا ولا تَحزَنوا وأنتُمُ الأعلَونَ إن كُنتُم مُؤمِنينَ*إن يَمسَسكُم قَرحٌ فَقَد مَسَّ القَومَ قَرحٌ مِثلُهُ وتِلك الأيّامُ نُداوِلُها بَينَ النّاسِ ولِيَعلَمَ اللهُ الَّذين ءَامَنوا ويَتَّخِذَ مِنكُم شُهَداءَ واللهُ لا يُحِبُّ الظَّٰلِمينَ﴾.(آل عمران:١٣٩-١٤٠)

وهذه بعض الامثلة والشواهد من نقاط الضعف والعوائق الكامنة في نفوس الناس، والتي تختفي ساعات اليسر والاقبال وتبرز بروزاً قوياً ساعات العسر والشدة.

وإن هذه العوائق لتحيط الدعاة الى اللّه، تعيق سيرهم، وتدفعهم الى صفوف المتخلفين والمنافقين والضعفاء ولابد للدعاة من أن يروضوا أنفسهم كثيراً لاجتياز هذه العوائق ما كان منها على الطريق، أو في داخل نفوسهم، وأن يدعوا الله تعالى ليمدهم من عنده بقوة وصبر وثبات، يستطيعون به أن يواجهوا هذه العقبات والفتن على طريق ذات الشوكة.

﴿ولمّا بَرَزوا لِجالوتَ وجُنودِهِ قالوا رَبَّنا أَفرِغ عَلَينا صَبراً وثَبِّت أقدامَنا وانصُرنا عَلَى القَومِ الكَٰفِرينَ﴾.(البقرة:٢٥٠)

كيف نكافح الخوف والضعف:

وتعميق الاحساس بوراثة الأنبياء والصديقين. يمنح الانسان مثل هذا الثبات والثقة والقوة لمواجهة التحديات والنكسات التي تحدث احياناً في صفوف المؤمنين، ويحول دون أن تتحول النكسة الى هزيمة نفسية. وهذا اجمال لابد له من تفصيل واشارة لابد لها من تحديد وتشخيص، واليك هذا التفصيل:

١- قد تثير قوة العدو وضخامة امكاناته وكثرة عدده وضعف امكانات القلة المؤمنة احساساً بالضعف والنقص في نفوس المؤمنين، ولكن الامر يختلف كثيراً عندما ينظر المؤمنون الى أنفسهم من خلال موقعهم الحضاري من التاريخ، ويعرفون أنهم جزء لا يتجزء من هذه المسيرة الربانية الممتدة على امتداد التاريخ كله فإن هذا الخط هو الدين القيم الذي قوّم مسيرة البشرية وحركة التاريخ منذ اليوم الاول الى اليوم الحاضر.

ولم يزل هذا الخط منذ نشأته في عمق الفطرة البشرية الى أن تولاه أنبياء الله بالرعاية قائماً في حياة البشرية، وقيماً على حياة الانسان وسلوكه وتاريخه.

وليست المعاناة والعذاب والتشريد والتهجير والقتل والضغينة... التي يجدها الداعية في حياته الرساليه من جانب أئمة الكفر واتباعهم شيئاً جديداً في حياتهم... بل هي جزء من ميراثهم الضخم الذي يرثونه كابراً عن كابر.

ومن هذا التراث الكبير يجد المؤمن دعماً وسنداً روحياً يخرجه عن الشعور بالوحشة والانفراد والضعف ويجد في معاناة سلفه الذين سبقوه في الايمان والدعوة عزاء وسلوة، ويرى فيهم قدوة صالحة لنفسه.

كل ذلك يبعث في نفوس المؤمنين العاملين الاحساس بالقوة والعمق والامتداد ويشعرهم بالعزاء والسلوى فيما يلقونه من عذاب. ويشعرهم بتأييد الله تعالى للمسيرة كلها.

رحلة الدعوة والمعاناة في سورة هود:

وسورة هود سورة عجيبة في هذا المضمار ولقد وددت أن أتلو السورة كلها على القراء.

ففي هذه السورة ينعكس خط الدعوة الى الله ﴿أَلاَّ تَعبُدوا إلاَّ اللهَ إنَّني لكم مِنهُ نَذيرٌ وبَشيرٌ*وأنِ استَغفِروا رَبَّكم﴾ مما يعكس خط الاعراض والجحود.

﴿ألا إنَّهم يَثنونَ صُدورَهم لِيَستَخْفوا مِنهُ﴾.

ثم تبين السورة المباركة استدراج الله تعالى لهؤلاد المعرضين والمشركين وامهالهم وتماديهم في غيهم وطغيانهم ﴿ولَئن أخَّرنا عَنهُمُ العَذابَ إلىٰ أُمَّةٍ مَعدُودَةٍ لَيَقولُنَّ ما يَحبِسُه ألا يَومَ يَأتيهِم لَيسَ مَصروفاً عَنهم وحاقَ بِهِم ما كانوا بِه يَستَهزِءُونَ﴾.

ولعل صدر رسول اللّه (صلّى الله عليه وآله وسلّم) كان يضيق وسط هذا الاعراض والطغيان وتمادي القوم في غيهم وضلالهم.

﴿فلَعَلَّكَ تارِكٌ بَعضَ ما يوحَىٰ إلَيكَ وضائِقٌ بِه صَدرُكَ...﴾ لولا أن الله تعالى يذكر نبيه أن هؤلاء على كثرة عددهم وقوتهم وطغيانهم لم يكونوا ليعجزوا الله تعالى... وأن الله ان امهلهم استدراجاً لهم فلن ينساهم، ولن يفلتوا من قبضة قدرته وسلطانه تعالى ﴿أولٰئِك لم يَكونوا مُعجِزينَ في الأرضِ وما كانَ لَهم مِن دونِ اللهِ مِن أَولِياءَ يُضاعَفُ لَهُمُ العَذابُ﴾.

ثم ترسم السورة المباركة صورة حية لهذين الامتدادين والمعسكرين الحضارة الالهية والحضارة الجاهلية: ﴿مَثَلُ الفَريقَينِ كَالأعمَىٰ والأَصَمِّ والبَصيرِ والسَّميعِ هَل يَستَويانِ مَثَلاً﴾.

فمهما كثر عددهم وزادت قوتهم فلا يزيدون على أن يكونوا كتلة مهملة من العمى والصم في مسار التاريخ وأن الجبهة الاخرى هي الجبهة الواعية ذات الاحساس والادراك «السمع والبصر» ومهما كانت قوة هذه الكتلة وحجمها فلن يكون لها شأن ولن يكون لها قيمة في مضمار التاريخ.

ثم تبدأ السورة باستعراض المسيرة الالهية الكبيرة في التاريخ في مقاطع متعددة وبشيء من التفصيل، وما لاقاه أنبياء الله ورسله خلال هذه المسيرة من عناء وعذاب وجحود وتكذيب واستهزاء من اقوامهم.

فتذكر السورة معاناة نوح (عليه السّلام) في دعوة قومه الى اللّه، وتذكر السورة رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم):

بمعاناة هود (عليه السّلام) في دعوة«عاد»

بمعاناة صالح (عليه السّلام) في دعوة«ثمود»

بمعاناة ابرهيم (عليه السّلام) في دعوة قومه

ومعاناة لوط ومعاناة شعيب (عليه السّلام) في دعوة«اهل مدين» الى الله ومعاناة موسى (عليه السّلام) في دعوة قومه الى الله وتسترسل الآيات المباركة في شرح هذه المعاناة ورسمها.

ثم بعد هذه الجولة في تاريخ الانسان وحضارته ومعاناة الانبياء وعذابهم وعناد المشركين ورفضهم وتعنتهم ولجاجهم وصبر الأنبياء وجلدهم واستقامتهم

تخاطب السورة رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم)، الذي قد كان يضيق صدره بما يراه من تعنت قومه وعنادهم قوله تعالى:

﴿فَاستَقِم كَما أُمِرتَ ومَن تابَ مَعَك ولا تَطغَوْا إنَّه بِما تَعمَلون بَصيرٌ﴾.

وتحذر الاية الكريمة المسلمين من أن يمسهم ضعف في خضم الصراع ومرارته الى الذين ظلموا فتقول لهم:

﴿ولا تَركَنوا إلَى الَّذينَ ظَلَموا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وما لَكم مِن دونِ اللهِ مِن أَولياءَ ثُمَّ لا تُنصَرونَ﴾.

يقول ابن عباس: ما نزل على رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) آية كانت اشد عليه، ولا اشق من قوله تعالى: **﴿فَاستَقِم كَما أُمِرتَ﴾** ولذلك قال لاصحابه حين قالوا له: «اسرع اليك الشيب يارسول اللّه» قال: «شيبتني هود والواقعة».(٢)

ثم يعلّم الله تعالى نبيه أمرين يشدان ازره ويربطان على قلبه، ويثبتان فؤاده في هذه المسيرة الصعبة الشائكة وهما:

الصلاة والصبر

وما ادراك ما الصلاة والصبر؟ الصلاة في آناء الليل واطراف النهار والدعاء والتضرع الى الله ومواصلة ذكر الله تعالى والصبر في الغرائب وعلى

البأساء والضراء.

﴿أَقِمِ الصَّلوٰةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وزُلَفاً مِنَ الَّيلِ إنَّ الحَسَناتِ يُذهِبنَ السَّيِّئاتِ ذٰلِك ذِكرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ*وَاصبِرْ فإنَّ اللهَ لا يُضيعُ أجرَ المُحسِنينَ﴾.

وقد ذكر القرآن الكريم المؤمنين والدعاة الى الله في أكثر من موضع بالاستعانة بالصبر والصلاة في اجتياز العقبات ومجابهة التحديات.

﴿واستَعينوا بِالصَّبرِ والصَّلوٰةِ﴾.(البقرة:٤٥)

﴿استَعينوا بِالصَّبرِ والصَّلوٰةِ إنَّ اللهَ مَعَ الصَّـٰبِرينَ﴾.(البقرة:١٥٣)

ثم تأتي بُعد هذه الجولة الرسالية في تاريخ الدعوة ومسارها الطويل الشاق هذه الآية العجيبة التي تبين لنا السرّ في تذكير رسول اللّه (صلّى الله عليه وآله وسلّم) في خضم الصراع والمعاناة بهذا التاريخ الطويل المليء بالمعاناة والعذاب.

إن السر في هذا الاستعرض الطويل هو تثبيت قلب رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) في معاناته الشاقة باطراف من قصص الأنبياء والمرسلين (عليهم السّلام)

﴿وكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيك مِن أَنباءِ الرُّسُلِ ما نُثَبِّتُ به فُؤَادَك وجاءَك في هَـٰذِه الحَقُّ ومَوعِظَةٌ وذِكرَىٰ لِلمُؤمِنينَ﴾.

وأن رسول اللّه (صلّى الله عليه وآله وسلّم) ليجد في استقامة الأنبياء وصبرهم على المحنة قوة وثباتاً في فؤاده على المضي في الصراع المصيري، ويجد في معاناة الانبياء (عليهم السّلام) عزاء وسلوة.

واذا كان التذكير بالمسيرة التاريخية الواحدة للدعوة الى الله وتعميق الاحساس بوحدة الخط والميراث يثبت فؤاد رسول اللّه (صلّى الله عليه وآله وسلّم) في خضم معركة الدعوة، وهو الذي شرح الله صدره وثبت فؤاده... فاحرى بنا نحن الدعاة الى الله تعالى أن نستوحي من هذه المسيرة الالهية الثبات والعزم والثقة بالنصر والطمأنينة والقدرة على مواجهة التحديات والغرائب والمحن، وأن نتلمس في هذه المسيرة الربانية الضاربة في اعماق التاريخ... اعماقنا الحضارية ومن هذه الصفوة الصالحة المنتجبة من عباد اللّه... أصولنا وجذورنا وأسرتنا التي ننتمي اليها.

نماذج أخرى من رحلة العذاب والمعاناة:

وإن شئت أن تسترسل في هذا الهدي الالهي، وترى كيف يثبت الله تعالى فؤاد نبيه بمن سبقه من الأنبياء والمرسلين للمتعبين بعد طول العناء وطول المعاناة وبما لاقوه من عناء وعذاب واضطهاد فاتلُ معي هذه الآيات المباركات:

﴿وإن يُكَذِّبوكَ فَقَد كَذَّبَت قَبلَهُم قَومُ نوحٍ وعادٌ وثَمودُ*وقَومُ إبراهيمَ وقَومُ لوطٍ*وأصحابُ مَديَنَ وكُذِّبَ موسَىٰ فَأملَيتُ لِلكٰفِرينَ ثُمَّ أخَذتُهُم فَكَيفَ كانَ نَكيرِ﴾.(الحج:٤٢-٤٥)

﴿ولَقَدِ استُهزِئَ بِرُسُلٍ مِن قَبلِكَ فَأملَيتُ لِلَّذينَ كَفَروا ثُمَّ أخَذتُهُم فَكَيفَ كانَ عِقابِ﴾.(الرعد:٣٢)

﴿ولَقَدِ استُهزِئَ بِرُسُلٍ مِن قَبلِكَ فَحاقَ بِالَّذينَ سَخِروا مِنهُم ما كانوا بِهِ يَستَهزِءُونَ﴾.(الأنبياء:٤١)

﴿وإن يُكَذِّبوكَ فَقَد كُذِّبَت رُسُلٌ مِن قَبلِكَ وإلَى اللهِ تُرجَعُ الأُمورُ﴾.(فاطر:٤)

٢- وتعميق الاحساس بالوراثة في نفس الداعية يمكن من فهم سنن الله تعالى وقوانينه في مسيرة الحضارة الانسانية.

ذلك أن الداعية ينظر الى المسيرة ليس من خلال عناء الساعة وابتلاءات الطريق، وإنما ينظر اليها من خلال استعراض مسيرة الحضارات الطويل في التاريخ.

وتاريخ هذا الصراع بين الخط الرباني والخطوط الجاهلية وما آل اليه هذا الصراع بين الحق والباطل، إن الداعية الذي ينظر الى التاريخ بهذه الرؤية الشاملة العميقة يستطيع أن ينظر الى مسيرة المعاناة والعمل والدعوة نظرة شمولية واسعة ويكشف السنن والقوانين الالهية في مسير الحضارة، ويقضي في امر المسيرة لا من خلال معاناة اللحظة، وإنما من خلال النتائج والعواقب.

اسلوبان في الرؤية:

والانسان ينظر الى المسيرة على نحوين:

فقد ينظر الى المسيرة من خلال المعاناة والآلام والمتاعب التي تكشف

الطريق... وهذه هي النظرة القصيرة والرؤية المحدودة، للطريق التي لا تتجاوز اللحظة والساعة وهي رؤية محفوفة الاخطار ولا يسلم صاحبها كثيراً من السقوط، ولا ينجو من الخوف واليأس والتعب في اغلب الاحوال.

فإن الذي ينظر الى المسيرة، ويقضي فيها من خلال معاناة العمل ومتاعبه وآلامه، يسرع الى نفسه اليأس والخوف والتعب ومن يدخله التعب واليأس والخوف لا يستطيع أن يواصل المسيرة، ويتخلف أو يسقط أثناء الطريق، إن عاجلاً أو آجلاً.

وقد ينظر الى المسيرة من خلال النتائج والعواقب وهذه هي الرؤية الصحيحة للمسيرة، ونحن نلتقى في القرآن هذه الرؤية التي تمكننا من تجاوز سلبيات المعاناة والمرور بها في طريق العمل دون أن يصيبنا الخوف أو اليأس أو التعب ودون أن يشق علينا بعد الشقة.

فإن القرآن يحرص على النظر الى معاناة الطريق وعذابها من خلال العواقب والنتائج وليس من خلال المعاناة نفسها ساعة المعاناة والمواجهة والعمل.

وفيما يلي نتلو عليكم طرفاً من آيات القرآن التي تحرص أن تعلمنا اسلوب الرؤية الصحيح الى المعاناة لاستيعابها وامتصاصها يقول تعالى:

﴿فَلا تَهِنوا وتَدعُوا إلَى السَّلمِ وأنتُمُ الأعلَونَ واللهُ مَعَكم ولَن يَتِرَكُم أعمَٰلَكُم﴾.(محمد:٣٥)

﴿ولا تَهِنوا ولا تَحزَنوا وأنتُمُ الأعلَونَ إن كُنتُم مُؤمِنينَ﴾.(آل عمران:١٣٩)

﴿قل يَٰقَومِ اعمَلوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُم إنِّي عَٰمِلٌ فَسَوفَ تَعلَمونَ مَن تَكونُ له عَٰقِبَةُ الدَّارِ إنَّه لا يُفلِحُ الظَّٰلِمونَ﴾.(الانعام:١٣٥)

﴿ولَقَد كَتَبنا في الزَّبورِ مِن بَعدِ الذِّكرِ أنَّ الأرضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّٰلِحونَ*إنَّ في هَٰذا لَبَلاغاً لِقَومٍ عَٰبِدينَ﴾. (الأنبياء:١٠٥)

﴿وَعَدَ اللهُ الَّذينَ ءَامَنوا مِنكُم وعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ لَيَستَخلِفَنَّهُم في الأرضِ كَمَا استَخلَفَ الَّذينَ مِن قَبلِهِم ولَيُمَكِّنَنَّ لَهُم دينَهُمُ الَّذي ارتَضَىٰ لَهُم ولَيُبَدِّلَنَّهُم مِن بَعدِ خَوفِهِم أَمناً يَعبُدونَني لا يُشرِكونَ بي

شَيئاً﴾.(النور:٥٥)

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنا المُرسَلينَ*إنَّهُمْ لَهُمُ المَنصورونَ*وَإنَّ جُندَنا لَهُمُ الغَالِبونَ﴾.(الصافات:١٧١)

والذين يرزقهم الله هذا النهج من الرؤية البعيدة والنافذة يمكنهم الله من النظر الى الاحداث التاريخية لمسيرة الانسان، نظرة شاملة غير محدودة، ويمكنهم من استنباط قوانين وسنن هذه المسيرة ومعرفة مواضع النصر والهزيمة في هذه المسيرة.

اولئك يطمئنون الى حتمية النصر، ولا يساورهم في ذلك شك لحظة واحدة، وحتى في احرج الساعات واحلك الظروف واشد الابتلاءات لا يمس الريب نفوسهم ولا ينال من ثقتهم ويقينهم بحتمية النصر الالهي وأن العاقبة للمتقين.

وهؤلاء هم الذين يستطيعون أن يتجاوزوا الحاضر المليء بالمعاناة الى المستقبل المليء بالامل، ان نظرة الداعية الى المسيرة نظرة ثاقبة نفاذة تنفذ من معاناة الحاضر الى آفاق المستقبل، لا تحجبها معاناة الحال عن رؤية النصر الالهي للقلة المؤمنة على وجه الارض، وكما كانت الرؤية البشرية المحدودة المدى للمسيرة تورث صاحبها الضعف والخوف واليأس والعجز عن مواصلة الطريق فإن الرؤية الثاقبة البعيدة المدى التي يتمتع بها الداعية تمكنه من مواصلة الطريق وتمنحه الثقة والطمأنينة والقوة والشجاعة والامل، وتنتزع من نفسه الخوف واليأس.

وهذه هي خاصية الرؤية عندما تتجاوز المعاناة الى السنن والقوانين الالهية في الحضارة والتاريخ.

إن الفلاح لو كان ينظر الى عمله من خلال معاناة الحرث والغرس والسقي لترك المزرعة ومضى الى شأنه... ولكنه عندما ينظر الى هذا الجهد الشاق الذي يبذله في المزرعة من خلال سنن الله تعالى... يمضي في عمله دون أن يكل أو يمسه تعب أو لغوب.

ولنعد الى القرآن من جديد فانه معين لا ينضب للدعاة الى اللّه، إن القرآن الكريم يرسم هذه المسيرة الشاقة للدعوة الى اللّه، الساحة حامية بالصراع بين

الحق والباطل ولكن لا من خلال معاناة العاملين، وإنما من خلال سنن الله تعالى في التاريخ، في حتمية النصر للفئة المؤمنة، حتمية الهلاك والسقوط لجبهة الشرك.

وإن القرآن ليحرص على أن يحول نظر الداعية من الحال الى المستقبل ومن المعاناة الى سنن الله.

وذلك من خلال استعراض مسيرة التوحيد والشرك، واستعراض ساحات الصراع بين هاتين الجبهتين ولنستمع الى كلام الله تعالى:

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَـٰدُ﴾.(غافر:٥١)

اجل ليس نصراً فقط يوم يقوم الاشهاد وإنما في الحياة الدنيا ايضاً.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَـٰتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ*فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ*فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَـٰفِرُونَ﴾.(غافر:٨٢-٨٥)

ترى كيف يستعرض القرآن مسيرة الشرك والظلم استعراضاً واسعاً، ويطويها طياً سريعاً، ويعلن بان عاقبتهم كان الخسران والهلاك، وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤون، وان هذه العاقبة لم تكن عن عجز أو ضعف مادي منهم، فقد كانوا اشد من مشركي عصر رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) قوة وآثاراً في -الارض- ومع ذلك فلم تغن عنهم قوتهم شيئاً وادركهم العذاب والهلاك.

ثم يعلن القرآن أن ذلك لم يكن عن صدفة، ولم يحدث عفواً، وإنما هو سنة ثابتة لله تعالى في الذين كفروا وعتوا عن امر ربهم جميعاً من دون استثناء **﴿سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَـٰفِرُونَ﴾**، ثم استمع الى هذه الآيات المباركات من سورة فاطر:

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى

الأمَمِ فلمَّا جاءَهُم نَذيرٌ ما زادَهُم إلاَّ نُفوراً*إستِكباراً في الأرضِ ومَكرَ السَّيِّئ ولا يَحيقُ المَكرُ السَّيِّئُ إلاَّ بِأهلِهِ فَهَل يَنظُرونَ إلاَّ سُنَّتَ الأوَّلينَ فلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَبديلاً ولَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَحويلاً*أوَلَم يَسيروا في الأرضِ فَيَنظُروا كَيفَ كان عَـٰقِبَةُ الَّذينَ مِن قَبلِهِم وكانوا أشَدَّ مِنهُم قُوَّةً وما كانَ اللهُ لِيُعجِزَهُ مِن شَيءٍ في السَّمَـٰوٰتِ ولا في الأرضِ إنَّه كانَ عَليماً قَديراً﴾.(فاطر:٤٢-٤٤)

إنهم نفروا من الانبياء نفوراً لما جاؤوهم استكباراً في الارض ومكر السئ.. ثم يبين القرآن بعد ذلك مباشرة السنة الالهية القائمة في الذين يمكرون مكر السوء **﴿إستِكباراً في الأرضِ ومَكرَ السَّيِّئُ ولا يَحيقُ المَكرُ السَّيِّئُ إلاَّ بِأهلِهِ﴾** ثم يربط القرآن بعد ذلك هذه المسيرة التي تبدأ بالاستكبار والمكر وتنتهي بالمحق والهلاك... بسنن الله تعالى، في تكرار وتأكيد حتى لا يتصور أحد من الطغاة والمتمردين أن اولئك لو حاق بهم مكر السوء فمن الممكن أنه ينفلت هو من دائرة السوء هذه التي تحيط بالظالمين:

«فهل ينظرون الا سنة الاولين

فلن تجد لسنة الله تبديلاً

ولن تجد لسنة الله تحويلاً»

ثم تأتي بعد هذه التأكيدات الثلاثة المتوالية على حاكمية السنن الالهية في حياة الانسان وتاريخه...

دعوة اخرى لاستعراض تاريخ ومسيرة الجاهلية المتمردة على حكم الله وشريعته:

﴿أوَلَم يَسيروا في الأرضِ فَيَنظُروا كَيفَ كانَ عَـٰقِبَةُ الَّذينَ مِن قَبلِهِم وكانوا أشَدَّ مِنهُم قُوَّةً وما كانَ اللهُ لِيُعجِزَه مِن شَيءٍ في السَّمَـٰوٰتِ ولا في الأرضِ﴾.

ثم استمع الى هذه الآيات المباركات من سورة ق:

﴿وكَم أهلَكنا قَبلَهُم مِن قَرنٍ هُم أشَدَّ مِنهُم بَطشاً فَنَقَّبوا في البِلَـٰدِ هَل مِن مَحيصٍ*إنَّ في ذٰلِك لَذِكرَىٰ لِمَن كانَ لَه قَلبٌ أو ألقَى السَّمعَ وهوَ شَهيدٌ*ولَقَد خَلَقنَا السَّمـٰوٰتِ والأرضَ وما بَينَهُما في سِتَّةِ أيَّامٍ وما مَسَّنا مِن لُغوبٍ*فَاصبِرْ عَلىٰ ما يَقولونَ وسَبِّحْ

بِحَمدِ رَبِّكَ قَبلَ طُلوعِ الشَّمسِ وقَبلَ الغُروبِ*ومِنَ اللَّيلِ فَسَبِّحْهُ وأَدبَارَ السُّجودِ﴾.(ق:٣٦-٤٠)

وهو مشهد عجيب تقترن السنن الالهية في التاريخ والحضارة بالسنن الالهية في الكون، وتمتزج فيه السنن الالهية في الكون بسنن الله في المجتمع.

ومن خلال هذه الرؤية الشاملة الحضارية الكونية لسنن الله تعالى يدعو الله تعالى نبيه لمواصلة الطريق، والاستمرار والثبات، ويعلمه امرين، سبق ان ذكرناهما من قبل وهما الصبر والصلاة.

﴿فَاصبِرْ عَلىٰ ما يَقولونَ وسَبِّحْ بِحَمدِ رَبِّكَ قَبلَ طُلوعِ الشَّمسِ وقَبلَ الغُروبِ﴾.

ومن عجب ان الامر بالصبر والصلاة يتكرر كثيراً عبر ذكر الدعوة الى الله تعالى وما واجه الدعاة الى الله من متاعب وعناء في الطريق.

الصبر على تحمل سنن اللّه، وعدم استعجال الامور قبل أوانها، واللجوء والتضرع الى اللّه «الصلاة» ليسد ما في نفوسنا من عجز ونقص في الصبر والاستقامة.

المعاناة سنة الهية لكل اطراف الصراع:

والقرآن عندما يمد نظر الداعية الى البعيد، لينفذ من الحاضر الى المستقبل ومن المعاناة الى آفاق الامل... لا يريد أن يفصله فصلاً كاملاً عن لحظة المعاناة، وإنما يوجّه تصور الداعية وحمله للحظة المعاناة على طريق ذات الشوكة حتى لا تستغرقه المعاناة عن معايشة سنن الله والنظر الى مستقبل الدعوة وعاقبتها.

فيوجه نظره اولاً الى أن هذه المعاناة حقيقة قائمة وامر واقع في كل من المعسكرين، من دون استثناء، وليست هي من خصائص مسيرة الدعوة الى اللّه، وانما المعاناة تشمل المعسكرين جميعاً.

فما دام هناك صراع فهناك معاناة والعناء يتوزع على طرفي الصراع، من دون فرق؛ وليس لاحد من الطرفين حصانة من المعاناة.

﴿ولا تَهِنوا فِي ابْتِغاءِ القَومِ إن تَكونوا تَألَمونَ فَإِنَّهُم يَألَمونَ كَما تَألَمونَ وتَرجونَ مِنَ اللهِ ما لا

يَرجونَ﴾.(النساء:١٠٤)

﴿ولا تَهِنوا ولا تَحزَنوا وأنتُمُ الأعلَونَ إن كُنتُم مُؤمِنينَ*إن يَمسَسكُم قَرحٌ فَقَد مَسَّ القَومَ قَرحٌ مِثلُهُ وتِلكَ الأيَّامُ نُداوِلُها بَينَ النَّاسِ ولِيَعلَمَ اللهُ الَّذينَ ءَامَنوا ويَتَّخِذَ مِنكُم شُهَداءَ واللهُ لا يُحِبُّ الظَّـٰلِمينَ﴾.(آل عمران:١٣٩-١٤٠)

فإن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وإن يكن قد اصابكم قرح فقد اصاب القوم مثله، وتلك ضريبة الصراع والحرب،... وهذه الضريبة تتوزع على كل الاطراف من دون استثناء.

واولئك ينفقون كما تنفقون أنتم، فلابد في الصراع من إنفاق للأموال والبنين والأنفس، ولا يخصكم هذا الانفاق. الا أن هذا الانفاق يعود عليكم بنصر الله في الدنيا وبرحمته الواسعة يوم يقوم الاشهاد، ولا يعود عليهم الا بالحسرة والخيبة.

﴿إنَّ الَّذينَ كَفَروا يُنفِقونَ أموالَهُم لِيَصُدُّوا عَن سَبيلِ اللهِ فَسَيُنفِقونَها ثُمَّ تَكونُ عَلَيهِم حَسرَةً ثُمَّ يُغلَبونَ﴾.(الانفال:٣٦)

التمحيص والتكامل بالمعاناة:

وهذا أولاً...

ويوجه القرآن نظرنا ثانياً الى أن المعاناة هي الاداة التي تتكامل بها شخصية المؤمنين، ويصلب عودهم، وتعلو بها كلمة الله على وجه الارض وفي حياة الانسان. وعبر هذه الآلام والمتاعب والاشواك تعود الحاكمية على وجه الارض لله ولرسوله ولأوليائه.

إن مسيرة المحنة هي مسيرة تكامل الانسان ونموه، وهي مسيرة تكامل الامة ونموها. وإن الانسان ليحب -اذا ارجع اليه امر الاختيار- الطريق غير ذات الشوكة، والعبور من الممرات والطرق الآمنة المحفوفة بالعافية في طريقه الى الله تعالى، ويحب أن ينال الغاية من ايسر الطرق والنصر بأيسر الاسباب دون أن تشوكه شوكة أو تنتابه محنة... ولكن الله تعالى وهو العليم بما يصلح عباده ويفسدهم يعلم أن تكامل الانسان افراداً وجماعات وامماً لا يتم الا عبر طريق المحنة، وأن تحقيق سيادة كلمة الله على

وجه الارض لا يتم الا عبر هذه المعاناة الطويلة.

ولقد كان المسلمون عند الخروج الى موقعة بدر للغارة على قافلة قريش التجارية يتمنون أن يعودوا من بدر بالغنيمة الباردة وبالمال والسلطان والقوة، دون أن يمسهم تعب أو يصيبهم قرح فعلّمهم الله تعالى أنهم لا ينالون ما يريده الله تعالى لهم من تحقيق السيادة والسلطان لهذا الدين على وجه الارض والقضاء على سلطان الباطل دون ان يجتازوا طريق ذات الشوكة الى اللّه.

﴿وإذ يَعِدُكُمُ اللهُ إحدَى الطَّائِفَتَينِ أنَّها لَكُم وتَوَدّونَ أنَّ غَيرَ ذاتِ الشَّوكَةِ تَكونُ لَكُم ويُريدُ اللهُ أن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِ ويَقطَعَ دابِرَ الكَـٰفِرينَ*لِيُحِقَّ الحَقَّ ويُبطِلَ البَـٰطِلَ ولَو كَرِهَ المُجرِمونَ﴾.(الانفال:٧-٨)

ويذكر القرآن المسلمين بعد معركة أحد أن القرح الذي يصيبهم في طريق الدعوة الى الله لابد منه في تمحيصهم وتطهيرهم وتزكيتهم. كما لابد منه في محق الاخرين... ومن غير هذه القروح لا يتم التمحيص والتزكية في الجماعة المؤمنة كما لا يتم المحق والهلاك والسقوط لمعسكر الكفر:

﴿إن يَمسَسكُم قَرحٌ فَقَد مَسَّ القَومَ قَرحٌ مِثلُهُ وتِلكَ الأيَّامُ نُداوِلُها بَينَ النَّاسِ ولِيَعلَمَ اللهُ الَّذينَ ءَامَنوا ويَتَّخِذَ مِنكُم شُهَداءَ واللهُ لا يُحِبُّ الظَّـٰلِمينَ*ولِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذينَ ءَامَنوا ويَمحَقَ الكَـٰفِرينَ﴾.(آل عمران:١٤٠-١٤١)

وإن التمحيص ليتم في صورتين:

في خط عمودي في تصفية وتمحيص المؤمنين فأن الابتلاءات والمحن والشدائد تصفي الانسان وتهذبه من كل الشوائب ولا يوجد في حياة الانسان عامل افضل من عامل الابتلاء في تصفية وتهذيب الذات وتخليصها من سلطان الهوى ومن حب الدنيا.

وتصفية وتمحيص آخر في الخط العرضي في داخل المجتمع وذلك بتخليص المجتمع الاسلامي من العناصر الضعيفة والمنافقة التي تواكب مسيرة المجتمع الاسلامية وحركته الى اللّه.

فان حالة اليسر والرفاه في المجتمع

الاسلامي تجمع حوله الكثير من العناصر الضعيفة والخائرة والمنافقة والانتهازية ومن الطبيعي أن هذا التورم يثقل حركة المجتمع الاسلامي الى الله ويعيق تحركه... فاذا جاء الابتلاء، واشتدت المحنة تساقطت هذه العناصر المعيقة، وتخلصت المسيرة من هذه العناصر المثبطة للحركة والمعيقة لها.

الطريق الى الجنة محفوف بالبلاء:

ثم يذكر القرآن الانسان أن لحظات المعاناة هي الذخيرة التي يدخرها الانسان للقاء اللّه، وهي التي تؤهله للقاء اللّه... فليس يدخل الانسان الجنة دون أن يجتاز طريق ذات الشوكة، ودون أن يتحمل في الله الجهد والعناء، ودون أن يؤذى في الله ويضطهد في اللّه، يصبر على الاذى والاضطهاد في اللّه. فالطريق الى رضوان الله في الجنة والى لقاء الله محفوف بالعناء والفتنة والابتلاء.

﴿أم حَسِبتُم أن تَدخُلوا الجَنَّةَ ولَمَّا يَأتِكُم مَثَلُ الَّذينَ خَلَوْا مِن قَبلِكُم مَسَّتهُمُ البَأساءُ والضَّرَّاءُ وزُلزِلوا حَتَّىٰ يَقولَ الرَّسولُ والَّذينَ ءَامَنوا مَعَه مَتَىٰ نَصرُ اللهِ ألاَ إنَّ نَصرَ اللهِ قَريبٌ﴾.(البقرة:٢١٤)

﴿أم حَسِبتُم أن تَدخُلوا الجَنَّةَ ولَمَّا يَعلَمِ اللهُ الَّذينَ جَـٰهَدوا مِنكُم ويَعلَمَ الصَّـٰبِرينَ﴾.(آل عمران:١٤٣)

﴿ولَنَبلُوَنَّكُم بِشَيءٍ مِنَ الخَوفِ والجوعِ ونَقصٍ مِنَ الأموالِ والأنفُسِ والثَّمَراتِ وبَشِّرِ الصَّـٰبِرينَ*الَّذينَ إذا أصابَتهُم مُصيبَةٌ قالوا إنَّا للهِ وإنَّا إلَيهِ رٰجِعونَ*أولٰئِك عَلَيهِم صَلَوٰتٌ مِن رَبِّهِم ورَحمَةٌ وأولٰئِك هُمُ المُهتَدونَ﴾.(البقرة:١٥٥-١٥٧)

وفي سورة الصف يذكر القرآن المؤمنين بأن الجهاد بالمال والنفس هو الطريق الى غفران الذنوب ومرضاة الله تعالى والدخول الى الجنة، ثم يذكر النصر والفتح بعد ذلك كنتيجة ثانوية للجهاد، اما الغاية الاولى والفائدة الاولى من جهاد النفس والمال فهو مرضاة الله والدخول الى الجنة.

﴿يَـٰأيُّهَا الَّذينَ ءَامَنوا هَل أدُلُّكُم عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجيكُم مِن عَذابٍ أليمٍ*تُؤمِنونَ بِاللهِ ورَسولِهِ

وتُجَـٰهِدونَ في سَبيـلِ اللهِ بـأموالِكُـم وأنفُسِكُـم ذٰلِكُـم خَيـرٌ لَكُـم إن كُنتـُم تَعلَمونَ*يَغفِرْ لَكُم ذُنـوبَكُم ويُدخِلْكُم جَنَّـٰتٍ تَجـري مِن تَحتِهـَا الأنهَـٰرُ ومَسَـٰكِنَ طَيِّبـَةً في جَنَّـٰتِ عَدنٍ ذٰلِـكَ الفَوزُ العَظيمُ*وأُخرَىٰ تُحِبـّونَها نَصرٌ مِـنَ اللهِ وفَتـحٌ قَـريـبٌ وبَشِّـرِ المُؤمِنينَ﴾.(الصف:١٠-١٣)

إن النتيجة الاولـى للجهاد بـالاموال والأنفـس هو الجنـة والجنـة هي الفـوز العظيم... اما الغـاية الثانية وهـي النصر والفتـح فيعبـر القرآن عنـه بـ«واخرى تحبونهـا» وكأنـه فائدة ونتيجـة ثانـوية للجهاد.

وأنظـروا الى هـذه اللوحـة الرئعـة المتـدفقة بـالحياة والحـركة، ولا أقـول اقرأوا وتأملوا كيف يـرسم القرآن مسيرة الانسان الـى الله تعالـى ومرضـاته فـي الجنة من خلال رحلة المعاناة والعذاب.

﴿...ذٰلِـك بِأنَّهـُم لا يُصيبُهُم ظَمـَأٌ ولا نَصَـبٌ ولا مَخمَصَةٌ فـي سَبيـلِ اللهِ ولا يَطـَؤُنَ مَـوطِئاً يَغيـظُ الكُفَّـٰرَ ولا يَنالـونَ مِن عَدُوٍّ نَيـلاً إلاَّ كُتِبَ لَهـُم بِهِ عَمَـلٌ صَـٰـلِحٌ إنَّ اللهَ لا يُضيـعُ أجـرَ المُحسِنينَ*ولا يُنفِقونَ نَفَقـَةً صَغيرَةً ولا كَبيرَةً ولا يَقطَعـونَ وادياً إلاَّ كُتِبَ لَهـُم لِيَجـزِيَهـُمُ اللهُ أحسَنَ مـا كـانـوا يَعمَلونَ﴾.(التوبة:١٢٠-١٢١)

وبهذه الطـريقة يرسـم القرآن دورة المعانـاة في حياة الفـرد المؤمـن والامة المؤمنة، ويعالج مسألة الابتلاء والمعاناة في حياة الانسان، ويـوجه الانسان لفهم الابتلاء وطريقة التعامل معه.

ونعود مـن جديد الـى الحديـث عن سنن الله تعـالى فـي المسيرة وضـرورة وعي ومعـايشة السنـن الالهية فـي هذه الرحلة.

فـلا يجـوز أن تستغرقنـا لحظـات الابتلاءات والمعاناة، وتحجبنـا عن سنن الله في المسيرة. والانســان اذا لم يحسن التصرف ساعة الابتـلاء ولم يعرف كيف يتعـامـل مـع المحـن والابتـلاء تحجبـه المعانـاة عن سنن الله وقـوانين الحـركة، واذا نظر الأنســان الى المسيـرة الكبرى مـن خلال هـذه اللحظـات يغلبه التعب واليأس والخوف ويُؤثـر العافية والحياة الآمنة والـوديعة على السيـر على طـريق ذات الشوكة.

ولكن لا تحجب لحظة المحنة والمعاناة الانسان عن رؤية سنن الله تعالى في المسيرة وعن رؤية المشيئة الالهية في حتمية النصر للقلة المؤمنة... يحول القرآن كثيراً نظر المؤمنين من الحاضر الى الماضي والمستقبل الى الماضي في استعراض اطراف وقصص من هذه المسيرة، والى آفاق المستقبل البعيد في اعطاء الاقضية والاحكام الالهية النهائية في الحضارات والامم والتاريخ وعندما يتزود الداعية بهذه الرؤية النفاذة، الثاقبة، بعيدة المدى يستطيع أن يعبر معاناة الحاضر الى سنن الله العامة فتطمئن قدماه على الطريق، ويربط الله على قلبه، ويثبت للمحنة، ويواجه التحديات بصبر وثبات من دون خوف وجزع. انظروا الى هذه الصورة المستقبلية الرائعة لحتمية النصر والتي تنزل على المسلمين ساعة النكسة والمحنة في احد.

﴿ولا تَهِنوا ولا تَحزَنوا وأنتُمُ الأعلَونَ إن كُنتُم مُؤمِنينَ﴾.(آل عمران:١٣٩)

وقد نقلت المسلمين في أحد، وهم يعيشون مرارة النكسة والمحنة... الى الآفاق البعيدة للمستقبل والى السنن الالهية في حتمية النصر للمؤمنين «إن كانوا مؤمنين»

فتحول «النكسة في نفوسهم الى شعور قوي بالاستعلاء والقوة والثقة المطلقة بتأييد اللّه، ويتحول هذا الشعور في نفوسهم الى تحرك وعمل متصل وعزم على مواصلة الطريق.

وحدة المسيرة وطول النفس في العمل:

٣- وتعميق الاحساس بالوراثة في نفس الانسان يفيد في تحسيس الداعية بوحدة المسيرة وإن هذه المسيرة على امتدادها الطويل ومراحلها الكثيرة فهي مسيرة واحدة يتوارثها الابناء عن الآباء جيلاً بعد جيل، ويتمتع فيها الابناء بما ورثوا من مجد الآباء وجهدهم وعملهم وتراثهم، كما أن عليهم أن يورثوا ابناءهم هذا التراث والمجد.

فإن هذه المسيرة سلسلة واحدة، مهمتها واحدة، ومنطلقها واحد وغايتها واحدة، وخطها واحد، مهما تعددت

حلقـاتهـا... وهــي تشكل فــي التـاريـخ الحضـاري اسرة واحدة بالدقة، وليس من المفروض في الاسرة الـواحدة في مسير التاريـخ أن تتحقق اهـدافها مـرة واحدة، وأن يبلغ كل حلقة من حلقاتها كل اهداف السلسلة وإنما الذي يجـري في مثلها إن يمـهد كل حلقـة من حلقاتها للحلقـة التي تـأتي مـن بعدهـا، وتعـد هده الحلقـات جميعاً للغاية العليا التي تعمل لها، فيشعر كـل عضو فـي هذه المسيـرة أنه حلقـة واحـدة مـن حلقات كثيـرة فـي سلسلـة مباركة ممتدة من آدم (عليه السّلام) الى أن يأذن الله تعالى للدنيا بالإنتهاء.

فيطـول نفس الـداعيـة في العمـل، وطـول النفس مـن اهـم عـوامل الثبـات والنصر. فهو لا يعمل ليقتطف ثمار عمله في حيـاته القصيرة، وإنما يعمـل ضمن سلسلة ممتدة طويلة من العاملين الدعاة الـى اللّه، ويكفيـه أن يجنـي ثمار عملـه الجيل الرابع أو العاشر أو اكثر أو اقل من بعـده وإن الـداعية الـى الله ليحقـق كـل اهـدافه اذا كـان يحصـد أبناؤه أو أبنـاء أبنـائه حصـاد عملـه، كما أنـه هو يجنـي ثمار جهود اسلافه وآبائه.

وليـس كذلـك من يعمـل لغير اللّـه، وعلى غير هذه المسيرة فهو يعمل لنفسه وللحظة المتعـة وليجني ثمـرة عمله فـي خـلال عمره القصيـر، ومن الطبيعـي أن يكون نَفَسُه قصيراً في العمل.

ولقد كنا نقرأ فـي القصص الحكمية القديمة «أن ملكاً مر على شيخ طاعن في السن يغـرس فسيلاً للنخل فوقـف عنده متعجباً يســأله لمـن يغرس هـذا الفسيل وهـو في هـذه الحد مـن العمر فـاجابـه الفلاح الطاعن في السن: أيها الملك غرس آباؤنا فأكلنا ونغرس نحـن ليأكل أبناؤنا فاعجب الملك جوابه... الى آخر القصة».

والامر لكذلك فـي مسيرة الحضارة الالهيـة الموروثـة مـن نـوح وابراهيـم ومـوسى وعيسـى (عليهم السّلام)... أنهـم غرسوا غرسة التوحيد فجنينا ثمار عملهم وجهودهم، ونغرس نحن للاجيال القادمة ليجنوا ثمار عملنا.

فقد اجتبانا الله تعالى جيلاً بعد جيل لرســالته، واودع لـدينا رسـالته نتعـاقب عليها جيلاً بعد جيـل، فيستلمها كل جيل منا من الجيل السابق ليسلمها الى الجيل الذي يأتي من بعده.

وهذا هو الجانب الالهي من هذا الميراث. والى جانب هذا الميراث الالهي فأن الاجيال المتعاقبة على هذا الميراث تتوارث فيما بينها خبرات العمل والدعوة.

فان محتوى الدعوة الى الله تعالى واحد، لا يختلف من جيل الى جيل، ولكن خبرة الدعاة الى الله في الدعوة تتكامل بالتأكيد، عدا من عصمهم الله بالوحي، وكل جيل من الدعاة يورث الجيل الذي يأتي من بعده الى جانب هذا الميراث الالهي خبرته التي اكتسبها من خلال العمل ومعاناة الدعوة الى اللّه. فإن الدعوة الى الله تعالى من اكثر الامور تعقيداً، والانسان الداعية يحتاج الى الكثير من التعقل والفهم والنضج السياسي ومعرفة أساليب التعامل مع الناس ووعي الظروف الاجتماعية المختلفة وطريقة مواجهة الظالمين، وشجاعة المواجهة والاقدام والقدرة على ضبط النفس والعواطف ويحتاج الى المداراة والمرونة والجدية والقوة واللين... يحتاج الى ذلك كله والى غيره من المؤهلات والخبرات ولا يمكن أن تكون هذه المؤهلات والخبرات الضرورية للدعوة والجهاد في جيل واحد، وإنما تتكامل في شخصية الداعية عبر الاجيال وعبر خوض ساحات الصراع والجهاد والمواجهة مع أئمة الكفر والجاهلية. وتساهم هذه الاحداث التي تشكل التاريخ الحضاري والرسالي للانسان في تكوين خبرات ومؤهلات الداعية في ممارسته الدعوة الى الله والجهاد في سبيل اللّه.

ومن المهم جداً أن ينتبه الدعاة الى الله الى الاهمية الحياتية لهذا الميراث الكبير في مجال الدعوة الى اللّه، فلا يغفل أجيال الدعاة قيمة واهمية الخبرة التي اورثها اسلافهم إياهم في مجال الدعوة.

وعلى الدعاة الى الله أن يقرأوا في ـذا المجال بامعان واهتمام قصص الأنبياء في القرآن والحديث وسيرة رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) وسيرة الائمة (عليهم السّلام) ومن والاهم من العلماء العاملين والدعاة الى اللّه، من عباد الله الصالحين.

الامام المهدي «عجل الله فرجه» وارث الأنبياء والمرسلين:

والذي يتابع النصوص الاسلامية الواردة في ظهور الامام المهدي عجل الله فرجه وقيام الدولة الالهية الكبرى في عهده على أنقاض الجاهليات البشرية الواسعة... الذي يتابع هذه النصوص يجد أن دولة الامام المهدي هي الدولة الوارثة لكل القيم والتراث الذي جاء به الأنبياء والمرسلون والائمة (عليهم السّلام).

والحضارة الجديدة التي يقيمها مهدي آل محمد (عليه السّلام) على وجه الارض، ليست سوى امتداد للحضارة الاسلامية التي جاء بها الأنبياء والمرسلون والائمة الهداة (عليهم السّلام)، وعودة لتلك الحضارة الى صلب الحياة الاجتماعية من جديد، وهي ميراث النبي والصالحين.

وكل ما في الامر من جديد في هذا الطور الجديد من الحياة الذي يقيمه الامام المهدي (عليه السّلام) هو النضج والرشد العقلي للانسان في هذه المرحلة من الحياة.

عن ابي خالد الكابلي عن ابي جعفر الباقر (عليه السّلام) قال: اذا قام قائمنا وضع يده على رؤوس العباد فجمع به عقولهم واكمل به اخلاقهم.(٣)

وهذا النص يكشف لنا عن النضج العقلي والاخلاقي الذي يميز المجتمع في هذه المرحلة بعد الصراع العنيف والحاسم بين المعسكر الاسلامي ومعسكر الشرك والنفاق.

وتحتمل أن يكون مرور الانسان بمراحل التاريخ المختلفة واختيار الالوان المختلفة من الأنظمة والحضارات وفشل وسقوط هذه الحضارات والأنظمة الجاهلية نظاماً بعد نظام وحضارة بعد حضارة من أسباب هذا النضج العقلي والاخلاقي الذي يشير اليه النص الآنف.

وروي في هذا المعنى«أن دولتنا آخر الدول، ولم يبق اهل بيت لهم دولة الا ملكوا قبلنا لئلا يقولوا اذا رأوا سيرتنا اذا ملكنا سرنا بمثل سيرة هؤلاء، وهو قول الله تعالى: ﴿والعَـٰقِبَةُ لِلمُتَّقِينَ﴾.(٤)

فهذه الدولة اذن بالاضافة الى عصمة قيادتها تستجمع خلاصة تجارب ووعي ونضج هذه المسيرة الربانية والسائرين على هذا الطريق.

وورد في نص آخر مـا يتضمن هذا النضـج العقلي بصيغة رمـزية ومضمون هذا النص:

إن ما استطاع الانسـان أن يتلقاه من الأنبياء(عليهم السّلام) حرفان من العلم فقط فاذا ظهر قائم آل محمد (عليه السّلام) اظهر للناس خمساً وعشرين حـرفاً فيبثها في النـاس وضـم اليـه الحـرفيـن، فيكـون مجموع ذلك سبعاً وعشرين حرفاً.(٥)

ولا شك أن النص بهذه الصورة من النصوص الـرمزية التي يحتـاج تفسيره الى تذوق النص من الناحية الادبية.

وسبعة وعشرون هي العـدد الكامل لـلاحـرف العـربية وعليـه فـإن سبعـة وعشـرين حـرفاً يعنـي كمـال المعرفـة والعلم، وكمال النضـج العقلي.

ومارزق الناس مـن النضـج العقلي قبل هذا الطور الجديد من الحياة لا يزيد علـى جـزئيـن فقـط مـن أحـرف العلـم والمعـرفـة امـا بقيـة أجـزاء المعـرفـة والنضـج العقلي فلا تتـم للانسان الا في هـذه المرحلـة الجـديـدة من الحضـارة والحياة فـى عهد المهـدي من آل محمـد (عليه السّلام).

وفـي مثـل هذه المرحلة مـن النضـج العقلـي والفكري والاخـلاقـي يتم نقـل ميراثين الى المجتمع الاسـلامي على يد الامام المهدي عجل الله فرجه.

ميراث القوة والسلطان من الظالمين والجبابرة وميراث العلـم والحكمة والقيم من الأنبياء والمرسليـن والصالحين. عن الميراث الاول يقول اميـر المؤمنين (عليه السّلام) «لتعطفن الدنيا علينا بعد شماسـها عطف الضروس على ولـدها» وتلا عقيب ذلـك: ﴿ونـُريـدُ أن نَمُنَّ عَلَـى الَّـذيـنَ استُضـعِفوا في الأرضِ ونَجعَلَهُـم أئِمَّةً ونَجعَلَهُمُ الوارِثينَ﴾.(٦)

يقول محمـد عبده فـي شرح هـذه الفقرة«الشماس -بالكسـر- امتناع ظهر الفرس مـن الركوب، والضـروس -بفتح فضم- النـاقة السيئة تعض حـالبها: اي أن الدنيا ستنقاد لنا بعد جموحها، وتلين بعد خشـونتها، كما تنعطـف الناقـة على ولدها، وإن أبت على الحالب»

واقبـال الـدنيـا هـو اقبـال القـوة والسلطان والمال، وهو ميراث الصالحين من الظالمين واستشهاد الامام(عليه السّلام) بقوله تعالى:

﴿ونُـريـدُ أن نَمُـنَّ عَلَـى الَّـذيـنَ استُضعِفوا في الأرضِ ونَجعَلَهُـم أئِمَّةً ونَجعَلَهُمُ الوارِثينَ﴾ يؤكد هذا المعنى.

ويقول (عليه السّلام): «وتخرج له الارض من أفاليذ اكبادها وتلقي اليه سلماً مقاليدها»[٧] قال الشيخ محمد عبده في شرح هذه الفقرة: وهذه كناية عما يظهر لمن يقوم بالامر من كنوز الارض.

والميراث الآخر في هذه الحضارة التي يقيمها المهدي من آل محمد هو ميراث الأنبياء والمرسلين (عليهم السّلام). وهو الميراث المعنوي في هذه الدولة فيما كان الميراث الاول هو الميراث المادي.

عن ابي خالد الكابلي عن ابي جعفر الباقر (عليه السّلام) قال ابو جعفر: والله لكأني أنظر الى القائم (عليه السّلام) وقد اسند ظهره الى الحجر ثم ينشد الله حقه ثم يقول:

أيها الناس من يحاجني في الله فأنا اولى بالله.

أيها الناس من يحاجني في آدم فأنا أولى بآدم.

أيها الناس من يحاجني في نوح فأنا أولى بنوح.

أيها الناس من يحاجني في ابراهيم فأنا اولى بابراهيم.

أيها الناس من يحاجني في موسى فأنا اولى بموسى.

أيها الناس من يحاجني في عيسى فأنا اولى بعيسى.

أيها الناس من يحاجني في محمد (صلّى الله عليه وآله وسلّم) فأنا اولى بمحمد (صلّى الله عليه وآله وسلّم).[٨] ايها الناس من يحاجني في كتاب الله فأنا اولى بكتاب اللّه.

وروى حريز عن ابي عبد اللّه (عليه السّلام) قال: لن تذهب الدنيا حتى يخرج رجل منا اهل البيت يحكم بحكم داود وآل داود، لا يسأل الناس بينة.

ومن قراءة هذه النصوص وامثالها نلمس بصورة دقيقة العلاقة الوثيقة التي تربط الدولة والحضارة التي يقيمها المهدي من آل محمد (عليه السّلام) بالاصول والقيم والمعارف والحكم التي جاء بها الأنبياء (عليهم السّلام) من قبل.

وبذلك يكون الامام المهدي عجل الله فرجه بقية حجج الله وخليفة أنبياء اللّه.

يقول امير المؤمنين (عليه السّلام) كما ورد

في نهج البلاغة في الامام المهدي (عليه السّلام):

«قد لبس للحكمة جنتها، واخذها بجميع ادبها، من الاقبال عليها، والمعرفة بها، والتفرغ لها... وضرب بعسيب ذنبه والصق الارض بجرانه، بقية من بقايا حجته، خليفة من خلائف أنبيائه».(٩)

فالامام –اذن– بقية من بقايا حجج الله وخليفة أنبيائه، ودولته التي يقيمها هي ميراث أنبياء اللّه.

الهوامش

(١) سفينة البحار للشيخ عباس القمي مادة فوم٢/٥٥

(٢) بحار الانوار٥٢/٣٣٦ح٧١.

(٣) منتخب الاثر:٣٠٨ عن الارشاد للمفيد.

(٤) بحار الانوار٥٢/٣٣٦.

(٥) نهج البلاغة٣ / ٢٠٠شرح محمد عبده تحقيق محي الدين عبد الحميد حكمة رقم:٢٠٩.

(٦) نهج البلاغة:٢ خطبة ١٣٤.

(٧) بحارالأنوار٥٢/٣١٥و٣٤١ وراجع تفسير العياشي٢/ ٥٦.

(٨) بحارالأنوار٥٢/٣١٩.

(٩) نهج البلاغة٢/١٣٠ شرح محمد عبده تحقيق محي الدين عبد الحميد.

* * *

فهم العترة لمعارف القرآن: حقائق ومميزات

الشيخ جعفر الهادي

ربما يكون من نافلة القول أنّ الكتاب العزيز قد أُنزل لهداية البشرية جمعاء، ولا يمكن لأحد أنْ يدّعي أنَّ القرآن حُكرة على جماعة دون جماعة، وقوم دون قوم، وفريق دون آخر، فهو بيان للناس وهدىً وبلاغ لهم، وهو بالتالي نذير للبشر وذكر للعالمين (آل عمران: ١٣٨، البقرة: ١٨٥، المدثر: ٣٦، ابراهيم: ٥٢، يوسف: ١٠٤).

خمس حقائق:

إلّا أنَّ هناك حقائق يقرّرُها القرآن الكريم لا يمكن تجاهلها وهي:

١ - انَّ القرآن الكريم لم ينزل لعصر دون عصر، ولا لزمان دون زمان بل هو لجميع الأزمنة والعصور قال تعالى: **(وَأُوحيَ إليَّ هذا القُرآن لِا نذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ)**[1].

هذا مضافاً إلى أنّه معجزة رسول الاسلام الخالدة أولاً، ودستور الاسلام الاساسي ثانياً.

وهذا يقتضي ان يحافظ هذا الكتاب على طراوته، وجدته، وعطائه وعمقه، وهذا هو طبيعة القرآن، التي تميّزه على بقية الكتب السماوية، وأعني سمة الخلود وطابع الابديّة.

وإلى هذا أشار الإمام محمد بن علي الباقر[2] عليه السلام إذ يقول: «إنَّ القُرآن حيّ لا يَمُوتُ والآية حيّة لا تَموتُ، فَلَو كانَت الآية إذا نزلتْ في الأقوام وماتوا ماتَت الآية لماتَ القرآنُ، ولكن هي جارية في الباقين كما جرت في الماضين»[3].

والى هذا أيضاً أشار الامام جعفر الصادق[4] عليه السلام حيث يقول: «إنَّ القرآن حيٌ لا يموتُ، والآية حَيَّة كما يجري الليلُ والنهارُ وكما تجري الشمس والقمرُ، يجري على آخِرنا كما يجري على أوّلنا»[5].

ويقول عليه السلام أيضاً: «إنَّ الله تباركَ وَتعالى لَمْ يجعَلْهُ (أيّ القرآن) لزمانٍ دونَ زمانٍ ولا لناس دونَ ناسٍ، فهو في كُلِّ زمانٍ جديدٍ عندَ كلِّ قومٍ غضٌ إلى يومِ القيامة»[6].

كما وأشار إلى هذه الحقيقة الامام زينُ العابدين[7] عليه السلام حيث يقول: «إنَّ الله تعالى علمَ أنه يكون في آخر الزمان أقوامٌ متعمّقونَ فأنزل اللهُ تعالى **(قل هوَ اللهُ أحد. الله الصمَد)** والآيات الأُولى من سورة الحديدِ إلى قوله **(وهوَ عليمٌ بذاتِ الصّدور)** فمن رام ما وراء ذلك فقدْ **هَلَكَ**[8].

٢ ـ انّ القرآن الكريم وان كان خطاباً موجهاً إلى البشرية كافة إلّا أنه كما تختلف فئاتُ البشر وأفرادهم في مستوى الْفَهْم والتنبّه، والانتقال والذكاء، تختلفُ وتتفاوت طرائِقُ الإفهام والإلقاء القرآني.. من هنا كانَ للقرآن الكريم ظهر وبطن، ومحكم ومتشابه، واشارات ولطائف.

«قال الامام جعفرُ الصادق عليه السلام: «كتابُ الله عزوجلّ على أربعة أشياءٍ: على الْعبارة، والإشارة، واللطائف، والحقائق، فالعبارة للعوّام، والإشارة للخواصّ، واللطائف للأولياء والحقائق للأنبياء»[9].

٣ ـ انّ القرآن الكريم رغم كونه نَزلَ باللغة العربية، وجاء مراعياً لكل ضوابطها وقواعدها في عصر بلغ من البلاغة والفصاحة القمة، إلّا أن القرآنَ نَفسَه عندما يصف مهمّة الرسول العظيم(ص) لا يكتفي بالقول بأنّ مهمته تجاه هذا الكتاب هي فقط مجرد تلاوة آياته، وقراءة نصّه على مسامع الناس، بل يصفه بأنه «يعلّمهم الكتاب»[10].

ومن الواضح أنّ التلاوة غير التعليم، فالتلاوة هي القراءة، قال

الزمخشري في الكشاف عند تفسير قول الله تعالى (**يَتْلُو عَلَيهِمْ آياته**)[١١]: يقرؤها عليهم مع كونه أُميّاً لم تُعهد منه قراءة، ولم يُعرَف بتعلّم، وقراءة أُمّي بغير تعلّم آية بينة[١٢].

بينما يقول العلامة الطباطبائي عند تفسير قوله «ويعلّمهم الكتاب» في نفس الآية: وتعليم الكتاب بيان ألفاظ آياته وتفسير ما أُشكل من ذلك، ويقابله تعليم الحكمة وهي المعارف الحقيقية التي يتضمنها القرآن[١٣].

وهذا هو الصحيح والحق لاقتضاء العطف المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه وإلّا لَكان العطفُ لغواً، والكتاب العزيز منزّه عن اللغو والعبثيّة.

٤ ـ إنّ القرآن الكريم فيه كلُ شيء، فهو تبيان لكلّ شيء كما يصرح بذلك نَفسهُ حيث يقول تعالى: (**ونَزَّلْنا عَلَيكَ الكِتابَ تِبْياناً لِكلِّ شيء**).

وقد صرح بذلك أهلُ البيت في أحاديثهم أيضاً قال الامامُ محمدُ بن علي الباقر عليه السلام: «انّ الله لم يَدَعْ شَيئاً تحتاجُ إلَيْهِ الأُمَّةُ إلى يوم القيامَة إلّا أنْزَلَهُ في كتابِهِ وَبَيَّنَهُ لِرَسُولِه، وَجَعَلَ لِكلِّ شيءٍ حَدّاً، وَجَعَلَ عَلَيْهِ دَلِيْلاً يَدُلُّ عَلَيهِ»[١٤].

وقال ابنهُ الامامُ جعفرُ الصادقُ عليه السلام: «انّ الله أنزلَ في القُرآن تِبيان كلِّ شيء، حتّى واللهِ ما تركَ اللهُ شَيْئاً يحتاجُ العباد إليه إلّا بيّنَهُ للناسِ حَتى لا يَستطيعَ عَبْدٌ يَقُولُ: لَوْ كانَ هذا نَزَلَ في القرآن، إلّا وَقَدْ أنْزَلَ اللهُ فيه»[١٥].

وحتى إن الامام جعفر الصادق(ع) صرّح بأنَّ هناك أُصولاً طرحَت في القرآن يُرجَعُ إليها لمعرفة ما يستجدّ من الامور ويتطلّب حُكما إلهياً قرآنياً قال: «ما مِنْ شَيءٍ يَخْتَلِفُ فيهِ إثنان إلّا وَلَهُ أصلٌ في كتابِ الله»[١٦].

وهذا كلّه يعني أنّ القرآن يتضمَّن كلَّ ما يحتاج إليه الناسُ في شتى مناحي حياتهم الفردية، والاجتماعية، الاقتصادية والسياسية، والفكرية... في حين لا نرى في القرآن ذلك، فرغم أنّ القرآن ينطوي على الكثير من الاحكام، فإننا نفتقد فيه الكثير من الاحكام ظاهراً.

إنَّ كون القرآن هو الدستور الاساسي، والمصدر الاول والمصان من ايّ تغيير ـ حسب اتفاق كل المسلمين ـ يقتضى أن يكون المرجَع في جميع الأحكام

والأفكار الإسلامية، ولكننا مع ذلك لا نجد الكثير من الأحكام فيه، وهذا هو ما عاناه الصحابة بعد رسول الله(ص) عندما واجهوا طائفة من المشكلات الطارئة والمسائل المستحدثة، والقضايا المتجدّدة ولم يجدوا تفسيرها أو تفصيلها في السنة الشريفة، فتحيروا واضطربوا، رغم تصريح القرآن ـ كما اسلفنا ـ بانه تبيانٌ لكل شيء، ورغم تصريحه أيضاً بانّ الله اكمل دينه واتمّ نعمته.

فقد أخرج أئمةُ الحديث بإسناد صحيح رجاله ثقاة عن الشعبي قال سئل أبو بكر رضى الله عنه عن الكلالة؟ فقال: إنّي سأقول فيها برأيي فإنْ يكُ صوابا فمِن الله، وإن يكُ خطأً فمنّي ومن الشيطان، والله ورسوله بريئانِ منه، أراه ما خلا الولدَ والوالدَ، فلما استخلفَ عمر رضى الله عنه قال: اني لا ستحيي الله ان اردّ شيئاً قاله ابو بكر[١٧]

ومن اللازم قوله أن أبا بكر كان قبل هذا يرى أن الكلالة من لا ولد له خاصة، وكان يشاركه في رأيه هذا عمر بن الخطاب ثم رجعا عنه إلى ما مرّ، ثم اختلفا فيها. قال ابن عباس: كنت آخر الناس عهداً بعمر بن الخطاب قال: اختلفتُ أنا وابو بكر في الكلالة والقولُ ما قلت[١٨].

واخرج الحافظان ابن أبي حاتم والبيهقي عن الدُئلي انّ عمر بن الخطاب رُفعَت اليه امرأة وَلَدَتْ لستة فهمّ برجمها، فبلغ ذلك علياً فقال: ليس عليها رجم، فبلغ ذلك عمر رضى الله عنه فارسل اليه فسأله فقال: قال الله تعالى: **(والوالداتُ يُرضعنَ أولادَهنَّ حَولينِ كاملَينِ)** وقال **(وَفِصالُهُ ثلاثونَ شَهراً)** فستةُ أشهر حمله وحولان، فذلك ثلاثون شهراً، فخلّى عنها[١٩].

وأخرج الامام مالك في الموطّأ عن الحفاظ عن بعجة بن عبد الله الجهني قال: تزوَّجَ رجلٌ منّا امرأةً من جهينة فولَدَت له تماماً لستة أشهر فانطلق زوجُها إلى عثمان فأمرَ بها أن ترجم فبلغَ ذلك عليّا رضي الله عنها فأتاه فقال: ما تصنع؟ ليس ذلك عليها قال الله تبارك وتعالى **(وَحَمْلُهُ وفِصالُهُ ثلاثونَ شَهراً)** وقال: **(وَالوالِداتُ يُرضِعْنَ أوْلادَهُنَّ حَولينِ كامِلينْ)**. فالرضاعة أربعة وعشرون شهراً والحمل ستة أشهر. فقال عثمان: والله ما فطِنتُ لهذا.

فأمر بها عثمان أن تردَّ فوجدت قد

رُجمت، وكان من قولها لأختها: يا أُخيّة لا تحزني فوَالله ما كشف فرجي أحدٌ قط غيره.

قال: فشبّ الغلامُ بعدُ فأعترف الرجلُ به وكان أشبهَ الناسِ به.

قال: فرأيت الرَجلُ بعدُ يتساقط عضواً عضواً على فراشه[٢٠].

إنّ هذه القضايا وامثالها وهي كثيرة يعرفُها من يرجع الى كتب الحديث والتفسير والفقه والتاريخ تكشف عن أنّ القرآن وحدَه ليس كافياً بألفاظه وكلماته في إفادة الاحكام الالهية الكليّة والجزئيّة وكذا جميع المعارف الدينية من دون تعليم النبي(ص) بمعنى بيان ألفاظ آيات القرآن وتفسير ما أُشكل من ذلك، ولو كان كافياً لكفى أن تقتصر مهمة رسول الله(ص) على تلاوة الكتاب دون تعليمه.

ولهذا قرن الله طاعة النبي(ص) في ما يعطيه من تفسيرات وبيانات في هذا المجال خاصه وغيره عامة، بطاعته، فيقول سبحانه: **(وأطيعُوا الله واطيعُوا الرسُول)**[٢١].

٥ ـ ان القرآن نفسه يصرح في اكثر من آية بان عِلْمَ طائفة من الكتب السماوية قد اودع عند بعض الأشخاص من الأولياء الأبرار من غير الانبياء قال تعالى: **(وَقالَ الّذي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتاب)**[٢٢].

بل وصرّح القرآن الكريم بأنّ عِلْمَ القرآن الكريم أُودِعَ عند شخص، بل وأُورثَ جماعةً خاصةً مصطفاة. قال تعالى: **(قُلْ كفى بالله شَهيداً بَيني وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلمُ الْكِتاب)**[٢٣] وقال تعالى: **(وَأورثْنا الْكِتابَ الّذينَ أصطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا)**[٢٤].

وقد جاء في روايات مرويّة عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنه سمّى المعنيّين بهذه الآيات.

فعن أبي سعيد الخُدري رضى الله عنه قال سألتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية: **(الّذي عِندَه عِلمٌ مِنَ الْكِتاب)** قال: ذلك وزير أخي سليمان بن داود عليه السلام (وهو آصف بن برخيا) وسألته عن قول الله عزوجل: **(قُل كفى بالله شهيداً بَيْني وَبَينكم ومَن عندَهُ عِلمُ الكِتاب)** قال: ذاكَ أخي عليُّ بن أبي طالب[٢٥]

والجديد بالذكر هنا أن هذه الآية ربما فُسِّرت بعبدالله بن سلام، وقد سئِل بعض التابعين عن ذلك، فنفى كون المراد

عبدالله بن سلام مستدلاً بأن السورة مكيّة، والحال أن عبدالله بن سلام من اليهود الذين أسْلموا في المدينة.

فقد كتب العلامةُ جلالُ الدين السيوطي في كتابه المعروف: «الإتقان في عُلُوم القرآن» قال سعيدُ بن منصور في سننه حدّثنا أبو عُوانةُ عن أبي بشر قال سألت سعيدَ بن جبير عن قوله تعالى: **(وَمَن عِنْدَهُ عِلْمُ الكِتابِ)** أهو عبدالله بن سلام؟ فقال: كيف وهذه السورة مكية[٢٦].

ثم إنّ أهلَ البيت المقطوع بصدقهم فسَّروا الآيةَ الأخيرة: **(وَأَوْرَثْنا الكِتابَ الّذِينَ اصْطَفَيْنا مِن عِبادِنا)** بأنفسهم، من ذلك قول الإمام الكاظم موسىَ بن جعفر[٢٧] عليه السلام في ذيل هذه الآية: نحنُ اصْطَفانا اللهُ جلّ اسمُه فَوَرّثَنا هذا الكتابَ الذي فيهِ كُلُّ شَيء[٢٨].

على أنّ القرآن الكريم يصرح بأن آياته على صنفين محكمات ومتشابهات قال تعالى: **(هُوَ الّذِي أنْزَلَ عَلَيْكَ الكِتابَ مِنهُ آياتٌ محكماتٌ هُنَّ أُمُّ الكتابِ وَأُخَرَ مَتَشابِهاتٌ فأمّا الّذينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتبعُونَ ما تَشابَهَ منه ابتِغاءَ الفتنَةِ وابتغاءَ تأويلِهِ وَما يَعْلَمُ تأويلهُ إلاّ اللهُ والراسخون في العِلْمِ يَقُولون آمنّا به كُلّ من عِند ربّنا وما يذّكَرُ إلاّ أُولُوا الألباب)**[٢٩].

فمن هم الراسخون في العلم الذين يعلمون تأويل ما تشابَه من القرآن؟

لقد فسّر أهل البيت الصادقون الطاهرون - باعتراف الجميع - هذه الجملة بأنفسِهِمْ بدءاً من رسول الله صلى الله عليه وآله.

قال الامامُ علي بن أبي طالب (ع): «.. ثم انّ الله جل ذكره قسّم ثلاثة اقسام فجعل قسْماً منه يعرفُه العالِمُ والجاهلُ، وقسماً لا يعرفُه الاّ مَن صفا ذهنُه ولَطف حِسُّهُ وَصَحّ تمييزه ممن شرح اللهُ صدره للاسلام، وقسماً لَا يعرفُه إلاّ الله وأنبياؤه والراسخون في العلم، وانّما فعَلَ ذلك لئلا يدعي أهلُ الباطل من المستولين على ميراث رسول الله (صلى الله عليه وآله) من عِلمِ الكتابِ ما لم يَجْعَله الله لهم، وليقودَهم الاضطرارُ إلى الايتمار لمن ولاّه أمرَهم، فأستكبَروا عن طاعَتِه تعزّزاً وافتراء على الله، واغتراراً بكثرة مَن ظاهَرَهم وعاوَنهم وعانَد الله جل اسمهُ ورسولَه (صلى الله عليه وآله)[٣٠].

وعن الامام الباقر (عليه السلام): انّ رسـولَ الله صلى الله عليه وآله أفضلُ الراسخين في العِلم فقد عُلّمَ جميعُ ما أنزلَ اللهُ من التنـزيل، وما كان الله لينزّل عليه شيئاً لم يعلّمه التأويل، وأوصياؤه من بعده يَعْلَمونه»[٣١].

وعـن الامـام الصـادق (علـيـه السـلام) قال: نحن الراسخون في العلم ونحن نعلم تأويله»[٣٢].

وفي رواية أُخرى عنه عليه السلام ايضـاً قال: «الراسخـونَ في العلم أمـير المؤمنين والائمة من بعده عليهم السلام»[٣٣].

ومـن حسـن الحـظ ان علمـاء المسلمـين الأوائـل أدركـوا هذه الحقيقة الساطعة واعترفوا بها بشجاعة وصدق لما لمسـوه ووجدوه من علمٍ غزير بكتاب الله لدى أهـل البـيـت سلام الله عليهم وفي مقـدمتهم سيّـد العتـرة النبوية الطاهرة الامام علي بن أبي طالب عليه السلام.

فقـد كتب العـلامـة جلالُ الدين السيوطي في كتابه القيم (الاتقان في علوم القرآن): أما الخلفاء فاكثر مَن رُوِيَ عنه منـهم عليٌّ بن ابي طالب، والروايـة عن الثلاثة نزره جداً وكان السبب في ذلك تقدّمُ وفـاتِهم، كمـا ان ذلك هو السبب في قلة رواية أبي بكر (رض) للحديث، ولا أحفظُ عن أبي بكـر (رض) في التفسير الا آثاراً قليلة جدّاً لا تكاد تجاوز العشرة، وأمّا عَليٌّ فرُوِيَ عنه الكثير، وقد روى معمر عن وهب بن عبد الله عن أبي الطفيل قال: شهدتُ عليّـاً يخطب وهو يقول: سَلوني فو الله لا تسألوني عن شيء ألّا أخبرتكم، وسَلوني عن كتابِ الله فو اللهِ ما مِن آية إلّا وانا أعلمُ أبليلٍ نزلتْ أم بنهارٍ؟ أمْ في سَهلٍ أمْ في جبل.

وأخـرج أبو نعيم في الحلية (حلية الاولياء) عن ابن مسعود قال: انّ القرآن أُنزل على سبعة أحرف، ما منها حرفُ إلّا وله ظهـر وبـطن، وإنّ عليَ بن أبي طالب عنده منه الظاهرُ والباطنُ.

وأخرج أيضاً من طريق ابي بكر بن عياش عن نصير بن سليمان الأحمسي عن أبيه عن عليّ قال واللهِ ما نزلت آيةُ إلّا وقد عَلِمتُ فيمَ أُنزلَت وأين أُنزلَت؟ إنَّ ربي وَهَبَ لي قَلباً عَقولاً وَلِساناً سَئولاً.

ثم قال عن ابـن مسـعـود وهـي الشخصية البارزة الثانية التي اشتهرت

بالتفسير. وأما ابن مسعود فرَوِيَ عنه اكثَرَ ما رُوِيَ عن عليّ[٣٤].

ولنا ملاحظة على ما قاله العلامة السيوطي حول سبب قلة الرواية عن الخلفاء الثلاثة في مجال التفسير وانه تقدّم وفاتهم. فالحق أنّه ليس هذا هو السبب لأن عليّاً لم يعش اكثر مما عاشوا حتى آخرهم إلاّ خمس سنوات قضى اكثرها في الحروب، ثم إن الخلفاء الثلاثة مَلَكوا الأمرَ لمدة ما يقرب مجموعة من خمسة وعشرين عاماً، وكانوا في هذه المدة كلها مرجَع المسلمين داخلاً وخارجاً، فكانت دواعي تفسير القرآن من قِبَلِهِمْ كثيرة جداً، فالحجة المذكورة غير تامة، خاصة اذا اخذنا بنظر الاعتبار عمليات التعتيم على ما صدر عن الامام علي في ذلك العهد والعهود اللاحقة.

إنّما السبب الحقيقي هو قلّة معلوماتهم التفسيرية، وهو أمر تدل عليه شواهد تاريخية كثيرة لسنا الآن بصددها[٣٥]، اذ ليس الهدف هنا إلاّ بيان مدى علم العترة النبوية الطاهرة بالكتاب.. وأنه كان لهم مركز الصدارة في هذا المجال، بل لا يمكن الاستغناءُ عنهم. وهو مقتضى حديث الثقلين المتواتر[٣٦] الذي صرّح فيه رسولُ الاسلام بالتصاق العترة بالكتاب والكتاب بالعترة، وتوقف النجاة من الضلال على التمسُّك بهما معاً، وهذا لا يعني إلاّ أنَّ الاخذ بالقرآن من دون تفسير العترة مرفوض حسب هذا الحديث المتواتر سنداً ومتناً.

بل ان الشواهد الكثيرة المبثوثة في كتب الحديث والتفسير والتاريخ والكلام تشهد برمتها إنّ لفهم العترة النبوية وتفسيرهم لكتابِ الله مميزات عديدة تزيد من مصداقيتها لهذه المرجعية إلى جانب مرجعيّة القرآن، واليك بعض هذه المميزات.

مميزات هامة في فهم العترة للكتاب

إنّ فهمَ العترة لكتاب الله يتّسم بمميّزات توجب ركون النفس اليه، كما تجعله متميزاً على فهم الآخرين لهذا الكتاب العظيم. ونكتفي هنا بذكر أبرز هذه المميّزات:

١ ـ الأصالة:

إنّ آوّل ما يتميزُ به فهمُ أهلُ البيت عليهم السلام لكتابِ الله هو الأصالة، وتتمثل هذه الاصالةُ في الدرجة الاولى في

أنّ أحــاديثهم تنتهي إلى جدهم رســول الله(ص) وتتصــل به عبـر التوارث الذي انتقل به العلمُ من الآباء إلى الابناء، ولا غرو فهم أهله، وذريته، وآله، وورثة علمه بصريح قوله، ونص عبادته.

إن إتــصــال هذه الثلّة الطاهرة برسول الله(ص) عبر الآباء والأجداد من دون دخول الغرباء في هذا السند يضفي على أحاديثهم قيمةً كبرى، ومن شأنه ان يجعل المرء يطمئن إلى أصالة أحاديثهم، واستنادهم الى قاعدة صلبة.

عن جابر بن عبدالله الانصاري قال قلت لابي جعفر (الباقر) عليه السلام: إذا حدّثتني بحديث فأسنِدْهُ لي، فقال: حَدَثني أبي، عَنْ جدّي، عَن رسولِ الله عن جبرئيل عن الله تبارك وتعالى، وكلّما أُحَدّثُكَ بهذا الاسناد، (وقال:) لحديثٌ واحدٌ تأخذهُ عن صادق خيرٌ لَكَ من الدنيا وما فيها(٣٧)

وعن حفص بن البختري قال قلت: لابي عبدالله الصادق عليه السلام : نسمع الحديثَ منك فلا أدري منكَ سماعةُ أو مِن أبيك، فقال: ما سمعته مِنّي فأروِهِ عن ابي، وما سمعتَه فأروه عن رسولِ الله (صلى الله عليه وآله)(٣٨).

إنّ المـرءَ وهو يأخذ تفسيره لكتاب الله من عترة النبي(ص) ليشعر بأنه يأخذ من الينابيع الأصيلة لا الشطوط، ويقتبس من المشكاة لا الشموع، وهو بالتالي ينطلق من قاعـدة الوحي الخـالص، وينهل من معـين العلم المـوروث، وليس من منطلق الاهواء والأمزجة وهذا أمر يتجلّى بوضوح لدى المقايسة والمقارنة بين عطاء العترة، وعطاء غيرهم، وبين تفسيرهم لايات الذكر الحكيم وتفسير غيرهم، وهو ما ستقف على نماذج منه مستقبلاً.

على أنّ ما أُثِرَ في مجال التفسير وغير التفسير عن أئمة أهل البيت وإنْ لم يكن كلُّه صادراً من واحد منهم بل صدر من كل واحــد منهم قسمٌ وشيءٌ في هذا المجـال، ولكنهم حيث إنهم يُشكِّلُون وحدةً واحدة لهذا يُشكِّلُ مجموع ما صدر منهم جميعاً رؤيةً واحدةً للقرآن الكريم، لا تنافر فيه، ولا تناقض شريطة صحة الاسناد، وتوفر التفهم السليم.

وتشـير إلى هذه الوحدةْ في الرؤية والكلمـة احاديث منها قول الامام جعفر الصــادق عليـه السـلام: حديثي حديثُ ابي، وحـديثُ أبي حديث جدِّي، وحديثُ

جَدِّي حَديثُ الحسين، وَحَديثُ الحسين حديثُ الحَسَنِ، وحديثُ الحَسَنِ حَديثُ امير المؤمنين وحديثُ امير المؤمنين حديثُ رَسولِ الله صلى الله عليه وآله وحديثُ رسولِ الله صلى الله عليه وآله قولُ الله عزّوجل[٣٩].

وعن الامام جعفر الصادق عليه السلام أيضاً: ليس عَلَيكُم فيما سَمِعتُمْ مِنّي أن ترووه عن أبي عليه السلام وليسَ عَلَيْكُمْ جناحٌ فيما سَمِعْتُمْ مِن أبي أن تَرووهُ عَنّي، لَيسَ عَليكُمْ في هذا جناحٌ[٤٠].

٢ ـ الانسجام مع الروح العامة للقرآن

إنّ ابرز ما يتميز به تفسير العترة لآيات الكتاب وفَهمهم لها هو انسجامُ ذلك مع الروح العامة للقرآن السائدة على مختلف مجالاته، ومواضيعه مثل مجال التوحيد وقضايا العدل والقضاء والقدر، والنبوة والأنبياء، وقضايا التاريخ، والتشريع..

إنّ للقرآن مثلاً روحاً عامة في مجال التوحيد ونقصد كلَّ ما يتصل بالذات الالهية من الأسماء والصفات، وهذه الروح هي تنزّه الذات الالهيّة من شوائب الجسم والجسمانية، ومن صفات الممكنات.. وتأتي التفسيراتُ الصادرةُ عن العترة الطاهرة متطابقةً مع هذه الروح العامة في هذا المجال، بل ومؤكدة لها، ومبرهِنةً بمزيد من البرهنة عليها.

وكذا هناك روحٌ عامة في مجال أفعال الله وهي العدالة الدقيقة، والغرض الصحيح، والحكمة البالغة وتجيء الروايات التفسيرية الصادرة عن أهل البيت لتدلل على هذه الروح، وتبرهن على هذه الحقيقة، باجمل بيان، بينما لا يلاحظ المرء هذه السمة في تفسيرات الآخرين وفهمهم للكتاب الحكيم، بل ربما لاحظ التناقض بينها وبين تلك الروح القرآنية العامة.. ولعلنا نوفّق في المستقبل لأن نذكر مصاديق لهذه الحالة، باذن الله.

٣ ـ الإحاطة الكاملة

إن المتتبع في ما أُثِرَ عن العترة من تفسير لآيات كتاب الله يكتشف مدى إحاطة العترة بدقائق هذا الكتاب وحقائقه

إن الاحاديث المروية عن العترة الطاهرة في مجال تفسير الآيات، أو تلك

التي تُمُسِّكَ فيها بالآيات القرآنية وان كانت تعرضت لشيء كثير من عمليات الإبادة في الحملات التي كانت تقوم بها السلطات ضد العلماء السائرين على نهج أهل البيت، ومكتباتهم إلّا انّها مع ذلك تنطوي على علم غزير، وسبر لاغوار الكتاب، إلى جانب النظرة المتكاملة مما يدل على إحاطة العترة بالكتاب، وهو الأمر الذي لا يلمسه المرء في تفسير غير العترة إلّا قليلاً..

إن التفسير والفهم التجزيئي (بمعنى الوقوف عند آية واحدة دون الالتفات إلى ما يرتبط بها من الآيات الأُخرى ظاهراً أو باطناً ويكون دخيلا في توضيح المقصود الحقيقي منها) الذي تورّطَ فيه بعض أرباب المذاهب، فظهرت على أثره مذاهب ونحل تتناقض مع مبادىء الاسلام وروحه.

إنّ هذا النمط من الفهم والتفسير إنْ دلَّ على شيء فإنما يدل على قلة إحاطةٍ بالكتاب العزيز، هذا ان لم يكن ثمة قصد وعمد وراء مثل هذا النمط من الفهم والتفسير.

ولا غرو في أن يتسم فهم أهل البيت لكتاب الله تعالى بطابع الاحاطة الكاملة وهم أهل الذكر الذين عناهم القرآن اذ قال تعالى: **(فاْسئلوا اهلَ الذِكرِ إن كنتُمْ لا تَعْلَمون)**[٤١].

روى الحافظ محمد بن موسى الشيرازي من علماء الجمهور واستخرجه من التفاسير الاثنى عشر[٤٢] عن ابن عباس في قوله تعالى: **(فاسالوا أهلَ الذِكر)** قال: هو محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، هُمْ أهل الذِكر والعلم والعقل والبيان. ورواه سفيان الثورى عن السدّي عن الحارث[٤٣].

وروى العلامةُ الطبريُ في تفسيره: حدثنا ابن وكيع قال: حدثنا ابن يمان عن اسرائيل عن جابر عن ابي جعفر **(فاسالوا أهلَ الذِكر ان كنتم لا تعلمون)** قال: نحنُ أهلُ العلم[٤٤].

وروى العلامه ابن كثير في تفسيره مثله[٤٥].

ومن الطبيعي ان يكون أهل الذِكر محيطين بالكتاب العزيز.. وَمنَ المعلوم أنَّ الذِكر هو القرآن الكريم إذ يقول تعالى: **(إنّا نَحنُ نزَّلْنا الذِكر وإنّا لَهُ لَحافِظون)**[٤٦] و**(وقالُوا يا أيّها الذي نُزِّلَ**

عَلَيْهِ الذِكرُ إنّكَ لَمَجنُونٌ)[٤٧].

ثم ان هنــاك مضـافاً إلى المميزات المذكورة ميزة الدقة والعمق في فهم الآيات، وتفســيرهم لهــا إلى غير ذلك مما لا يسع المجال لذكره.

ونختم هذا القسم من الحديث بنقل طائفة من الاحاديث التي وردت في مصادر الشيعة حول علم العترة بكتاب الله، مما صدر عن رســول الله(ص) أو صدر عن العترة الطاهرة انفسهم، تتميماً للفائدة:

١ - عن النبي صلى الله عليه وآله في احتجاجه يوم الغدير: عليٌّ تفسيرُ كتاب الله، والداعى إليه، ألا وان الحلال والحرام اكثــر من أن أُحصيهمــا وأُعــرّفهما فآمر بالحلال وانهى عن الحرام في مقام واحد، فأُمــرتُ أن آخــذ البيعة عليكم والصفقة منكم بقبول ما جئت به عن الله عزوجل في علي أمير المؤمنين والائمة من بعده.. معاشر الناس تدبروا وافهموا آياته، وانظروا في محكماته ولا تتبعوا متشابهه فوالله لن يبيّن لكم زواجرَه ولا يوضِح لكم عن تفسيره الا الذي أنا آخُذ بيده[٤٨].

٢ - عن الامام ابي جعفر (الباقر) عليـه السلام قال: ان مِن علم ما أوتينا تفسير القرآن وأحكامه[٤٩].

٣ - عن الامـام جعفر (الصـادق) عليــه الســلام في قوله «ومن عنـدهُ علم الكتــاب» قال: إيــانــا عنى، وعـليٌّ اوّلُنــا وافضلنا وخيرنا بعد النبي[٥٠].

٤ - عن انس بن مالك خادم رسول الله(ص) قال قال رسول الله(ص): يا علي تعلّمُ الناس تأويلَ القرآن بما لا يعلمون. فقــال عليٌّ: ما أُبلّغُ رســالتك بعد رسالتك بعدك يا رسول الله؟ قال: تخبر الناس بما أُشكِلَ عليهم من تأويل القرآن[٥١].

● الهوامش:

(١) الأنعام: ١٩.

(٢) الامام محمد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب، هو خامس الائمة الأثنى عشر، قال عنـه ابن حجـر الهيثمي: ابو جعفر محمد الباقر سمي بذلك من بقر الأرض أي شقها، وأثار مخبآتها ومكامنها، فلذلك هو أظهر من مخبـآت كنـوز المعـارف، وحقـائق الأحكام والحِكم واللطائف ما لا يخفى إلّا على منطمس البصيرة، أو فاسد الطويّة والسريرة، ومن ثَمّ قيـل فيــه باقر العلم وجامعه، وشاهر علمه ورافعه، صفا قلبه، وزكا علمه وعمله، وظهرت نفسه، وشرف خلقه، وعمرت اوقاته بطاعة الله

وله من الرسوم في مقامات العارفين ما تكل عنه السنة الواصفين» (الصواعق المحرقة: ١٢٠)

وكتب عنه ابو الفداء الحافظ ابن كثير يقول: هو تابعي جليل القدر كثير، احد علام هذه الأمة علماً وعملاً وسيادة وشرفاً... سمي الباقر لبقره العلوم، واستنباطه الحِكَم، وكان ذاكراً خاشعاً، صابراً، وكان من سلالة النبوَّة، رفيع النسب، عالي الحسب، وكان عارفا بالخطرات كثير البكاء والعبرات، معرضاً عن الجدال والخصومات... (البداية والنهاية٩: ٣٠٨).

وترجم له عليه السلام الحافظ الذهبيّ في كثير من مؤلفاته كتذكرة الحفاظ مثلاً. كما كتب عنه آخرون كُثر.

(٣) تفسير العياشي١: ١٠ وراجع كتاب القرآن الكريم في أحاديث الرسول الأعظم وأهل بيته الطاهرين لصاحب هذا المقال.

(٤) الامام جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، هو سادس الأئمة الاثني عشر، كتب عنه الشهرستاني يقول: جعفر بن محمد الصادق هو ذو علم غزير وأدب كامل في الحكمة وزهد في الدنيا وورع تام عن الشهوات، (الملل والنحل١: ٢٧٢).

وكتب عنه ابو نعيم يقول: جعفر بن محمد الامام الناطق ذو الزمام السابق أبو عبد الله جعفر بن محمد الصادق (حلية الأولياء ٣: ١٩٢).

وكتب عنه احمد بن حجر الهيثمي يقول: جعفر الصادق نقل الناس عنه العلوم ما سارت به الركبان وانتشر صيتُه في جميع البلدان، وروى عنه الأئمة الاكابر كيحيى بن سعيد، وابن جريح، ومالك، والسفيانين وأبي حنيفة وشعبة وأيوب السجستاني (الصواعق المحرقة: ١٢٠).

وقال عنه الامام مالك بن انس: جعفر بن محمد اختلفتُ اليه زمانا فما كنت أراه إلّا على إحدى ثلاث خصال، إما مصلّ، وإما صائم، واما يقرأ القرآن.. وما رأت عين ولا سمعت أذن ولا خطر على قلب بشر أفضل من جعفر بن محمد الصادق علماً وعبادة ووَرَعاً. (تهذيب التهذيب٢: ١٠٤).

وقال عنه الامام ابو حنيفة: ما رأيت أفقه من جعفر بن محمد. (مناقب ابي حنيفة للموفق ١: ١٧٣ وجامع أسانيد أبي حنيفة ١: ٢٢٢، وتذكرة الحفاظ للذهبي ١: ١٥٧).

(٥) تفسير العياشي ١: ١١.

(٦) الطرف لابن طاووس كما في مستدرك وسائل الشيعة ١: ٢٨٨.

(٧) الامام علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب هو رابع الائمة الاثني عشر. كتب عنه محمد بن سعد: كان علي بن الحسين ثقة كثير الحديث عالياً رفيعاً ورعاً. (الطبقات الكبرى في ترجمته).

وكتب ابو السعادات اليمنى اليافعي المتوفى عام ٧٦٨ هـ عنه عليه السلام يقول: مناقبه كثيرة ومحاسنه شهيرة. (مرآة الجنان) وترجم له سبط ابن الجوزي المتوفى عام٥٩٧ في تذكرة خواص الأُمة، وابن حجر الهيثمي في الصواعق المحرقة، والشبلنجي الشافعي في نور الابصار.

(٨) التوحيد للصدوق الباب ٤٠ ص٢٨٣.

(٩) بحار الانوار ٩٢: ١٠٣ نقلاً عن الدرة الباهرة.

(١٠و ١١) الجمعة: ٢ ومثله قوله: (وانزلنا اليك

الذكر لتبيّن للناس ما انزل اليهم ولعلهم يتفكرون) النحل/ ٤٤.

(١٢) تفسير «الكشاف» ٤: ٥٣٠.

(١٣) **تفسير «الميزان»** ج١٩: ٢٦٥.

(١٤) بصائر الدرجات: ٦.

(١٥) **تفسير القمي**: ٨٧.

(١٦) المحاسن للبرقي: ٢٦٧.

(١٧) **سنن الدارمي ٢: ٣٦٥ تفسير الطبري ٦**: ٣٠، تفسير ابن كثير ١: ٢٦٠ وغيرهم.

(١٨) **تفسير ابن كثير ١: ٥٩٥ والمستدرك على** الصحيحين للحاكم النيسابوري ٢: ٣٠٤، **السنن الكبرى للبيهقي ٦: ٢٢٥ تفسير ابن** كثير ١: ٥٩٥.

(١٩) **السنن الكبرى للبيهقي ٧: ٤٤٢ تفسير** الرازي ٧: ٤٨٤ الدر المنثور ١: ٢٨٨ و٦: ٤٠.

(٢٠) **الموطأ** ٢: ١٧٦، والسنن الكبرى للبيهقي ٧: ٤٤٢، **وتفسير ابن كثير ٤: ١٥٧، والدر** المنثور للسيوطي ٦: ٤٠.

(٢١) آل عمران: ٣٢، و١٣٢، والمائدة: ٩٢ **والانفال**: ٢٠.

(٢٢) **النمل**: ٤٠.

(٢٣) **الرعد**: ٤٣.

(٢٤) فاطر: ٣٢.

(٢٥) الجامع لأحكام القرآن للعلامة القرطبي **المتوفى ٦٧١. ٩: ٣٣٦ وينابيع المودة للعلامة** القندوزي: ١٠٢ طبعة اسطنبول بتركيا.

(٢٦) **الاتقان ١: ١٣ طبعة القاهرة، ومثله في** تفسير القرطبي المعروف (الجامع لاحكام القرآن) ٩: ٣٣٦.

(٢٧) **الامام موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن** الحسين بن علي بن أبي طالب **عليهم السلام سادس الائمة الاثني عشر** كتب عنه ابن حجر الهيثمي: كان اعبد اهل **زمانه، واعلمهم واسخاهم (الصواعق** المحرقة: ١٢١)، وكتب عنه ابن الصباغ **نور الدين المكي المالكي: كان موسى الكاظم** عليه السلام أعبد أهل زمانه، واعلمهم، وأسخاهم كفاً، واكرمهم نفساً (الفصول **المهمة: ٢١٩) وكتب عنه ابن كثير: كان كثير** العبادة والمروءة (البداية والنهاية ١٠: ١٨٣).

(٢٨) بحار الانوار ٢٦: ٦٥ ـ ٦٦ **نقلاً عن كتاب** المحتضر: ١٣١.

(٢٩) آل عمران: ٧.

(٣٠) **نور الثقلين للحويزي ١: ٣١٣ نقلا عن** الاحتجاج للطبرسي.

(٣١) **الكافي (الاصول) للكليني ١: ١٦٦ باب ان** الراسخين في العلم هم الائمة عليهم السلام.

(٣٢) المصدر السابق.

(٣٣) المصدر السابق.

(٣٤) الاتقان في علوم القرآن ٢: ٢٣٩ طبعة **الحلبي ـ القاهرة، وراجع الصواعق المحرقة** لابن حجر الهيثمي ص١٢٥ ـ ١٢٦.

(٣٥) **راجع موسوعة الغدير**: ٦و٧.

(٣٦) راجع صحيح الترمذي ٥: ٣٢٨، جامع **الاصول لابن الاثير ١: ١٨٧ الدر المنثور** للسيوطي ٦: ٧و٣٠٦، الصواعق المحرقة: **١٤٧ و٢٢٦ تفسير ابن كثير ٤: ١١٣ اسد** الغابة في معرفة الصحابة لابن اثير الشافعي ٢: ١٢ كنز العمال ١:

١٥٣ ـ ١٥٤ الطبقات الكبرى لابن سعد ٢: ١٩٤ المواهب اللدنية ٧: ٧ مجمع الزوائد لابن حجر الهيثمي ٥: ١٩٥، صحيح مسلم كتاب الفضائل باب فضائل علي بن ابي طالب ٢: ٣٦٢ الجامع الصغير للسيوطي ١: ٥٥، مسند احمد بن حنبل ٣: ٧ و٢٦ و٥٩ و٤: ٣٦٦ و٣٧١ و٥: ١٨١.

وثمة نص نقله ابن حجر الهيثمي جاء فيه قال رسول الله (ص): ايها الناس يوشك أن أُقبض قبضاً سريعاً، فيُنطلقَ بي وقد قدمت اليكم القول معذرة اليكم، الا اني مخلف فيكم كتاب الله (ربي) عزوجل، وعترتي اهل بيتي، ثم اخذ بيد عليّ فرفعها فقال: هذا عليٌّ مع القرآن والقرآن مع عليّ لا يفترقان حتى يردا عليَّ الحوض... إلى آخره.

(**) ثم ان ابن حجر بعد أن اورد حديث الثقلين قال: ثم اعلم ان لحديث التمسك بذلك (يعني حديث الثقلين) طُرُقاً كثيرة وردتْ عن نيف وعشرين صحابياً (قال) ومرّ له طرق مبسوطة في حادي عشر الشبه، وفي بعض تلك الطرق أنــه قال ذلك بحجة الوداع بعرفة، وفي أُخرى انه قاله بالمدينة في مرضه، وقد امتلأت الحجرة بأصحابه. وفي أُخرى انه قال ذلك بغدير خم. وفي أُخرى أنه قال ذلك لما قام خطيباً بعد انصرافه من الطائف كما مرّ (قال): ولا تنافي اذ لا مانع من أنه كرر عليهم ذلك في تلك المواطن وغيرها اهتماماً بشأن الكتاب العزيز والعترة الطاهرة (الصواعق المحرقة ص٨٩).

(٣٧) وسائل الشيعة ١٨: ٦٩.

(٣٨) وسائل الشيعة ١٨: ٧٤.

(٣٩) اصول الكافي ١: ٧

(٤٠) وسائل الشيعة ١٨: ٧٤.

(٤١) النحل: ٤٣.

(٤٢) المراد من التفاسير الاثنى عشر هو: تفسير ابن يوسف يعقوب بن سفيان وتفسير ابن جريح، وتفسير مقاتل بن سليمان وتفسير وكيع بن الجراح، وتفسير يوسف بن موسى القطان، وتفسير قتادة، وتفسير ابي علي بن عبيدة القاسم بن سلام، وتفسير حرب الطائي وتفسير السرّي، وتفسير مجاهد، وتفسير مقاتل بن حيان، وتفسير ابي صالح، وتفسير محمد بن موسى الشيرازي. (راجع احقاق الحق ٣: ٤٨٢).

(٤٣) احقاق الحق ٣: ٤٨٢.

(٤٤) تفسير الطبري ١٤: ٦٩ طبعة الميمنية بمصر.

(٤٥) تفسير ابن كثير ٢: ٥٧٠ طبعة مصطفى محمد بمصر.

(٤٦) الحجر: ٦.

(٤٧) الحجر: ٩ وراجع آل عمران: ٥٨، والاعراف: ٦٣ و٦٩ ويوسف/ ١٠٤ والنحل: ٤٤ وغيرها.

(٤٨) وسائل الشيعة ١٨: ١٤٣ نقلاً عن الاحتجاج للطبرسي.

(٤٩) وسائل الشيعة ١٨: ١٣٣.

(٥٠) بحار الانوار ٢٣: ١٩١ عن مناقب آل ابي طالب.

(٥١) بحار الانوار ٣٣: ١٩٥ عن بصائر الدرجات.

في العدد القادم

ـ العجب: رؤية قرآنية:	الشيخ محمد مهدي الآصفي
ـ في القتال والجهاد في سبيل الله:	السيد حسين الطباطبائي اليزدي
ـ الرسول (صلّى الله عليه وآله وسلّم) في القرآن:	السيد عبد الأمير علي خان
ـ قيمة العلم في القرآن والحديث:	الدكتور أبو تراب النفيسي
ـ المنهج التفسيري عند سعيد بن جبير:	حسن السعيد
ـ من أساليب الحرب النفسية في القرآن:	الشيخ محمد علي جواد
ـ الإستقامة ومقوماتها في القرآن:	الشيخ حسين الربيعي
ـ دور القرآن في الأمن الإجتماعي:	الشيخ علي الكرمي
ـ حول مصطلح العلماء:	الشيخ عليّ الكوراني
ـ إضافة الى أبواب المجلة الثابتة	

القرآن الكريم وأسرار الكون

الدكتور محمد ناصري

تعريب: جعفر الهادي



لقد حثّ القرآن الكريم النا س ضمن آيات عديدة وباشكال مختلفة علــى اكتساب العلــوم، وتحصيل المعارف، ودعاهم الــى التمعن فى أسرار الخليقــة بهدفِ الـوقـوفِ علـى آثارهــا، وليكون ذلكَ نقطة بداية على طريق تنمية المــواهــب، و تــرقية العقــول، وتــرشيـد القابليّــات، و ليتجَلّى مـن خلال التعّمـق والتمعّــنَ في هــذه الأسرار طـريقُ اِلــى اكتشــاف الرمــوز المودَعــة فــي العالــم وبــالتالــي التعرّف علــى القدرة الاِلَهيــة المطلقة.

على أن ثمّة نقطة واضحة جدّاً وهي أنّ هذا الكتابَ السماويَّ العـزيزَ لم ينزل لكَي يعلّم البشرية الحساب و الرياضيّات ويوقفهــم على علوم الفيزيــاء والكيمياء، والجبر والهندسة أو الهيئّــة والنجوم، بل القرآن كتــاب هدايــة، و إرشاد فحسـب، غاية ما هنالِـــك انه يتعّرض خلا ل آياته الشـريفة، وبين الفينــة والأُخرى إلى مثل هذه المســائل العلميَّة في شكـل ايماءات ارشادية، وإشارات منبهّة، اصطُلِح على تسميتها بمعجـزات القرآن العِلميّــة التي يمكـن -بـالامعان فيهـا- الاهتـداء إلـى جـذور الكثير مـن العلوم، وهــوما فعلـه علماءُ الاسلام إذ بـدأوا نهضتهم العِلميّة مـن بـدايــات القــرن الثــانــي الهجـريّ مستلهمِيـن مِـن هذه الايــات الكـريمـة، وشغلوا مركـزالصدارة في عصرهـم في بعض العُلوم، وفي هذه المقالة نشير الى بعض تلكم الايات:

١- ﴿أَوَ لَم يَـرَوْا إلَى الأَ رضِ كَـم أنبَتْنا فيها مِن كُلّ زَوجٍ كَريم﴾.(١)

وهنــاك آيــات عديـدة أُخـرى فـي

القرآن الكريم استعملت لفظةُ «زوج »، و«الزوجية» في مجال النباتات[2] وقد ذهب أكثرالمفسرين إلى أنَّ المراد من لفظة الزوج هو النوع[3] وقد فُسِّرت لفظةُ الزوجين في كتب اللّغة هكذا ﴿وَمِن كُلِّ شَيءٍ خَلقنا زَوجَينِ﴾ فتنبيه على أنّ الأشياء كلّها مركبّة من جوهر وعرض ومادة وصورة[4] ﴿وَمِن كُلِّ الثَّمَراتِ جَعلَ فيها زَوجَينِ اثنَينِ﴾ أي خلق فيها من جميع أنواعها زوجين أسود وأبيض وحلوا وحامضاً و رطباً ويابساً.[5]

إنّ مسألة الزوجية والتصريح بأن هناك ذكرا وانثى في عالَم الحيوان والنبات من المسائل العجيبة جدا في عالم الطبيعة، والموجبة للتناسل والتكاثر، والتوالد الموجب بدوره لبقاء النوع البشريّ واستمراره.

ومع أنّ هذه الحقيقة قد بُيّنت بمثل هذه الصراحة في آيات عديدة من القرآن الكريم ومع أنه قد اتضحت اساسا و الى درجة كبيرة قضيّة اللقاح والتلاقح في عالم النباتات عن طريق الرياح[6] وعن طريق الحشرات، و بخاصّة في مجال النخيل فإنّ أغلبية المفسرين والمحققين في علوم القرآن -مع ذلك- لمّا بلغوا إلى لفظة «زوج » فسّروها بالنوع والصنف، في حين أ نّ هذه اللفظة لاتفيد إلاّ معناها المعروف «الذكر والانثى» وهذا يبدو أجمل كمايكون افضل في شرح أسرارالقرآن العلمية.

من بين علماء النبات المحققين كان «شارل لينه»[7] ذا رَغبة شديدة في التعمق في أسرار النباتات وهو أول من صنّف النباتات -وللمرّ ة الأُولى- على أساس الزوجيّة، و أسّس إحدى تقسيماته في عالم النبات على هذا الاساس.

ولهذا سمّى في كتابه المعروف «أنواع النبا تات» اكثر من سبعة آلاف وثلاثمائة نوع من النباتات.[8]

إنَّ هذا العالم الطبيعّي السويديِّ توصّل في تحقيقاته المفصلة في مجال علم النبات، و في القرن الثامن عشر الميلادي إلى اكتشافَ هذه الحقيقة وهي أنّ مسألة الزوجيّة وقصّة الذكورة والأُنوثة العجيبة في عالم النبات واقع مسلّم، وحقيقة ثابتة ومن القوانين غيرالقابلة للتغيير في عالم الطبيعة.

إنّ هذا العالم ومن خلا ل جهوده

الـدؤبة و سعيـه المضنــي تـوصّل ألــى أسرار في عــالَم النباتات، واثبـت وبادلّة عِلميّـة ثـابتـة أن النباتــات شـأن اغلـب الحيـوانات تتكـاثر عبـر التـلاقح بيـن نطفتي الذكر والانثى وتؤّتي أُكلها الطيّب اللذيذ والنافع كل حين.

إن تحقيقات «لينه» الجميلـة الرائعة غَيِّرت رؤيــة علماء النبـات حول أنـواع النبات، وخلّفت آثارا وفـوائد قيمة أفادت التحقيقات العلمية النباتية اللاحقة.

ولكن القرآن الكريمَ أشار –قبل لينه وتحقيقاته القيمة بقُرون وأعوام مديدة– وضمــن آيات عـديدة إلــى هذه الحقيقـة العلميّة في عــالم النبات وذكرالــى جانب ظاهرة النمو والحياة في عالم النبات لفظة «الزوج» أيضـا... والأجمل أنه ربما أشار إلى حقيقة اكثر عموميّــة وشموليّة، وقال في صيغة عامة **﴿وَمِن كُلِّ شَيءٍ خَلَقنا زَوجَينِ اثنَينِ﴾**.[٩]

ولقـد ثبــت –حسـب التحقيقــات والكشوف العِلميّـة الحديثـة– اليوم أنـه ليـس الانســان وحده، و لا الحيـوانــات وحـدها مخلـوقــة مـن ذكر وأُنثــى، بـل الحشرات والنبــاتات هي الأُخري مـركبة مـن ذكر وأُنثــى، مع فـارق أن مسأ لـة الـزوجيّة فـي عالـم الأحيـاء تتمثّلُ فـي الذكـرو الانثى، و في عــالم المـوجودات الجمـادية تتمثـلُ فـي الجـذب والدفـع، والسالب والموجَـب، وهي قضية تحتاج إلى توضيح اكثر في مكان آخر.

مشهَد من علمية اللقاح:

كشف «موريس مترلينگ»[١٠] الكاتب البلجيكي المعـروف في احدي كتابـاته تحت عنـوان «ذكاء الـزهور» عـن عمليّة اللقاح الجميلة بين وردتيـن ويكتب في هذا الصدد قائلا:

ان عناصر الذكورة «المتك» هادئة وســاكتة علــى الـدوام، وهــي في أغلفـة صفراء اللون وتصطـفّ بصورة دائرة داخل كـأس كبير ومخملـي... و بمجرد أن تحين ساعة اللقــاح، فكأنّ المعشوق يناديها واحدا واحدا باسمه، يقترب أوّل عنصر من عناصر الذكورة «المتك» هذه وبـرفق إلــى عنصر الأُنـوثة «الميسـم» ويحصل التّمــاسُ والإتصال، ثـم الثالـث فالخـامس فـالسابـع فالتـاسع إلــى أن تنتهـي الأعدادُ الفـردية، ثـم يأتــى دورُ الأعداد الزوجيّة، فيتقرَبَ الثـاني فالرابع فالســادس فالثـامن، ويحصـلُ الاتصال

بينها وبين المعشوق كما حصل من قبل بيـن مثيلاتهـا مـن الأ فـراد، وهكذاتتـم عمليـة اللقـاح بيـن جهـازي الـذكـورة والأُنوثة في نسَق عجيب غاية في البداعة والغرابـة والدقة، ويـذهب علمـاء النبات إلى أنّ هذا النوع من النبات يعرف عملية العَدّ والإحصاء.

إنّ وردة «الـواليز» تنبـت في قعـر الماء، وهـي دائما في حالة رقاد وغيبوبة، إلـى وقت اللقـاح والإخصـاب، في هـذه الحالة تتحرّك وتتملـل... إناث هذا النوع من الـورود مثل الفتيات تبلغ أسـرع من الذكور ثم تصعد بسرعة الى سطح الماء، وتـزيح عـن نفسهـا حجاب الاقحـوان، وتـرقد علـى فراش المـاء امام الشمـس مليئة بالعشق تفيض سُكرا. فيما يرمقها عنصرُ الـذكر مثل عـاشق وَلهـان، ولكن مهمـا يجتهـد لايستطيع أن يصـل إلـى سطح الماء وكأنه يدرك أنّ لقاء المعشوق ووصالـه بحاجة إلـى جهد أكثـر وسعى أكبـر، ولهذا ينقطـع مـن سـاقته دفعـة واحـدة، و يمضـي فـي الإرتفـاع حتـى يوصل نفسه إلى سَطـح الماء، ثم يدور حول معشوقته، ثـم يلقي بنفسه المتعَبَة علـى جسد المعشـوقـة بشوق وعشـق كبيرَين، وتقـدِمُ المعشوقة بدورهـا على ضمّ زوجهـا واحتضانه وجمـع أوراقه، والعودة به مرة أُخـرى إلى أعماق الماء في رحلة حبّ بعيدة، ليتـمّ تربية وتنمية حصيلة هذااللقاح في قلب الماء، ثم تقوم فيما بعد بتقديمه فـي صورة جميلة جداً إما إلى الماء وإماإلى سطح الماء.

٢- ﴿إذَا الشَّمـسُ كُـوِّرَتْ*وَ إذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ»﴾.[١١]

وكوّرت من مادة التكـوير وهـي في اللغة بمعنى الجمع واللفّ[١٢] والمراد من الآيـة حسـب رأي المرحـوم الطبـرسـي هوالوقت الذي ينتهي فيه نورالشمس، ثم تفنى الشمس بعدالظلمة.[١٣]

و«انكـدرت» من مـادة «الانكـدار» بمعنـى التهـافـت والانتشـار والتحطّـم والتلاشـي، واعتبرهـا البعض مشتقة من التكدر والكـدورة في مقـابل الصفـو و الصفـــــاء. وهو بمعنى فقدان الشعاع واللمعان، والاشراق.[١٤] وهما يشتركان في جـامع واحد، لأن النجوم و الكـواكب -حسـب نظـر العلمـاء وتكهُنـاتهـم ومحاسبـاتهم العلمية- تفقـد في نهـاية هـذاالعالـم نُورَهـا وضوءَهـا كما أنهـا تتحطّم وتتلاشي وتسقط مع تبعثر نظام

الكون العامّ، ولكن المرحوم الطبرسي رجّح القولَ الأوّلَ وفضّله.[١٥]

٣- ﴿إذَا السَّماءُ انفَطَرَت*و إذَا الكَواكِبُ انتَثَرَت﴾.[١٦]

و«انفطرت» من مادة «الانفطار» يعني الشق، و «انتثرت» من مادة «الانتثار» بمعني التبعثر وانفصام العرى[١٧] وكلتا الآيتين ترتبطان بنهاية هذا العالم، ومآله.

إنّ مِنَ المتّفَق عليه أنّ العالَم سينتهي ذات يوم، وتتغير أوضاع الكون، وتنقلب، وينهدم النظامُ الكوني ويتهاوى، وتتبدل الشمسُ والقمرُ والنجوم، ولكن ليس من المعلوم جيداً أن هذا الانقلاب والتبدل يحصل تحت تاثير أيّ عامل أوعوامل، هل يحصل على اثر الاختلال في توازن الدفع والجذب، أم أن قضيه الانبساط التدريجي للكون هي التي توجب وقوع هذه النهاية المأساوية في العالم، ولكنَّ ماهو متفق عليه -على كل حال- هو أنه ستقع ذات يوم انفجارات هائلة في جميع الكواك، ويتغير النظام العام السائد على جميع المنظومات وعلى أثر إصطدام بعضها ببعض تتلاشى وتتحطم، وفي هذا الوقت ينتهى عُمُر الكون.

إنَّ الشَّمسَ كرة ملتهبة وساخنة جِداً تعطي النور للعالم، و تنير الكون بأنوارها وأشعتها الساطعة.

ووفقاً لحسابات العلماء الدقيقة تتناقص حرارة الكون واشعته مع ذهاب العالم الى نهاية عمره، كما يتضاءل حجمه ويتقلّص شيئاً فشيئاً.

لقد شرح العلامة الفلكى المعروف «كوپرنيك»[١٨] في تحقيقاته العميقة أسراراً عن حركة الشمس ومركزيتها و كيفية حياتها، و بالتجديد الذي أحدثه في الدراسات المتعلقة بعلم النجوم عمد إلى دراسة و نقد نظريات بطليموس في المجسطى، وكشف عن جميع المشكلات والتناقضات الموجودة في النظام البطليموسي، وبالتالى عن عدم التناغم والا نسجام بين الدوائر البطليموسيّة.[١٩]

ولكن يمكن الوقوف على أفضل دراسة حول الشمس وبدايتها ونهايتها، بعد «كوپرينك» في مؤلَف «جورج گاموف» المنشور تحت عنوان «ظهور وموت الشمس» والذى يثبت فيه بالأدلة العلمية أنّ موت الشمس أمرحتمي، وواقع لامحالة.

لقد كـان قدامى الحكماء -كمـا هو معـروف- يعتقـدون أنّ الأفـلاك وكـلّ مافيهـا باقية دائمـاً، وغير قابلـة للزوال والانـدثـار، و انهـا لا تتعـرض للفسـاد والبطـلان. و لكـن المختصّين فـي علـم النجـوم، والفـلاسفة الغـربييّـن أبطلـوا -بفضـل ما أُوتـوا من أمكـانيّات علميـة وتحقيقات فضائية عميقـة- هذه الافكار والمقـرَّرات القديمـة، ويرون أنّ جميـع الاجرام سواء الشمس والقمـر والكواكب أوغيرهـا قابلة ذاتياً للكون والفساد و أنها كانت مسبوقة بالعدم، يعنى أنه كان ثمة يوم لم يكن فيه أيُ واحد من هذه الاجرام البتة، وسيأتي يوم لايكون فيه شيء من هذه الاجرام ايضـاً، و ستتعرض جميعها على الاطلاق للعدم والفناء.

ولقد لقيت هذه الحقيقـة التأييد من قِبَل الديـن من بَدء بزوغ الاسـلام وهي أن العـالـم حـادث، و ان جميـع أجـزائه مسبـوقة بـالعـدم، و انهـا تسير -فـي حركتها- على طـريق العدم، ان الشمس والقمـر والانجـم وجميـع الكـرات فـي معرض الفناء والعدم، وان القـرآن الكريم يعلـن بصراحـة كاملـة عـن ذلك اليـوم ويقـول: فـي ذلـك اليـوم يتعـرض فيـه الشمس والقمر، والنجوم للزوال.

وهذه الحقيقـة يؤيّدها اليـوم العلمُ الحديث ويذهب عـالم مثل «البروفيسور گوذيـت» وهو يرصـد الفضاء مـن خلف عـدسـة مرصـد جبـل «پـالومـار» فـي «تـازونـي»: إنّ هـذه المجـرّة التـي تـلاحظونهـا في السمـاء مثـل سحابـة بيضـاء تتحرك يميناً وشمالاً، ليست بهذه الصـورة التـي تـلاحظـون... اذا كنتـم تلاحظون هذه المجرة بهذا الشكل فانما هـو لاجـل أن هـذه المجـرّة تقـع فـوق رؤوسكـم، ولو أنكـم كنتم تـواجهونهـا وجهاً لـوجه لشاهدتـم مجرتنا هـذه في صـورة لعبة نـارية تـدور بسـرعة فـي دائرة، و تتناثر فيها حـالة دورانها ذرات نارية في كل اتجاه كما تتناثر ذرات النار من اللعَـب النارية فـي ليالـي الاحتفالات والافراح، مـع فارق هـو ان كل ذرة مـن الذرات المتناثرة من المجـرة تكون عالماً شمسيّاً.

أنا وأنـت والعالـم الشمسيُ إحـدى تلك الذرات الصغيرة التـي تناثرت حول تلك اللعبـة النارية الكبرى، ونبتعـد عنها بسرعة ٣٠،٠٠٠ كيلومتر في الثانية، يعنى بسرعـة تعادل ثـلاثة آلاف مـرة ضِعف

سرعة الريح الحاصل من انفجار اضخم القنابل. أجل بهذه السرعة العجيبة والهائلة نبتعد عنها يعني مع المنظومة الشمسية وحفظ نظام السيارات، وكما تختفى الذرات النارية في ليلة الاحتفالات حول اللعبة النارية كذلك نحن، يعني أن دنيانا الشمسية ستختفي ايضاً. وعلى هذا الاساس اذا كنتم قد سمعتم ذات يوم ان الدنيا قد انفجرت، أوأنها في حالة إنفجار فلا تندَهِشوا أبداً ولاتتعجبوا لأنّه عندما تنفجر قنبلة فإنَ ريح الإنفجار تنتثر وتنطلق في الاتجاهات المختلفة بسرعة عشر كيلومترات في الثانية، ولكننا تتناثر نحو الاتجاهات المختلفة بسرعة ثلاثين ألف كيلومتر في الثانية.[٢٠]

٤- ﴿اللهُ الَّذي رَفَعَ السَّمٰوٰتِ بِغَيرِ عَمَدٍ تَرَونَها﴾.[٢١]

والعمد جمع عماد و عمود و حول جملة «ترونها» ثمّة احتمالان[٢٢]. الأول أنها جملة مستقلّة والثاني أنها صفة للعمد، وفي هذه الصورة يكون معناها: انّ الله أقام السماوات من دون عمد مرئيّة، وهذا يستلزم وجود أعمدة غير مرئيّة للسّمٰوات، والمسألة حينئذ تستدعي تحقيقات ودراسات علمية.

في الوقت الذى كانت فيه الهيئة البطليموسية[٢٣] تسيطر على الأوساط العلمية العالمية، وتمسِك بزمام التفوق، كان علماء الفلك يتبعون هذه النظرية وهي أن السماوات مخلوقة على هيئة خاصة وهي هيئة البصل اي أنّ كلَ سماء تقع داخل سماء اخرى بحيث يلاصق ظهر كل سماء بطن سماء أعلى منه، وتعتمد كلُ سماء على سماء آخرى.

ولكن التقدّم العلمي، والتحقيقات المفصَّلة التي قامَ بها علماءُ الفلك في القرون اللاحقة، سخّفوا هذه النظرية، وأثبتوا من خلال إظهار النظريات الحديثة ان الاعتقاد بالأفلاك البصلية الشكل وهم برمّته لأن قوة تعادل القوة الجاذبة (الجاذبية) هي التي تحفظ -في صورة قوة غير مرئيّة- كلَّ كرة في موضعها.

قال البروفيسور «گوزيت»: الى يوم لم يكن فيه قد صنع بعد عدسة مرصد جبلْ «پالومار» العظيمة، لم تكن سعة الكون الذي نلاحظه تبلغ اكثر من خمسمائة مليون سنة ضوئية، ولكن العدسة (والتلسكوب العظيم) أوصل عالَمَنا إلى ألف مليون سنة ضوئية[٢٤]،

وفـي المآل اكتشفَـت مـلايين المجـرات الجديدة التي يبتعـدُ بعضها عنّا ستمائة مليون سنة ضوئيـة، وبعضـها سبعمائة مليـون وبعضـهـا تسعمـائة مليـون وبعضها ألف مليون سنـة ضوئية وهذا النـور الذي يشـرق الآن علـى عدستنـا ويظهِر صورة المجرة قطـع مسافة الف مليـون سنة ضـوئيـة حتـى وصل الـى الارض.

وخلف ذلـك الحد الـذي يبتعد عنّـا بمقدار ألـف مليون سنـة ضوئيـة هناك فضاء عظيـم و رهيب ومظلم لايـرى فيه أي شيء... لايعبُر منه ايُ ضوء تتأثر به صفحة مصـوِّر عدسة المرصَـد، و لكن ومـن دون شـك ثمة فـي ذلـك الفضـاء الـرهيـب المظلـم مئات المـلاييـن مـن المجـرّات التـي تحفظ بقـوة جـاذبيّتهـا العالم الـذي في هذا الجانـب (اى عالمنا الذي يقع فـي هذا الطرف على بعـد ألف مليـون سنة ضـوئية) لأنـه إذا لم تكـن هنـاك عوالـم واسعـة وعظيمة و رهيبـة تحفظ بقوة جـاذبيتها عوالم هـذا الطرف لكانـت جميع دُنى وعـوالم هذا الجـانب تـزول مثل قشـة في مهـبّ العواصـف والرياح الشديدة وتنهار دفعة واحدة، لأن القوة الجاذبة (الجاذبية) وحدها هي التي تحفظ هذه العوالم بعضها البعض لكون كل واحد منها جاذباً ومجذوباً.[٢٥]

ومن جملة التحقيقات الطـريفة التي عرضـهـا هذا العالـم المحقق هـو أنّ في فضاء ذلـك الحدّ الذي يبتعـد عنا بـالف مليون سنة ضوئيـة فضاء رهيب ومظلم لايرى فيه اى شئٌ مضيئ، وهذه القضية هي الأُخرى من اسرارالقرآن العلميّة التي أعلن عنها القرآن الكريـم قبل اربعة عشر قرناً.

﴿إنّا زَيَّنّـا السَّماءَ الدُّنيا بِـزينَةٍ الكَواكِب﴾.[٢٦]

إنّ مَشهد النجوم والكواكب الساحر وتلألـؤها الجميل و بخـاصة في ليـالي الصيف المظلمة، لمشهـد جميل وخلاب، و لكن حسـب رؤية القرآن تختـص هذه النعمة بـالسماوات لاجميـع الكرات، لأن وصف السماء الدنيا بـالزينة مشعر بانّ هناك عـالماً، و كـرات اخرى ولكـن من دون كواكـب وهذه العوالم مظلمـة، و قد اخبر القرآن عن هذه الحقيقة يوم لم يكن هناك نظـرية أوفـرضية، و لـذلك يمكـن إعتبـار ذلك مـن أسـرار القرآن العلميـة ومعجزاته القطعية.

وفي الختام ينبغي ان اكرر انا ايضا ما قاله رئيس مرصد «پالومار» اذ يقول: ومع ذلك فانني غير واثق بان لايكون وراء فضاء العالم الثاني، عالم آخر، إذن لابد أن نطأطيء رؤوسنا تعظيما أمام العلم الذى هيأ فكرنا إلى هذه الدرجة لاستيعاب عظمة هذا العالم، و الخالق الذي خلق العالم.

الهوامش

(١) سورة الشعراء : ٧.

(٢) **اهتزّت و ربت و أنبتت من كلّ زوج بهيج.** (الحج : ٥)

و أنزلنا من السّماء ماءً فانبتنا فيها من كلّ زوج كريم. (لقمان : ١٠)

و ألقينا فيها رواسيَ و أنبتنا فيها من كلّ زوج بهيج. (ق : ٧)

ومن كلّ الثمرات جعل فيها زوجين اثنين. (الرعد : ٣)

سبحان الّذي خلق الازواج كلّها ممّا تنبت الارض. (يس : ٣٦)

و أنزل من السّماء ماءً فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتّى. (طه : ٥٣)

(٣) **ومن كل زوج معناه من كل نوع** (مجمع البيان ٧ : ١٨٤)

(٤) المفردات للراغب (زوج).

(٥) مجمع البحرين (زوج).

(٦) **و أرسلنا الرّياح لواقح.** (الحجر: ٢٢)

(٧) ١٧٧٨-١٧٠٧م.

(٨) تاريخ علوم :٤٠١ (ترجمة صفاري) ط/ طهران، ١٣٤٩ ش.

(٩) الذّاريات :٤٨.

(١٠) ١٨٦٢-١٩٤٩م.

(١١) التّكوير: ١-٢.

(١٢) المفردات للراغب.

(١٣) مجمع البيان ١٠: ٤٤٢.

(١٤) المرجع نفسه.

(١٥) مجمع البيان ١٠: ٤٤٣.

(١٦) الأنفطار: ١-٢.

(١٧) مجمع البيان ١٠: ٤٤٨.

(١٨) ١٤٧٣-١٥٤٣م.

(١٩) تاريخ علوم : ١٩٤، ط/ طهران ١٣٢٩.

(٢٠) صفحه آسمان(بالفارسية) (صفحةالسّماء): ٦٦.

(٢١) الرّعد : ٢.

(٢٢) مجمع البيان ٥: ٢٧٤.

(٢٣) بطليموس منجّم و فلكي يوناني معروف(٩٠-١٦٨م).

(٢٤) السّنة الضوئية عبارة عن الفاصلة الّتي

يقطعهـا النور بســرعـة ثـلاثمائة الـف كيلومتر في الثانية خلال عام واحد، وحيث أن النجـوم تبتعد عنّـا كثيـراً، و لهذا فـان المقاييس التى نمتلكها لا تكفي لبيان مقدار المسافـات العظيمة هـذه، ولذلـك توصّـل اصحـاب النـجـوم والمختـصون في هـذا المجال بالمسافة التـي يقطعـها النور فـي السنة لتعييـن مدى الفواصل بيـن الأنجم والكواكب و جعلـوه الوحدة التي يتـمّ على ضوئها الحساب فى هذا الصعيد و أطلقوا على هذه الوحدة اسم السنة الضوئية.

(٢٥) صفحه آسمان: ٦٨.

(٢٦) الصّافّات : ٦.

حول مصطلح الامام

الشيخ علي الكوراني



لفظ «الامام» مشتق من «أَمَّ» بمعنى قصد (أو من «الأَمِّ» بمعنى القصد على رأي من يحصر أصل الإشتقاق بالمصدر) تقول: أَمَمْتُ المكانَ أو الشيْءَ أي قصدته، قال تعالى (**وَلاَ آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرام**) ـ المائدة: ٢.

ومنه أو مثله فعل «يَمَّمَ» قال تعالى (**وَلاَ تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْه تُنْفِقُون**) ـ البقرة ٢٦٧، أي لا تقصدوه، وتتحروه، وقال (**فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً**) ـ النساء ٦، ومنه سمي التطهر بالأرض «تَيَمَّماً».

ومنه كما يبدو سمي البحر والنهر العظيم «يَمّاً» لأنه يُقصد لأغراض متعددة، قال تعالى (**أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ**) ـ طة: ٣٩.

ويتفرع عن هذا الجذر «أَمَّ» عدة فروع أهمها: الأئمة، والإِمَام، وقد فرع عنه بعض اللغويين «الأُمّ» بمعنى أصل الشيء وأساسه، ولكن لم أجد علاقة بينهما تصحح ذلك، بل يبدو أن الأمر بالعكس وأن القصد متفرع عن الأُم، لأن ما يقصد يكون محورا واصلا بمعنى من المعاني، وتوجد قرائن مؤيدة لذلك منها عالمية لفظ الأم ومشتقاته على تفاوت فيه بسبب تفاوت اللغات. فإنّ لم تكن الأُمّ هي الجذر لأَمَّ

ـ يوسف: ٤٥.

ومنـه سمي الدين «أُمَّةً» لأنه أمر يجمع الناس هدى كان أو ضلالاً، ولكن استعمـل في القرآن بمعنى الضلال فقط **(إِنَّـا وَجَـدْنَـا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ)** ـ الزخرف: ٢٣.

ويحتمل ان يكون اشتقاقه من «أَمَّ» مباشرة لأنه أمر يقصده الناس.

فهي جذر مستقل وغير متفرع منه.

و«الأُمَـةُ» هي الجماعة من الناس ذات القصـد الواحـد، والتي يقصـدهـا الأفـراد. وقـد استعملها القرآن كثيراً في الذين يجمعهم دين واحـد هدىً كان أو ضلالاً، واستعملها قليلاً في الذين يجمعهم هدف واحد **(وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ)** ـ القصص: ٢٣.

ومنه سمي المقدار الكثير من الوقت نسبياً «أُمَّةً» تشبيها له بالأمة من الناس **(وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ)**

و«الإِمَـامُ» هو الشـخص الذي يقصـده النـاس، في الأمـور ليقتـدوا به «يَـأْتَمُّـونَ بـه» وهـو «يَـؤُمُّـهُمْ» أي يتقدم أمامهم بنفسه أو بتوجيهه فيتبعونه.

ومنه سمي ما يُستقبل من شيء او أمر «أَمَام» تشبيها له بما يقصد ويتبع.

وسمي الكتاب الآلهي «إِمَاماً» لأنه يؤتم به ويتبع.. الخ..

(٢)

في لغـات العـالم مجمـوعة أسماء لقيادة المجتمع، وهي تعبر بشكل وآخر عن فلسفة القيادة في البيئة التي وضعت فيها الكلمـة، وجعلت مصطلحاً، أو استعملت وسـادت، لأنهـا تتضمن أبعـاداً فكـرية وسيـاسيـة واجتمـاعيـة. فأسم «المَلِك» العالمي المشتق من التملك والسيطرة يدل على النظرة التي تشبّه المجتمع بالممتلكات المادية وتعطي حق التصرف فيه لشخص. واسم «الشيخ» الذي ينتشر في القبائل يدل على دور السن والتجربة في القيادة. واسم الرئيس يدل على حالة من التنظيم وموقع الرئيس منها.. الخ.

وتـدل الأسمـاء التي اختـارهـا الإسلام على الأبعاد والجوانب التي يهدف إبرازها من حالة القيادة المتعددة الأبعاد. فإسم النبيّ والرسول، واسم الإمام، وأمير المـؤمنـين، والعـالِم، والمَـرجـع، والوَالي، والأمـير، والرئيس.. هي اسمـاء مختارة لتعبر عن أبعاد مقصودة في القيادة الاسلامية.

وابرز الأبعاد في اسم «الإمامَ» ثلاثة:

فهو يدل **أولاً**، على دور الجماهير في الإمامة فالناس هم الذين يقصدون الإمام.

ويدل **ثانياً**، على وجود مقوّمات في شخصية الامام تُقصد وتُتّبع.

ويدل **ثالثاً** على حركة الإمام بالأمة، فهو الذي يتقدم بها ويؤمها فتَتّبعه..

وهي أبعاد لا توجد في أحدث النظريات العالمية في القيادة السياسية، فينبغي أن يسلط عليها الضوء باعتبارها تعطي ضوءا على نظرية الاسلام في القيادة، وباعتبارها تكشف عن الشكل الطبيعي لتكوّن القيادة في المجتمع البشري بما فيه المجتمعات الكافرة، لأن مصطلح الإمامة في القرآن يشملها.

(٣)

تدل آية (يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِم) الإسراء: ٧١، على اصالة ظاهرة التقليد السياسي في المجتمع البشري وأنها مستمرة الى يوم القيامة، فكل مجموعة من الناس «أنَاس» لابد أن يكونوا مقتدين بإمام وتابعين له، فهم جماعته ويدعون باسمه يوم القيامة.

فالإمامة تنقسم الى إمامة هادية وإمامة مضلة. وهي في كل منهما نسبية، فهناك إمامة جزئية في أمر من الأمور، أو جهة من الجهات، وامامة شاملة لكل ما يؤتم به. وهناك إمامة لأناسٍ قليلين أو شاملة للعالم. وامامة مختصة بمدة حياة الإمام، وامامة ممتدة بسيرته في الأجيال..

والمثل البارز الذي تبدأ به درجات الإمامة الاسلامية الامامة في الصلاة.. وأكملها إمامة النبيّ(ص) للعالمين والأجيال في كل ما يؤتم به، فمن ألقابه(ص) (إمَامُ الأئِمَّة» ومثلها إمامة النبيّ ابراهيم(ص)، ومثلها بشكل وآخر إمامة جميع انبياء الله صلوات الله عليهم، وقد ذكر الله تعالى مجموعة منهم ثم قال: **(أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِه)** - الأعراف: ٩٠.

وأوسع نطاق للإمامة الاسلامية في عصرنا «إمامة المسلمين» بمعنى رئاستهم العامة، وتسمى عند المسلمين السنة: إمامة المسلمين، وولاية الأمر، والخلافة، والولاية، وإمرة المؤمنين. وتسمى عند الشيعة: المرجعية، والنيابة عن الامام عليه السلام، وإمامة المسلمين، وولاية الأمر، وولاية الفقيه. والقاسم المشترك كما نرى

تسميتها بإمامة المسلمين وولاية امرهم، علىَ أن الأهم هو المسائل المتعلقة بمضمونها من قبيل وجوبها وشروطها وواجباتها.. الخ.

(٤)

الإمامة واحدة من أهم قضايا المسلمين الثلاث المعاصرة:

عودتُهم الى الاسلام.

وتحريرُ بلادهم من أعدائهم.

وإقامةُ الإمامة الاسلامية فيهم.

وعلى حسب السنن الإلٓهية في الأمم والمجتمعات فإن الحركة في هذه الأصعدة الثلاثة تكون مرادفةً ومتفاعلة، لذلك كان من المواضيع الهامة في مصطلح الإمامة بحث حركة الأمة الاسلامية نحو القيادة الشرعية، وعلاقتها بحركتها في العودة الى الاسلام، وحركتها في مقاومة أعدائها وتحرير بلادها.

وينبغي ان يبدأ الموضوع باستعراض حالة الأمة عشية تقويض الخلافة العثمانية وإلغاء منصب الخلافة رسمياً، ووصف ردّات فعلها العاطفية والعملية التي لم تكن بمستوىٰ غزو العدو، فكان أن عمّت الموجة الإستعمارية، وفَرضت على الأمة قيادات قامت على القوة والسيطرة وإرادة العدو المستعمر، وليس على أساس الاسلام وإرادة شعوب الأمة.. وأن يدور البحث على محورين: **الأول** : نقد الأسس التي قام عليها الحكم في البلاد الاسلامية منذ مطلع هذا القرن بمقياس الشروط الاسلامية للحاكم ومقياس رضا المسلمين واختيارهم.. والأعمال التي عبّرت فيها الأمة بشكل وآخر عن عدم شرعية الحكم المتسلط عليها.

والمحور الثاني: توجه الأمة في المقابل نحو علمائها ومثقفيها المتدينين المتحركين وثقتها بهم وايمانها بالطرح الاسلامي الذي يقدمونه ومن ضمنه الدعوة الى إقامة الإمامة الاسلامية والحكم الاسلامي، حتى أن عدداً من العلماء وقادة الحركات الاسلامية قد أخذوا البيعة من أعضاء حركتهم وأنصارهم.. فكل ذلك هو حركة من الأمة نحو الإمامة والقيادة الشرعية تأخذ أشكالاً تشبه البيعة، أو تكون بيعة فعلاً.

والمهم في هذا البحث استعراض أكبر عدد من نماذج الحكم في البلاد الاسلامية من زاوية عدم اعتراف الأمة بشرعيتها، وفي المقابل تحرك الأمة نحو

الإمامة والقيادة الشرعية.

ومما ينبغي الإلفات إليه في مثل هذه الموضوعات، أن مصادر تاريخ حركة الأمة في هذا القرن ومقاومتها للإستعمار وأعوانه الحكام قليلة جداً، وفي بعض المجالات والبلاد معدومة! وأنه يتعين على الكاتب من أجل أن يستعرض مقاومة الأمة للحكومة اللاشرعية التي اقيمت في تركيا مثلاً ومحاولاتها إعادة الحكم الاسلامي.. أن يرجع الى الصحافة التركية في تلك الفترة، وصحافة البلاد الاسلامية، وما يتعلق بالموضوع من صحافة العدو الغربية والوثائق، وأنه يحتاج في بعض المواضيع مثل حركة الشيخ النورسي رحمه الله إلى ان يأخذ من تلاميذه، والموثوقين المطلعين على حركته.. الخ.

والموضوع وان كان يدور على محورين هما عدم قانونية الأنظمة في بلادنا بعد الغزو الإستعماري وقانونية سعي الأمة نحو إقامة الإمامة، ألا انه بحث واسع بسبب كونه تطبيقياً على أنظمة الحكم في وطننا الاسلامي المجزء، ولمدة قرن من الزمان.. لذلك يحسن أن يأخذ الكاتب جزءاً منه، بلداً أو منطقةً معينة، ويبحث الموضوع في نطاقها.

(٥)

تتضمن آيات الإمامة المتقدمة والآيات الأخرى والأحاديث الشريفة المتعلقة بالموضوع جوانب جديدة من مفهوم الامامة والقيادة في الاسلام ونظريته فيها.. منها ما يتعلق بفلسفة الإمامة ودورها، ومنها ما يتعلق بشخصية الإمام، ومنها ما يبين علاقة الأمة بالإمام.. الخ. وهي جميعاً مواضيع مهمة وحيوية ينبغي بحثها ونشرها بين المسلمين.. ونظراً لوضوح أكثرها نكتفي بإجمال عدد منها:

فمنها: هذا التقابل الدائم في القرآن والسنة بين إمامتين في الأرض، إمامة واحدة تهدي بأمر الله وتفعل الخيرات، وائمة كفر وأحزاب يدعون الى النار وظالمين لا نصيب لهم في الإمامة وان ادَّعوها.. مما يكشف الصراع الدائم بين خطّي الإمامة الهادية والإمامة المضلة، وأنه لا إمامة في الاسلام خارج هذا الطرح حتى يرث الله الأرض ومن عليها أو يحدث امراً.

ومنها: دور الإمام وواجباته، وقد تضمنت نصوص الإمامة بالإضافة الى واجب مقاومة أئمة الكفر المتقدمة،

الخطوط العامة وعدداً من الخطوط التفصيلية لواجبات الإمام الأخرى. فالطابع العام لدور الامام هو الهداية والتوجيه (**يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا**) ـ الأنبياء: ٧٣ و ـ السجدة: ٢٤.

والخط الستراتيجي للإمام هو العمل بالكتاب الآلهي وعدم الإفتراق عنه، فالكتاب هو الامام المدوّن، وإمام المسلمين هو الناطق عنه المطبّق لشرائعه ومفاهيمه، وهما شريكان في الإمامة لا يجوز افتراقهما.

والواجبات العملية للإمام كثيرة، ذكرت الآيات الكريمة منها فعل الخيرات، واقام الصلاة، وايتاء الزكاة، ووراثة الارض، وذكرت سورة الفرقان عدداً كبيرا منها، وذكرت الأحاديث الشريفة عدداً اكبر. وينبغي تصنيفها الى حقول متعددة ابتداء باختيار الإمام لمعاونيه ووزرائه وسلوكه معهم، ثم اختياره للولاة والعمال وتعامله معهم، ثم سياسته في مجالات حياة الامة المختلفة، ومع فئاتها المتعددة.. الى سياسته الخارجية في الحرب والسلم والعلاقات.

ونجد هذا التقسيم عملياً وبليغاً في العهد المفصل الذي كتبه أمير المؤمنين عليّ(ع) الى أهل مصر مع واليه مالك الأشتر رحمه الله.

ومنها: صفات إمام المسلمين، الصفات الفكرية والروحية والسلوكية، وينبغي التمييز في ذلك بين مستويين من هذه الصفات.

أولهما ، الصفات الواردة في القرآن الكريم للأئمة من كبار الأنبياء صلوات الله عليهم، ومثلها عندنا نحن الشيعة الأحاديث الواردة في صفات الإمام المعصوم المفترض الطاعة حيث يشاركون في ذلك الأنبياء عليهم السلام، فمثل هذه الصفات ينبغي تقديمها الى الأمة على أنها صفات الإمامة بمعناها الخاص للذين اصطفاهم الله تعالى لوحيه، أو نص عليهم نبيه(ص).

وثانيهما : مستوى الحد الأدنى من صفات إمام المسلمين الذي يحق له التصدي لقيادتهم وتولي أمورهم.

واخيراً، فإن من مواضيع الإمامة السياسية: علاقة الأمة بالامام، دورها في تنصيبه، وواجباتها نحوه إن استقام واصلح، وواجباتهما إن قصر أو انحرف.. ويتفرع هذا الموضوع الى مجموعة مسائل:

الأولى: مسألة البيعة وحدود وجوبها على الأمة، وما يترتب عليها، وبحث الإنتخابات وبيان قيمتها الفقهية وهل تعتبر أنواعا من البيعة.

والثانية: العلاقة الايجابية بين الأمة وولي أمرها ومعاونيه.. على مستواها الفقهي والحقوقي، وعلى مستواها الأخلاقي العاطفي الذي يحرص عليه الاسلام أيضاً.

والثالثة: مسألة رقابة الأمة على وليّ الأمر والجهاز الحاكم «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» وهي مسألة هامة أكدت عليها الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، ولكنها تفتقر الى الصيغ التطبيقية الملائمة لعصرنا.. فالرقابة السياسية تتوقف على اطلاع الأمة على الاوضاع السياسية والإدارية، وهذا يعني أن المسافة ينبغي أن تكون قليلة جداً بين ما يدور في الشارع الاسلامي والسوق الاسلامية، وبين ما يدور في أوساط الجهاز الحاكم، فما هي الامور التي يجب على وليّ الأمر وعمّاله أن يطلعوا عليها جمهور المسلمين، وتلك التي لا يجب أو لايجوز أن يطلعوا عليها؟

ورقابة الأمة تتوقف على وجود جهاز قضائي حيوي لا تأخذه في الله لومة لائم، لكي يشعر المسلم انه إذا اشتكى على موظف أو مسؤول فإن الحقّ سيأخذ نصابه.

ورقابة الأمة تحتاج الى تقنين الحالات التي يجوز فيها للأمة أن تقوم بأعمال المحاسبة والأعمال السلبية تجاه المسؤول الذي لا تستطيع أن تشتكي عليه، أو تجاه المظاهر المخالفة للاسلام التي لم يصححها المسؤول رغم تنبيهه.. فمتى تجوز الشكوى على الموظف العادي وعلى المسؤول الاكبر، وعلى ولاة المحافظات، ومعاوني الوزارات، والوزراء، ورئيس الجمهورية.. الخ .. ومتى يجب أن تكون الشكوى سراً، ومتى يجوز أو يجب أن تكون علناً، ومتى تحل غيبة المسؤول وشكوى ظلامته، وفي أيّ نطاق، ومتى يجوز التظاهر ضده أو يجب؟

إن تقنين رقابة الأمة على الجهاز الحاكم ابتداءً من حقها في الاطلاع السياسي وحقها في الشكوى والمرافعة. وحقها في الكلام وكشف الخطأ، واظهار عدم الرضا والسخط، وحقها في التظاهر، وفي عزل الموظف أو المسؤول، أوواجبها في ذلك.. مسائل حيوية في موضوع الامامة، تحتاج الى تقنين حتى لا تبقى رقابة الأمة

نظريـة أو عـامة قليلة الفائدة، وقد خطت الجمهـورية الاسلامية في ايران خطوات حسنـة في هذا المجال، ولكن حق الرقابة للأمّة ينبغي ان يتبلور في صيغ اسلامية قانـونيـة بحيث يعـرف الفلاح في القرية والعامل في المصنع حدود حقه في الرقابة، والطرق القانونية للوصول اليه.

ومن النـافـع في هذا المجال تقديم الطروحـات القانونية والافكار حول رقابة الامة، من نصوص القرآن والسنة الشريفة ومن سيرة النبي(ص) وأئمـة المسلمـين عليهم السلام.

(٦)

في الامـامـة والخـلافـة بعـد النبي(ص) مجمـوعـة مسـائل اعتقادية سياسية تاريخية، وكثير منها مسائل مؤثرة في حيـاة المسلمين المعاصرة بشكل وآخر. من قبيـل مسـألة النصّ على الإمـامـة والخـلافـة، ومسألة تحديد معنى المودة الواجبة لقربىٰ النبي(ص) **(قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ)** وتحديد من هم القربىٰ وأهل البيت عليهم السلام، ومسـألة النص على إمـامة الأئمة الأحد عشر من ذرية علي وفاطمة عليهم السلام، ومسـألة موقـف الإمـام عليّ الفـقهي والسيـاسي من خلافـة أبي بكـر وعمـر وعثمان، وموقف الأئمة من بعده من الحكم الأمـوي والعبـاسي، ومن أئمـة المذاهب الأربـعـة، وبـقيـة المـذاهب والفـرق الاسلامية.. الخ.

ومثل هذه البحوث تكون نافعة إذا تحققت فيها ثلاثة شروط:

الأول: أن تكـون بحـوثـاً علميـة مجردة عن ذاتية الكاتب الى أقصىٰ حد ممكن.

والثاني: أن تخدم وحدة المسلمين، ولا تسبب الفرقة أو البغضاء بين مذاهبهم وفئاتهم.

والثـالث: أن تخـدم صراعـهـم المصيري مع أعدائهم اهل الكفر العالمي، ولا تسبب إضعافاً له.

(٧)

تمتاز قضية المهدي سلام الله عليه وعجل الله فرجه بأن من شأن البحث فيها توحيد المسلمين وبعَث الأمل فيهم بالنصر على عدوهم. فهي في أصلها موضع اجماع المسلمـين حيث يروون جميعـا أحاديث البشـارة بالمهـدي ويعتقدون أنه سيظهر ويحكم العالم ويملؤه قسطاً وعدلاً.

ويـفـتـرق الشيعـة عن السنـة

بالاعتقاد بأن المهدي هو الامام الثاني عشر محمد بن الحسن العسكري عليهما السلام ولد سنة ٢٥٦ هجرية بسامراء من العراق وأن الله تعالى قد أمدّ في عمره كالخضر عليهما السلام فهو حيٌّ غائب الى حين ظهوره.. وفيما عدا هذه الناحية يشترك جميع المسلمين في أحاديث صفاته، وعلاماته، وحركته، وكراماته، وجهاده، وانتصاراته، وشمول الاسلام لكل العالم علي يده، وشمول عدله وبره لشعوب الأرض، وفقرائهم خاصة.. وبذلك تكون ثورة المهدي المنتظرة حتى في كثير من تفاصيلها عقيدة لجميع المسلمين وقاسما مشتركا ينبغي توعيتهم على نصوصها الشريفة وأبعادها السياسية وواجبهم في التمهيد لها، ونصرتها عند بوادر ظهورها..

وأكثر ما يحتاج اليه المسلمون اليوم هو الاطلاع على أحاديث البشارة النبوية بالمهدي، فيبغي نشرها بين المسلمين بأساليب متعددة وتفسيرها لهم. وكذلك الآيات المفسرة بالمهدي وحركته في كتب التفسير المشهورة.

من إصدارات دار القرآن الكريم

العروة الوثقى

تفسير سورة الحمد

للشيخ البهائي

محمد بن الحسين بن عبد الصمد العاملي الحارثي

(٩٥٣-١٠٣١)

صححه وحققه وعلق عليه

اكبر ايراني قمي

سلسلة آثار المحقق خواجوئي

الدرر الملتقطة

في تفسير الآيات القرآنية

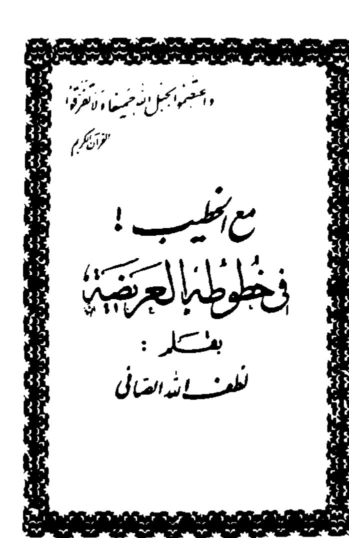
للعلامة المحقق

محمد اسماعيل بن الحسين بن محمد رضا المازندراني الخواجوئي

المتوفى سنة ١١٧٣ ق

جمعه ورتبه وحققه

السيد مهدي الرجائي



اقطاب الدوائر

في تفسير آية التطهير

تأليف

العلامة الحجة الشيخ عبد الحسين

من علماء القرن الثاني عشر

ويليه رسالتان حول العصمة

للعلامة آية الله الشيخ لطف الله الصافي

دام ظله الوارف

من منشورات دار القرآن ـ قم ـ شارع الشهداء

أخبار قرآنية

إعداد: حسن فرقاني

إنعقاد المؤتمر الرّابع لدار القرآن الكريم للأبحاث والدّراسات القرآنية

سينعقد المؤتمر السنوي الرابع للأبحاث والدراسات القرآنية الذي تقوم به دار القرآن الكريم وذلك يومي السبت والأحد الموافق لـ:٢٦و٢٧/ رجب /١٤١٢هـ في مبنى الدار الواقعة في مدرسة آية الله العظمى السيد الگلپايگاني بمدينة قم المقدسة.

وبعد دراسة الإقتراحات والأفكار المقدَّمة من قِبل العلماء والأساتذة في الحوزات العلمية والجامعات، أختير الموضوع التالي: «القرآن الكريم وأهل البيت عليهم السّلام»، وثمة سبعة مواضيع أخرى تتفرع عن العنوان الرئيسي.

ممّا تجدر الإشارة إليه أنّ المؤتمر ينعقد سنوياً في ذكرى المبعث النبوي الشريف ويشارك فيه كبار العلماء والباحثين في الجمهورية الإسلامية الإيرانية.

ليلة في رحاب القرآن

أقامت إدارة الأوقاف والأمور الخيرية بمدينة إصفهان حفلاً قرآنياً بجوار المرقد المطهر لقائد الثورة ومؤسس الجمهورية الإسلامية الإمام الخميني -رضوان الله تعالى عليه-

في مقبرة جنة الزهراء واشترك فيه القراء والأساتذة والمتخصصون في الشئون القرآنية وقدّمو فيه برامج متنوعة. وحضر الحفل نجل الإمام الراحل، سماحة حجة الإسلام السيد أحمد الخميني وقد ألقى كلمة تحدّث فيها عن دور القرآن ومكانته في إيران قبل وبعد الثورة الإسلامية وقال في معرض حديثه عن أهمية تلاوة القرآن: فقد يؤثر الصوت الحسن في تلاوة القرآن فيغيّر البعض ويخرجهم من الظلمات الى النور.

وأضاف وهو يتحدث عن إستئناس الإمام الراحل بالقرآن:

لقد كان الإمام يقرأ القرآن في اليوم خمس مرّات ويختمه في شهر رمضان ثلاث مرات.

وأضاف قائلاً: أن الذي يبلغ بالإنسان سواحل النجاة إنّما هو العمل بالقرآن الكريم.

إنعقاد مؤتمر «القرآن والتعبئة»

تحت عنوان «القرآن والتعبئة» إنعقد المؤتمر الثاني من قِبل ممثّلية ولاية الفقية في قوّات التعبئة، وذلك في يومي السبت والأحد المصادف لـ ١٥و١٦/ جمادي الأولى/١٤١٢هـ. بمدينة طهران.

وأفاد مراسلنا بأن هذا المؤتمر الذي عُقد في حسينية إرشاد، حضره ثلّة من أصحاب السماحة العلماء والمسؤولين في الجمهورية الإسلامية وقد تحدث في هذه المراسم ممثّل الوليّ الفقية في قوات التعبئة وتعرّض خلال حديثه لأهداف عقد هذا المؤتمر. ثم تطرّق لنشاطات قوات التعبئة في مجال الثقافة القرآنية. بعد ذلك ألقى ممثل الوليّ الفقية في الحرس الثوري كلمة أشار فيها إلى أهمية نشر وترويج الثقافة القرآنية بين صفوف قوات التعبئة

والإهتمام بتلاوة وحفظ القرآن الكريم.

وفي الختام أعرب سماحته عن الأمل أن ينعقد هذا المؤتمر في العام القادم بمشاركة القوات المسلحة لسائر الدول الإسلامية على هيئة مؤتمر عالمي إسلامي وتحت عنوان «القرآن والتعبئة».

حذف الآيات القرآنية والأحاديث النبوية من المناهج الدراسية في الأراضي المحتلة

ذكر تقرير صادر عن المركز الثقافي الإيراني بدمشق أن أحد المسؤولين الفلسطينيين الذي زار القاهرة مؤخراً كشف النقاب عن أن قوات الإحتلال الصهيوني عمدت الى حذف الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة التي تدعو المسلمين الى الجهاد ومقاومة الكفار من المناهج الدراسية في مدارس الضفة الغربية وقطاع غزة المحتلّين.

وأضاف هذا المسؤول أن وزارة التعليم في إسرائيل إعتبرت حذف دروس التاريخ والتربية الوطنية، شرطاً لإستئناف الدراسة في الأراضي المحتلة.

القرآن الكريم... الكتاب الأكثر مبيعاً في أمريكا!

يعتبر القرآن الكريم الأكثر مبيعاً في الولايات المتحدة الأمريكية. هذا ما صرّح به الدكتور عبد الرحمن عبد العزيز خلال مقابلة له مع صحيفة «طهران تايمز».

وأضاف: إن الشعب الأمريكي يبدي إهتماماً متزايداً بالدين الإسلامي الحنيف... وأن المسلمين في أمريكا الذين يبلغ عددهم عشرة ملايين نسمة يُعَدون ثاني أكبر أقلية دينية... وأعرب عن أمله بأن يمارس المسلمون في أمريكا دوراً مهماً في الحياة السياسية والإجتماعية لهذا البلد، وتمنىٰ أن يقوم الجيل الجديد من الشباب المسلم في أمريكا بتوعية

الناس وتحذيرهم من تأثير التيارات الهدامة والمنحطة، بعد تربيتهم وتعليمهم بشكل صحيح.

جدير ذكره أن الدكتور عبد الرحمن عبد العزيز يعمل طبيباً في ولاية كاليفورنيا وقد قام بزيارة لإيران مؤخراً.

أصغر نسخة خطّية للقرآن الكريم

تم العثور على أصغر نسخة خطّية للقرآن الكريم في الأردن. وفي هذا السياق، ذكرت صحيفة «نيوز» التي تصدر في إسلام آباد، أن المركز الوطني الأردني للوثائق قد أعلن أن هذه النسخة النادرة تعود إلى عام ٩٠٤هـ وقد كُتبت بمناسبة المولد النبوي الشريف ويبلغ طول هذه النسخة ٢سم وعرضها سنتيمتر واحد ويمكن قراءتها بالعين المجردة وقد وُثّقت هذه النسخة من قِبل أكثر من عشرة علماء دين في الأردن.

وأشارت الصحيفة المذكورة الى أن هذه النسخة من القرآن الكريم تعود الى أحد أبناء الشيعة في الأردن كانت قد إنتقلت اليه من أجداده بالأرث. ولم تذكر الصحيفة أية تفاصيل أخرى عن نوع الخط أو الورق لهذه النخسة المخطوطة النادرة.

اثقل واوزن مخطوطة للقرآن الكريم

طبقاً لتقرير طبع في الصحيفة الشهرية الإسلامية «إسلامك وائس» الصادرة عن بنغلور الهند، توجد مخطوطة قرآنية نادرة في جلالفور بباكستان، وهي أوزن مخطوطة للقرآن الحكيم في العالم، قام بكتابتها خطاط باكستاني إسمه الحاج بشير، وهو ينتمي الى جلالفور المذكور أعلاه، أتم كتابتها في مدة عامين، إن هذه المخطوطة مكتوبة على ورق خاص قد إستورد لهذا الغرض من أمريكا وذكرت الصحيفة أن الورق

والحبر والتجليد والألوان المختلفة المستعملة فيها قد كلف حوالي٦٢٠٠دولار.

إن هذه المخطوطة منقسمة الى ثلاثين جزءً ووزن كل جزء منها ٥٠كيلو غراماً، أما الوزن المجموعي لها فهو يبلغ ١٥٠٠كيلو غرام، وفضلاً عن ذلك يفيد التقرير أن هذه النسخة الثمينة تحمل الى جميع البلاد الكبيرة لباكستان وتعرض في معارض شتى، واخيراً أودعت في المتحف القرآني الخاص بمدينة فيصل آباد بباكستان.

إقامة مسابقة لحفظ وتلاوة القرآن الكريم في غانا

أقامت الملحقية الثقافية لسفارة الجمهورية الإسلامية الإيرانية في غانا مسابقة لحفظ وتلاوة القرآن الكريم في المسجد الجامع في العاصمة آكرا، إشترك فيها عشرات من قراء وحفاظ القرآن الكريم في غانا.

وقد تحدث الملحق الثقافي الإيراني في هذه المسابقة التي حضرها عدد من العلماء وأئمة الجمعة ومُدراء المدارس الإسلامية في غانا وجمع غفير من المسلمين الغانيين، وتطرق فيها الى ضرورة الإعتصام بعلوم القرآن الكريم، الى جانب الإهتمام بتحصيل العلوم الأخرى كي يتمكن المسلمون في البلاد الإسلامية من الإشتراك بشكل فعالٍ بأمور بلادهم الإجتماعية والسياسية.

وفي نهاية هذه المسابقة وُزِّعت الجوائز على الفائزين من قِبل الملحقية الثقافية الإيرانية هناك.

إقامة المسابقة السنوية الرابعة للقرآن الكريم في رحاب جامع العثمان بدمشق

أقامت وزارة الأوقاف السورية في المدة من (٣-٧)ربيع الثاني١٤١٢هـ مسابقتها السنوية الرابعة للقرآن الكريم تلاوة وحفظاً وتجويداً وذلك

في رحاب جامع العثمان بدمشق وبمشاركة مجموعات كبيرة من طلبة معاهد الأسد لتحفيظ القرآن ينوف عددهم على ثلاثمائة مشارك من مختلف المحافظات السورية وبإشراف مسؤولي التعليم الشرعي في الوزارة ونخبة من شيوخ القراء والمحكّمين.

وقد إفتتح المسابقة واختتمها وزير الأوقاف السّوري عبد المجيد الطرابلسي بحضور جمع من علماء الشريعة الإسلامية والمدرّسين الدينيين وجمهور من المواطنين.

وألقى الوزير كلمة في كل من حفلي الإفتتاح والإختتام اللذين إستهلا بتلاوة قرآنية مباركة تحدث فيها عن أهمية هذه المسابقة وفوائدها العلمية والدينية والإيمانية. وشكر للمشرفين جهودهم وإسهامهم في نجاح المسابقة وبلوغ نتائجها الطيبة متمنياً للطلبة المزيد من النجاح والتوفيق.

وأكد أن القرآن أساس الدين وقد أودع الله فيه علم كل شيء وهو النور المنزل على قلب سيدنا محمد (صلّى الله عليه وآله وسلّم) ليكون هدى ورحمة وبشرى للمسلمين.

وقد إشتمل حفلا الإفتتاح والختام على عدة تلاوات قرآنية للطلبة المشاركين، وفقرات من الأناشيد الدينية كما أقيم ثالث أيام المسابقة حفل تكريم خاص بالحفاظ من الطلبة ناف عددهم على أربعين حافظاً رعاه وزير الأوقاف وذلك تشجيعاً لهم وتقديراً لجهودهم في الحفظ وإتقان الترتيل والتجويد.

وفي ختام المسابقة تليت أسماء المتفوقين في فروع المسابقة الثلاثة حيث قام الوزير بتسليمهم الجوائز التشجيعية والرمزية التي وزعت عليهم إضافة الى الجوائز النقدية.

هذا وقد إختتم الحفل بالدعاء والتنويه بإعجاز كلام الله العظيم وبالحث على قراءة القرآن وتدبر

معانيه والإستشهاد بالأحاديث النبوية في هذا الصدد ومنها قوله (صلّى الله عليه وآله وسلّم): «فإذا التبسَت عليكم الفِتَنُ كقِطَعِ اللّيلِ المُظلِمِ فَعلَيكُم بِالقرآن».

المراكز القرآنية

«منظمة الأوقاف والأمور الخيرية»

تعتبر منظمة الأوقاف والأمور الخيرية في طليعة المراكز والمؤسسات التي بادرت الى الاهتمام بالنشاطات القرآنية تجويداً، وتلاوةً، وحفظاً.

وفيما يلي جانب من هذه النشاطات خلال العامين المنصرمين:

أ- نظراً لحاجة المسلمين الماسّة الى الكتاب الإسلامي وبشكل خاص القرآن الكريم،قامت منظمة الأوقاف والأمور الخيرية خلال العامين الماضيين، بطبع وتوزيع (٦٠٠,٠٠٠) نسخة من القرآن الكريم، والكتب الدينية والعقائدية الأخرى بمختلف اللّغات. وقد أسهمت بذلك في تلبية حاجة المسلمين في هذا المجال، بشكلٍ مؤثرٍ الى حدّ كبير.

ب- إسهاماً منها في إشاعة ونشر الثقافة القرآنية بين صفوف المجتمع الإسلامي، شرعت هذه المنظمة في إقامة المسابقات لتلاوة وحفظ القرآن الكريم، وتُجرى هذه المسابقات سنوياً على ثلاثة مستويات «المدينة، المحافظة، البلاد» ويكافأ الفائزون في هذه المسابقات بالتشرّف بزيارة بيت الله الحرام.

وقد أقيمت لحدّ الآن ثلاث عشرة دورة من هذه المسابقات.

ج- ومن النشاطات الأخرى لهذه المنظمة إقامة المسابقات الدولية لحفظ وتلاوة القرآن الكريم واقيم منها سبع دورات لحد الآن.

ويشارك في هذه المسابقات، كل عام، جمع من قراء وحفاظ القرآن الكريم من إيران وسائر الدول

الإسلامية، وبحضور عدد من المسؤولين الكبار في الجمهورية الإسلامية. وذلك بحسينية إرشاد بطهران...

د- ومن نشاطات المنظمة أيضاً دعوة بعض من مشاهير القراء المصريين الى الجمهورية الإسلامية. وقد مرّت الإشارة الى ذلك في العددِ السابق من «رسالة القرآن».

هـ- تلبية لطلبات المسلمين في أنحاء مختلفة من العالم، يتم سنوياً إيفاد عدد من قراء القرآن الكريم الى تلك المناطق، وخاصة في مناسبات شهر رمضان المبارك، وأسبوع الوحدة الإسلامية «١٢-١٧ربيع الاول»، وعشرة الفجر المباركة «ذكرى انتصار الثورة الإسلامية».

جدير بالذكر أن هؤلاء القراء يُستقبلون بحفاوة بالغة، من قِبل المسلمين، في كافة المناطق التي يتوجهون إليها.

و- ومن نشاطاتها أيضاً إقامة جلسات لتلاوة القرآن الكريم وحفظه في مختلف المدن الإيرانية حيث يشارك فيها الآلاف من أبناء الشعب الإيراني المسلم.

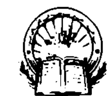
* * *

عالم المخطوطات

تعريف موجز بمخطوطات مكتبة آية الله العظمى السيد الكلپايگاني

إعداد: أبو الفضل عــرب زاده

تعريب: علي جمال الحسيني



طلبت «رسالة القرآن» من مكتبة آية الله العظمى السيد الكلپايگاني العامة تزويدها بفهرست المخطوطات القرآنية –تفسير وعلوم القرآن– لنشرها تباعاً في المجلة.

وقد إستجاب أمين المكتبة مشكوراً مشاركة منه في تعريف المخطوطات وتقديم الخدمة للمحققين ونشر المعارف والحقائق القرآنية وتقديمها للقارئ المسلم.

وكان في نية أمين المكتبة إعداد بطاقات مفصلة عن النفائس والمخطوطات القيمة تحتوي:

عنوان الكتاب، رقمه، ترجمة المؤلف، المترجم، الموضوع، الفصول والأبواب، قياسات السطور، نوع الخط، تاريخ الإستنساخ، إسم المستنسخ، محل الإستنساخ، بداية الكتاب وخاتمته، إسم الشخص الذي أهدي اليه الكتاب.

بيد أن هذا النوع من الفهرسة عمل دقيق وشاق خصوصاً مع ملاحظة ما تتعرض له المخطوطات من نقص وقدم تضطر الكاتب لمطالعة المتون وجمع القرائن الكافية للتوصل الى معرفة الكتاب.

ومن هنا رجحّ الإختصار بالمقدار الذي ينتفع به المحقق مع صور عن الصفحة الأولى والأخيرة للمخطوط.

تأويل الآيات الظاهرة في فضائل العترة الطاهرة

٥/١٠٣ [بالعربية]

في تفسير وتأويل الآيات الواردة في فضائل الأئمة الطاهرين ومدح شيعتهم ومحبيهم وذم أعدائهم ومبغضيهم حسب ترتيب السور القرآني، وقد اعتمد الروايات الواردة بالطرق الخاصة والعامة، وهو ناقص الاول -صفحة من المقدمة- وناقص الآخر ويحتوي على سورة الفاتحة الى سورة المطففين.

تأليف: السيد شرف الدين علي الحسيني الاستربادي الغروي (٠٠٠-٩٤٠هـ) من تلاميذ المحقق الكركي.

موضوعه في العقائد ويحتمل أن يكون تاريخ الاستنساخ ١٢٩٥ هـ.

والمستنسخ: إسماعيل بن عبد الله الخوانساري.

الصفحات: ١٩١،

القياسات: ٢٢×١٥سم.

أوله: ...يستمعون القول فيتبعون أحسنه، والقول هو القرآن، ويؤيد هذا ما رواه الشيخ أبوجعفر الطوسي باسناده الى فضل بن شاذان.

آخره: ...وذريتك في الدرجات العلى في عليين وقلت بأبي أنت وأمي يا رسول الله فشيعتنا قال: شيعتنا معنا وقصورهم...

تجويد القرآن

٥/١٠٣ [بالفارسية]

يحتوي على ١٤فصلاً في قواعد التجويد وأحكامه وبيان مخارج الحروف.

المؤلف: محمد زمان التبريزي ابن الحاج محمد طاهر.

الموضوع: علوم القرآن -التجويد-.

المستنسخ: إسماعيل بن عبد الله الخوانساري.

تاريخ الاستنساخ: ١٢٩٥هـ.

الخط: نسخ.

عدد السطور: ٢٣، قياسات الكتاب:

۲۲×۱٥.

عناوين الفصول وعناوين المطالب خطت بالحبر الاحمر.

أوله: بعد البسملة... الحمد لله الذي جعلنا مطيعاً لاحكام القرآن وقارياً... أما بعد يقول أقل خلق الله في طاعته وأرجيهم بنيل مغفرته ابن الحاج محمد. طاهر محمد زمان التبريزي... الخ.

آخره: ...بعد از آن رمز اتفاق افتاد. در ميان جميع استادان نمقه اقل عباد الله اسمعيل ابن عبد الله خوانساري في يوم الثلثا ثامن عشر شهر ربيع الثاني ۱۲۹٥هـ.

وتوجد للكتاب نسخة أخرى في المكتبة تحت رقم ۲٦/۱۹٦

الكشاف عن حقائق التنزيل

۸/۱۸ [بالعربية]

تفسير الكشاف للزمخشري من التفاسير التي ركزت على الجانب الادبي في القرآن ولم تغفل تفسير الآيات وبيان معناها. وبالرغم من أن الكتاب من القرن السادس الهجري، إلا أنه لا زال محتفظاً بقسيمته الادبية الى يوم الناس هذا حيث ينتهل منه العلماء والفضلاء، وقد إستقبله العلماء بالمدح والثناء منذ الايام الاولى لتأليفه وكتبوا في شرحه والتعليق عليه وتلخيصه وطبع مراراً في إيران والبلاد الاسلامية الاخرى.

والنسخة المتوفرة لدينا من أول سورة مريم الى آخر القرآن، وهي مستنسخة عن الاصل -بخط المؤلف- الذي فرغ من تأليفه في مكه المكرمة يوم الاثنين ۲۳، ربيع الثاني سنة ٥۲۸هـ.

تأليف: الزمخشري، محمود (٤٦۷-٥۳۸).

محمود بن عمر بن محمد الخوارزمي الزمخشري، أبوالقاسم جارالله، مفسر، محدث، متكلم، نحوي، لغوي، بياني، أديب مشارك في العلوم ومعتزلي المذهب.

ولد في زمخشر من قرى خوارزم في ۲۷رجب سنة ٤٦۷هـ، درس المقدمات والسطوح والادب وسافر الى بغداد لأخذ

الحديث والفقه وتوجه من هناك الى بيت الله الحرام في مكة وبقي مجاوراً هناك حتى عرف بـ«جار الله».

وبعد عودته من مكة المكرمة وافته المنية في جرجانية خوارزم ليلة غرفه من سنة ٥٣٨هـ.

وله مصنفات كثيرة وردت في كشف الظنون وإيضاح المكنون وهدية العارفين وغيرها من كتب الرجال والفهرسة.

«أنظر: كشف الظنون ١/١٤٧٥ معجم الادباء ١٩/١٢٦-١٣٥ ، وفيات الاعيان ٢/١٠٧-١١٠ ».

موضوع الكتاب: التفسير وفق المذهب المعتزلي.

الكاتب: شرف بن يوسف بن محمد الفارابي.

تاريخ الاستنساخ: ٧٠٠هـ.

الخط: نسخ أندلسي قديم.

عدد السطور: ٣٣، عدد الصفحات: ٢٣٨، القياس: ٣٦×٣٠.

العناوين: أوائل السور وأوائل البحوث معلمة بالحبر الاحمر، كما أنها مزخرفة ومخططة بالخطوط الحمراء الدقيقة.

الهوامش: يتضح من إختلاف الخطوط التصحيحية والتعليقية أن هناك عدة أشخاص همشوا على الكتاب.

أوله: بعد البسملة... بفتح الها، وكسر اليا، همزة وبكسرهما عاصم، وبضمهما الحسن، وقرأ الحسن ذكر رحمة ربك.

آخره: آخر سورة الناس... فرغ من تحرير الكشاف عن حقائق التنزيل... يوم الاثنين وقت الضحوة الكبرى أربع عشر من شعبان سنة سبعمائة.

الاختام: يلاحظ في الصفحة الاولى وبعض الصفحات الاخرى عن النسخة ختم مثمن «ثماني الاضلاع» مكتوب عليه «باطلاع حاج محمد على كتاب موقوفه مرحوم حاجى ملا هادى مجتهد طهرانى بسعى محمد جعفر».

الاهداء: من أوائل الكتب في المكتبة ويحتمل أن يكون من ضمن مجموعة

الكتب التي أهداها المرحوم الحاج الشيخ عبد الرزاق الكتابچي الى المكتبة.

نزيل التنزيل في التفسير

٥/٥٩

وهو تفسير وجيز كتفسير الجلالين إلا أنه أوسع منه قليلاً، واقتصر فيه على قراءة حفص لشهرتها في البلاد الرومية، وشرع في تأليفه ببلدة اقحصار من اعمال صاروخان في مستهل شهر رمضان سنة إحدى وثمانين وتسعمائة.

وفي هذا التفسير لطائف كثيرة منها: أنه إستخرج معميين أحدهما إسم محمد، إستخرجه من أول سورة الحمد وأول سورة البقرة. وفيه عمل عجيب وحله سهل ممتنع، إذ إستخرجه على أن تكون ألف ولام الحمد ميماً يعني الحمد وألم معمى باسم محمد (صلى الله عليه وآله).

والثاني: في إسم هود واستخرجه من سورة هود من قوله تعالى: ﴿**وما مِن دابَّةٍ إلَّا هو ءَاخِذٌ بِناصِيَتِها**﴾(هود:٥٦) وغير هذا من الاستخراجات اللطيفة والنكات البديعة المستحسنة.

وعندما أتمه عرضه على الموالي فكتبوا له تقريضاً «تقاريظاً» ثم أهداه الى السلطان مراد خان، وتشرف بميامنه بمشيخة الحرم النبوي وجاور بها الي أن مات في سنة (١٠٠١هـ)، ومنهم تقريظ شيخ الاسلام محمد بن محمد بن الياس المعروف بچوي زاده فقال فيه:

أكرم بتفسير كروض ناظر
لم يمل حبر مثله بمحابر
حاول لكل فوائد كقلائد
وبدائع خطرت ببال عاطر
بعبارة قد أحكمت وبراعة
قد أبكمت لسن البليغ الماهر
شمس المعارف والفضائل أشرقت
يهدي سناها كل قلب حائر
مولاي محي الدين دمت منولا
من يم فضلك كل در فاخر

النسخة من سورة الحمد الى آخر سورة الكهف. وهو من الكتب النفيسة النادرة الموجودة في مكتبة آية الله العظمى الكلپايگاني تحت رقم-٥/٥٩

تاليف: المنشي، محمد (۰۰۰۰–۱۰۰۱) محمد بن بدر الدين الرومي الاقحصاري الصاروحاني الحنفي المشهور بالمنشي المتوفي بمكة سنة ۱۰۰۱هـ، وهو من أجلة العلماء والمحققين في القرن العاشر الهجري، وله مؤلفات منها: رسالة في التعريب وشرح البردة وسماه «طراز البردة»، و«نشوء البراعة في وصف البراعة». (راجع: كشف الظنون ١/٤٥٩ و ٢/١٩٥، وخلاصة الاثر ٣/٤٠٠، ومعجم المؤلفين ٩/٩٩).

مستنسخ: في القرن العاشر.

خطه: نسخ وفارسي.

صفحاته: ۱۹۹، قياس: ۲۳×۱/ ١٤,٢.

سطوره ۲۷ قياس ١/١٦,٢×٨ كتبت عناوينه وآياته وبدايات السور بالحبر الاحمر وفي هوامش بعض صفحاته ختماً بيضوياً مستوراً بالورق واللاصق وفي أول صفحاته إسم السورة التي يريد تفسيرها بالحبر الاسود.

أوله: بعد البسملة والحمد... الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب والصلاة والسلام على بني أمي فسره بالصواب وعلى آله وصحبه أصحاب شرف الانساب والاسباب...

آخره: سورة الكهف من قرأها يوم الجمعة غفر له الى يوم الجمعة الآخر وزيادة ثلاثة أيام وأعطى نوراً يبلغ السماء ووقى فتنة الدجال والله أعلم باسرار الكلام.

والكتاب من أوائل الكتب المهداة الى المكتبة.

إسم الكتاب: خلاصة المنهج: منهج الصادقين في تفسير القرآن المبين والزام المخالفين

رقم ٨/٩ [بالفارسية]

من التفاسير الشيعية المعتبرة، طبعاته القديمة في ثلاثة مجلدات كبيرة قياس (٣٥×٢٤سم) وطبعاته الجديدة في عشرة أجزاء قياس (٢٤×١٧سم) وهو تفسير مزجي مختصر أقرب الى الترجمة سماه المؤلف باسم «خلاصة المنهج». النسخة الموجودة من أول مقدمة الكتاب

الى آخر سورة الناس «دورة تفسيرية كاملة».

قال المرحوم آقا بزرگ الطهراني في الذريعة $\frac{٧}{٢٣٣-٢٣٤}$ ، طبع دارالاضواء، في ذيل عنوان «خلاصة المنهج»، ومختصره الموسوم بـ«زبدة التفاسير» ولكن صاحب ريحانة الادب يقول في الجزء الخامس ص٢٠ أن زبدة التفاسير تفسير عربي فيه أخبار أهل البيت (عليهم السّلام) وينقل كثيراً عن الكشاف وتفسير البيضاوي ومجمع البيان وجوامع الطبرسي أما منهج الصادقين وخلاصة المنهج فكلاهما باللغة الفارسية وقد ألف زبدة التفاسير بعد التفسيرين المذكورين فهو إذن تفسير مستقل يختلف عن ذينك التفسيرين.

تأليف: الكاشاني، فتح الله (٠٠٠-٩٨٨هـ).

الملا فتح الله إبن الملاّ شكر الله الكاشاني، فقيه، مفسر، محدث ومن أكابر علماء الشيعة في أواخر القرن العاشر الهجري، عاصر الشاه طهاسب، ومن تلاميذه علي بن حسن الزواري الذي يروي بواسطته عن المرحوم المحقق الكركي.

كان متبحراً في كل العلوم الدينية المتداولة في عصره خصوصاً في التفسير، حيث كان بعيد المدى عميق الغور متمكناً في هذا الفن وله تصانيف كثيرة، منها: تنبيه الغافلين، شرح نهج البلاغة [بالفارسية]، زبدة التفاسير، وكشف الاحتجاج -ترجمة إحتجاج الطبرسي-.

توفي سنة (٩٨٨هـ) في كشمير وأما تاريخ ولادته فمجهول.

موضوع الكتاب: التفسير.

الكاتب: ملا عبد الحكيم «والكلمة الاولى قبل ملا عبد الحكيم ضاعت بالتصحيف».

تاريخ التحرير: ١٢٠٢.

الخط: نسخ وفارسي جميل جداً.

عدد السطور: ٣١.

عدد الاوراق: ٦٣١.

العناوين: كتب الآيات القرآنية

بالحبـر الاحمر وعلم بعض الجمـل بخط أحمر فوقـها.

الهوامش: فيه هوامــش تصحيحية ودوائر مذهبة مزينة بالشنجرف لتحديد الجزء ونصــف الجزء وثلث الجـزء. وكل صفحـاته مجـدولـة ومخططة بخطـوط ذهبية وزرقــاء. والصفحة الاولى لـوحة مـذهبــة ومـرصعـــة والمتـن ذهبـــي ولاجوردي مزين بزهور ذات ألوان بديعة وظريفة.

أوله: بعد البسملة... حمـدى چون كلمات ربــانى بيغــايت شــايسته لطـف ايست كه از محض لطـف ابدى بواسطه وجود با وجود احمدى... الخ

آخره: اول وآخر قـرآن زچه بـا آمد وسين، يعنــى اندر ره در ديــن رهبر تــو قرآن بس. حسبنا الله ونعم النصير واليه المرجــع والمصير تمت خلاصــة المنهج بحمد الله رب العالمين.

الملك والاختــام: كتــب فــي ظهـر الصفحــة الاولــى «من متملكــات محمـد الاصفهاني١٢١٦» ومختوم بختم بيضوي مكتوب عليه «يامحمد».

من أوائل الكتب في المكتبة.

تأویل الآیات الظاهرة فی فضائل العترة الطاهرة
از شرف الدین علی الحسینی استرآبادی ق ۱۰
یک صفحه ناقص است

يستمعون القول فيتبعون أحسنه والقول هو القرآن ويؤيد هذا ما رواه الشيخ أبو جعفر الطوسي
بإسناده إلى الفضل بن شاذان عن داود بن كثير قال قلت لأبي عبد الله ع أنتم الصلوة في
كتاب الله عز وجل وأنتم الزكوة وأنتم الحج فقال يا داود نحن الصلوة في كتاب الله عز وجل
ونحن الزكوة ونحن الصيام ونحن الحج ونحن الشهر الحرام ونحن البلد الحرام ونحن كعبة الله
ونحن قبلة الله ونحن وجه الله قال الله تعالى فأينما تولوا فثم وجه الله ونحن الآيات
ونحن البينات وعدونا في كتاب الله عز وجل الفحشاء والمنكر والبغي والخمر والميسر
والأنصاب والأزلام والأصنام والأوثان والجبت والطاغوت والميتة والدم ولحم
الخنزير يا داود إن الله خلقنا فأكرم خلقنا وفضلنا وجعلنا أمناءه وحفظته وخزانه على ما في
السموات وما في الأرض وجعل لنا أضدادا وأعداء فسمانا في كتابه وكنى عن أسمائنا بأحسن
الأسماء وأحبها إليه تكنية عن العدو وسمى أضدادنا وأعداءنا في كتابه وكنى عن أسمائهم
وضرب لهم الأمثال في كتابه في أبغض الأسماء إليه وإلى عباده المتقين ويؤيد هذا ما رواه
أيضا عن الفضل بن شاذان بإسناده عن أبي عبد الله ع أنه قال نحن أصل كل خير ومن فروعنا
كل بر ومن البر التوحيد والصلوة والصيام وكظم الغيظ والعفو عن المسيء ورحمة الفقير
وتعاهد الجار والإقرار بالفضل لأهله وعدونا أصل كل شر ومن فروعهم كل قبيح وفاحشة
فمنهم الكذب والنميمة والبخل والقطيعة وأكل الربا وأكل مال اليتيم بغير حقه وتعدي الحدود التي
أمر الله عز وجل وركوب الفواحش ما ظهر منها وما بطن من الزنا والسرقة وكل ما وافق ذلك من
القبيح وكذب من قال إنه معنا وهو متعلق بفرع غيرنا ومن ذلك ما ذكره الشيخ أبو جعفر محمد بن
بابويه رحمة الله عليه في كتاب الاعتقادات وذكر شيئا من تأويل القرآن فقال قال الصادق ع
وما من آية في القرآن أولها يا أيها الذين آمنوا إلا وعلي بن أبي طالب أميرها وقائدها وشريفها
وأولها وما من آية تسوق إلى الجنة إلا في النبي والأئمة عليهم السلام وأشياعهم وأتباعهم وما من آية
تسوق إلى النار إلا وهي في أعدائهم والمخالفين لهم وإن كانت الآيات في ذكر الأولين فما كان منها
من خير فهو جار في أهل الخير وما كان منها من شر فهو جار في أهل الشر وليس في الأنبياء أفضل
من النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولا في الأوصياء أفضل من أوصيائه ولا في الأمم أفضل من هذه

عن عبد الله عن ابرهیم بن محمد عن سعید بن عثمان الخزاز قال سمعت ابا سعید المداینی یقول
کلا ان کتاب الابرار لفی علیین وما ادریک ما علیون کتاب مرقوم بالخیر مرقوم
بحب محمد وال محمد علیهم السلم ثم قال ان کتاب الفجار لفی سجین وما ادریک ما سجین
کتاب مرقوم ٭ وسجین موضع فی جهنم وانما سمی به الکتاب مجازا تسمیة الشیء باسم
مجاوره ومحله ای کتاب اعمالهم فی سجین ٭ وروی عن البراء بن عازب انه قال قال
رسول الله ص سجین اسفل سبع ارضین ٭ وروی ان عبد الله بن عباس جاء الی
کعب الاحبار وقال له اخبرنی عن قول الله عز وجل کلا ان کتاب الفجار لفی سجین فقال
ان روح الفاجر یصعد بها الی السماء فتابی السماء ان تقبلها فیهبط بها الی الارض فتابی
الارض ان تقبلها فتنزل سبع ارضین حتی ینتهی بها الی سجین وهو موضع جنود ابلیس
اللعین فعلیهم لعنة الله والملائکة والناس اجمعین ٭ واما معنی علیین فانه مراتب
عالیة محفوفة بالجلالة وقیل فی السماء السابعة وفیها ارواح المؤمنین وقیل هی فی سدرة
المنتهی وهی التی ینتهی الیها کل شیء من امر الله تعالی وقیل علیون الجنة وقیل هو لوح من
زبرجدة خضراء معلق تحت العرش اعمالهم مکتوبة فیه ٭ ... طاعاتهم وما تقر به اعینهم
... بعد کتاب الفجار ٭ ومما ورد ان علیین منزل النبی ص والائمة
صلوات الله علیهم ومنزل شیعتهم هو ما رواه ابو طاهر المقلد بن غالب عن رجاله
باسناده متصل الی علی بن شعبة الوابلی عن الحرث الهمدانی قال دخلت علی امیر المؤمنین
علی بن ابی طالب صلی الله علیه وهو ساجد یبکی حتی علا نحیبه وارتفع صوته بالبکاء
فقلنا یا امیر المؤمنین لقد امرضنا بکاؤک وامضنا واشجانا وما رایناک قد فعلت
مثل هذا الفعل قط فقال کنت ساجدا ادعو ربی بدعاء الخیرة فی سجدتی فغلبتنی عینی
فرایت رؤیا هالتنی واقلقتنی رایت رسول الله ص قائما وهو یقول یا ابا الحسن طالت
غیبتک عنی وقد اشتقت الی رؤیتک وقد انجز لی ربی ما وعدنی فیک فقلت یا رسول الله
وما الذی انجز لک فی قال انجز لی فیک وفی زوجتک وابنیک وذریتک فی الدرجات
العلی فی علیین وقلت بابی انت وامی یا رسول الله فشیعتنا قال شیعتنا معنا و

مفقود هم

بسم الله الرحمن الرحيم

بفتح الهاء وكسر الياء حمزة وبكسرها عاصم وبضمهما الحسن وقرأ الحسن ذكر رحمة ربك اى هذا المتلو من القرآن ذكر
رحمة ربك وقرئ ذكر على الامر اذ نادى ربه نداء خفيا لان الاخفاء والجهر عند الله سيان فكان الاخفاء اولى لانه
ابعد من الرياء وادخل في الاخلاص وعن الحسن نداء لا رياء فيه او اخفاه لئلا يلام على طلب الولد في ابان الكبر والشيخوخة
او لئلا يطلع عليه مواليه الذين خافهم او لان ضعف الهرم اخفى صوته واختلف في سن زكريا عليه السلام حينئذ فقيل ستون وقيل خمس وستون وقيل سبعون وقيل خمس وسبعون وقيل خمس وثمانون قال رب انى وهن العظم منى
وانما ذكر العظم لانه عمود البدن وبه قوامه وهو اصل بنائه فاذا وهن تداعى وتساقطت قوته ولانه اشد ما فيه و
اصلبه فاذا وهن كان ما وراءه اوهن وتوحيده لان الواحد هو الدال على معنى الجنسية وقصده الى ان هذا الجنس الذى هو العمود
والقوام واشد ما تركب منه الجسد قد اصابه الوهن ولو جمع لكان قصدا الى معنى آخر وهو انه لم يهن منه بعض عظامه
ولكن كلها واشتعل الراس شيبا شبه الشيب في بياضه وانارته بشواظ النار وانتشاره في الشعر وفشوه فيه
واخذه منه كل ماخذ باشتعالها ثم اخرجه مخرج الاستعارة ثم اسند الاشتعال الى مكان الشعر ومنبته وهو الراس واخرج
الشيب مميزا ولم يضف الراس اكتفاء بعلم المخاطب انه راس زكريا فمن ثم فصحت هذه الجملة وشهد لها بالبلاغة توسل
الى الله بما سلف له معه من الاستجابة وعن بعضهم ان محتاجا ساله وقال انا الذى احسنت الى وقت كذا فقال مرحبا بمن
توسل بنا الينا وقضى حاجته وانى خفت الموالى من ورائى يعنى بنى عمه وكانوا شرار بنى اسرائيل فخاف ان لا يحسنوا خلافته على امته ويبدلوا
وان لا يحسنوا الخلافة على امته فطلب عقبا من صلبه صالحا يقتدى به في احياء الدين ويرثهم مراسمه فيه من ورائى بعد
موتى وقرأ ابن كثير من وراى بالقصر والفتح وهو يتعلق بمحذوف او بمعنى الولاية
في الموالى اى خفت فعل الموالى وهو تبديلهم وسوء خلافتهم من ورائى او خفت الذين يلون الامر من ورائى وقرأ عثمان ومحمد بن على
وعلى بن الحسين رضى الله عنهم خفت الموالى من ورائى وهو على معنيين احدهما ان يكون وراى بمعنى خلفى وبعدى فيتعلق الظرف
بالموالى اى قلوا وعجزوا عن اقامة امر الدين فسال ربه تقويتهم ومظاهرتهم بولى يرزقه والثانى ان يكون بمعنى قدامى فيتعلق
بخفت ويريد انهم خفوا قدامه ودرجوا ولم يبق منهم من به تقوٍّ واعتضاد من لدنك فان مثله لا يرجى الا من فضلك وكمال قدرتك فانى وامرأتى لا نصلح للولادة وليا يرثنى
الى الله وصادرا من عنده ولا يحسن لى رببا يرثنى كتابا او اراد اختراعا منك بلا سبب لانى وامرأتى لا نصلح للولادة يرثنى
ويرث الجزم جواب الدعاء والرفع صفة وقرئ يرثنى وارث آل يعقوب وعن الجحدرى
اورث على التصغير وارث وقرئ وعن على رضى الله عنه وجماعة وارث من آل يعقوب اى يرثنى به وارث ويسمى التجريد
في علم البيان والمراد بالوراثة العلم لان الانبياء لا تورث المال وقيل يرثنى الحبورة وكان حبرا ويرث من آل
يعقوب الملك يقال ورثته وورثت منه لغتان وقيل من للتبعيض لا للتعدية لان آل يعقوب لم يكونوا كلهم انبياء ولا علماء
وكان زكريا عليه السلام من نسل سليمان بن داود عليهما السلام وهو يعقوب بن ماثان اخو زكريا وهو يعقوب هذا وعقب ابو مريم اخو
يحيى قبله وهذا شاهد على ان الاسماء كلها لم تكن مشتقة واتخذ العرب
يتبجح في التسمية بالاسامى الغريبة وان هذه عن التسمية حتى قال القائل في مدح قوم شنع الاسامى [illegible]
وقال رؤبة للنسابة اله عن نسبه انا ابن العجاج فقال قصرت وعرفت [illegible]
الغريبة هل تعلم له سميا مثلا سمى لان كل متشاكلين يسمى كل واحد منهما باسم المثل والشبيه والنظير

۲۳۶

ألطاف الحضرة المباركة المنتمي ... المحفوفة بمن يستمد بها بركات السماء ويستمطر بها ... فرغت منها يد المصنف تجاه الكعبة في جناح دار ... التي على باب أجياد الموسومة بمدرسة العلامة ... الاثنين الثالث والعشرين من ربيع الآخر عام ثمان وعشرين وخمسمائة والحمد لله على ما أظهر كرمه ... عبده ورسوله وعلى آله وأصحابه أجمعين

فرغ من تبييض الكشاف عن حقائق التنزيل حامدا لله العظيم الجليل
ومصليا على محمد رسول الله خير دليل العبد الضعيف
العاصي الراجي رحمة ربه يوم يؤخذ بالنواصي ...
بن يوسف بن محمد الفارابي غفر الله له ولوالديه
ولمن علمه ... ربه ... على
على الدين القويم وهداه الصراط
المستقيم يوم الاثنين
وقت الضحوة الثاني
الرابع عشر
من شعبان
سنه

بسم الله الرحمن الرحيم ۝

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ۝ والصلاة والسلام على نبي أمي فسره بالصواب
وعلى آله وصحبه أصحاب شرف الأنساب والأحساب ۝ ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا
كثيرا وما يذكر إلا أولو الألباب وبعد فهذا ما دعا إليه طلب كل راغب
ورغبة كل طالب ۝ من تفسير القرآن المبين ۝ وكشف الكتاب المستبين المقتطف
المفتقر إلى الله [illegible] المثنى ۝ تذكرة لنفسه ۝ وذخيرة لرمسه ۝ لقاه
الله نضرة وسرورا [illegible] على غب الأقوال ومبينا إعراب ما يقتضيه الحال ومقتصرا
على قراءة الإمام ۝ الجهبذ الهمام حفص من رواة الأستاذ المتقن ۝ المقرئ الملقن ۝
عاصم قدس الله أرواحهم ۝ وجعل رياض الجنان مراحهم ۝ على وجه لطيف عزيزه
وتعبير عن الوجيز بدأت به مستعينا بالله مستزيدا لنواله ۝ [illegible] فاستهوا وأضاله
في وطني ۝ وشربة عطني ۝ ومسقط رأسي ۝ مشرق نبراسي بلدة القصار من أعالي
صار وفان في مستهل رمضان ۝ لسنة [illegible] ۝ من هجرة نبي
مبعوث إلى الكل [illegible] عليه من الله القدوس السلام ۝ أزكى الصلاة والسلام ۝ ما دارت
مخيلة السماء واخضرت خميلة الغبراء فبحمد الله تعالى تم [illegible] توالي تشرفت من
ميامنه بشجة للحرم النبوي في آخر الربيعين لسنة ثنتين وتسعين بشرف
الخدمة ليلة الثلاثاء سابع شهر صفر لسنة ثلاث ۝ وسميته تنزيل التنزيل
وأسأل الله نفعه الجزيل وحسبي الله ونعم الوكيل ۝ لا ريب أن الجلالة المعظمة ۝
لاستجماعها صفات الذات وصفات الأفعال المنوط بها ما انطوى عليه المعاش
والمعاد من النعيم والنعيم فاتحة البسملة وهي لانطوائها على صفتي الرحمن الرحيم
المستفاد منهما ربوبيتها للعالمين ۝ ومالكية يوم الدين ۝ المستحق لا محالة موصوفها
[illegible] والاستعانة به فاتحة الفاتحة سورة فاتحة الكتاب

حولا مصدر كصغر اي تحولا الى غيرها اذ لا اطيب منها ولما نزل قوله وما اوتيتم
من العلم الا قليلا وقالت اليهود قد اوتينا التورية وفيها علم كل شيء نزل جوابا عن هذا
قل لو كان البحر اي ماء جنسه مدادا هو ما يمد به الدواة ويسمى به لامداده الكاتب
لكلمات ربي اي لكتابة كلمات علمه وحكمته لنفد البحر قبل ان تنفد بالتحتية كلمات
ربي ولو جئنا بمثله بمثل البحر مددا زيادة فيه لنفد ولم تنفد ونصبه على التمييز
والمعنى ان مثل ذلك قطرة من بحر كلمات الله قل يا محمد انما انا بشر مثلكم لا املك
يوحى الي انما الهكم اله واحد ومزيتي عليكم بنزول الوحي علي وعلمي مقتبس منه
وعلم الله لا يتناهى واشار بالوحدانية لان المخاطبين كانوا عبدة الاصنام فمن كان
يرجو لقاء ربه يأمل او يخاف والرجاء بمعنى الامل والخوف كما في قوله فما كل ما نرجوا من الخير كائن
ولا كل ما نحذر من الشر واقع لقاء ربه بالبعث والجزاء حث على ما فيه النجاة والنجاح
فليعمل عملا صالحا خالصا لوجه الله ولا يشرك بعبادة ربه اي فيها احدا بان يرائي
والرياء شرك خفي والاية جامعة لخلاصتي العلم والعمل وهما التوحيد والاخلاص في
العبادة وعن عبد الله بن ابي فروة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الا ادلكم على
سورة شيعها سبعون الف ملك حين نزلت ملأ عظمها ما بين السماء والارض ولتاليها مثل
ذلك قالوا بلى يا رسول الله قال سورة الكهف من قرأها يوم الجمعة غفر له الى يوم الجمعة
الاخرى وزيادة ثلاثة ايام واعطي نورا يبلغ السماء ووقي فتنة الدجال والله اعلم باسرار كلامه





حمدی چون کلمات ربانی بی‌غایت شایستهٔ لطیفیست که از محض لطف ابدی بطون وجود را به وجود آورده و حمدی که سفینهٔ کاینات را از بادیهٔ ضلالت به سرحد ایمان رسانیده و سر

مانند معانی قرآنی بی‌نهایت سزاوار کریمیست که از کمال کرامت ازلی و عین عنایت لم یزلی به وسیلهٔ نور فرقانی انسان را از ظلمت کدهٔ جهالت به ضیای فضای معرفت راه نموده

و او را اشرف مخلوقات گردانید و درود نامعدود و دلایل بلیغیست که از وجه بلاغت کشف مجملات و تفسیر متشابهات آن نموده و صلوات نامحدود در خور فصیحیست که از راه

فصاحت تبیان حجت قرآن و بیان معانی فرقان نموده و تسلیمات عنبر نثار و تحیات بلا انتهای بر آل اطهار و عترت ابرار او باد که هر یک از ایشان به نص الهی کشاف اصول

دین متین و مبین تفسیر و شرع مبین بوده‌اند و به تایید سبحانی جامع آیات ظاهره و آداب محکمهٔ سید المرسلین اند صلوات الله و سلامه علیهم اجمعین اما بعد بر اذهان

صافیه و افکار زاکیه مخفی نیست که علمی که مثمر سعادت جاودانی و مصلح امور دنیویست علم قرآنست چه آن ماخذ اصول شریعت مصطفوی و مصدر فروع ملت نبویست

که عمل کردن بدان سبب رستگاری دنیا و عقبی است پس دانستن این علم شریف ضروری باشد و چون به تایید ربانی و توفیق سبحانی تفسیر منهج الصادقین فی الزام المخالفین

که محتوی بر پنج مجلد است تخمیناً بر صد و هشتاد هزار بیت ترتیبی کامل و تالیفی شامل به حسن اختتام پذیرفت و به نظر بعضی از اخوان دینی حفظهم الله عن جمیع بلایای الزمان

رسید و عز قبول یافت به خاطر فاتر قاصر مؤلف و جامع آن المفتقر الی غفران ربه اللطیف السبحانی ابن شکرالله فتح الله الکاشانی عفی الله عنهما و اولی الابصار رسید که چون

تفسیر مذکور منطوی است بر حل جمیع لغات و تراکیب نحویه و اسرار و نکات عربیه و مشتمل بر کثرت ادله و براهین در بطلان مذهب مخالفین و رفع شبهات معاندین و اثبات

مذهب ائمه معصومین صلوات الله علیهم اجمعین و ذکر اکثر مذاهب علما و فقها در مسایل کلامیه و فقهیه و غیر آن و بیان قصص مطوله و حکایات مفصله که ناقلان نقل نمایند

و جهت این مطالعهٔ آن بر بعضی از اهل ایمان که به جهت شواغل و موانع روزگار از تحصیل علوم و آداب محروم مانده بودند و نیز به واسطهٔ کثرت قصص و اخبار بعضی از مطالعهٔ

آن کلال می‌یافتند عنان توجه را به جانب آن معطوف سازد و اقتصار بر ترجمهٔ قرآنی نماید و در این ترجمه که مسمی است به خلاصة المنهج بعد از ملاحظهٔ حذف و اضمار و بیان

تخصیص و تعمیم و حقیقت و مجاز اقوال مشهورهٔ مفسرین در معانی قرآنی که معتمد باشند در مذهب امامیه به سمت تحریر خواهد یافت و از اسباب نزول و قصص انبیا و فضل سور

و آیات به وجهی که منقول است باسانید صحیحه به طریق خیر الکلام ما قل و دل مذکور خواهد گشت و از قراء سبعه بر روایت ابوبکر از عاصم که در میان عجم شهرتی تمام دارد اختصار

خواهد رفت و بعضی کلمات که حفص را با وی طریق مخالفت است و در معنی کلام به سبب آن اختلاف تغییری می‌باید اشارتی بآن خواهد شد و پیش از شروع در مقصود مقدمه

از پری و آدمی هست یعنی شیطان بر دو نوع است جنی و انسی کقوله تعالی شیاطین الجن والانس و مراد شیاطین اهل کفر و ضلال

که مردمان را بر کفر و ضلالت میدارند و بتسویلات و بسبب مصاحبت ایشان گمراه میسازند و در تعبیر تعالی بسیار آمده که لفظ ناس در این

سوره پنج نوبت واقع شده اگرچه بظاهر تکرار مینماید اما بحسب معنی مکرر نیست چه اول باول للاطفال اند و معنی ربوبیت و الست بران

و ثانی مردمان را لفظ ملک که دلیلست بقهر و سیاست و سوم ... واسم آله که تعریف است تعالی عبادت و عبادت

مبنی است بران و رابع صالحان که موسوس مولع است باغوای ایشان و خامس ... و ملک آن بمعوذه دلالت میکند

بران و به آنکه در افتتاح کلام الهی بحرف با و باختتام بحرف سین ... عجب و رمز هست چه از آن هر دو حرف

ترکیب بس است ... بس معنی آنست که حسبک من الکونین ... یعنی کافیست

ترا هر دو جهان آنچه عطا کردیم از میان این دو حرف یعنی قرآن کافیست از برای هر مومنی و مومنه در تحصیل مرادات دنیویه و اخرویه

بحسب تلاوت آن و توبه آن و اشتغال بمطالعه آن و عمل بامور و منهی آن و از نوادر اتفاقات آنست که این دو حرف در لغت

فارسی بس بمعنی حسب است یعنی بسند و حکیم سنایی در این باب گفته است اول و آخر قرآن ز چه با آمد و سین

یعنی اندر ره دین رهبر تو قرآن بس حسبنا الله و نعم النصیر و الیه المرجع و المصیر تمت الخلاصة المنهج بحمد الله

رب العالمین و صلی الله علی محمد و آله اجمعین الطیبین الطاهرین اللهم اجعل ... غفرانک و ...

الی العزیز ... الثواب یوم الدین و سببا لغفران ... والدی ...

... الانبیا و خیر الاوصیا اللهم الذین مصابیح الدجی و ائمه

الهدی ... رحم الله عبدا قال آمینا اللهم اغفر

لکاتبه و لقاریه و لمن نظر فیه

... عبد الحکیم

بتاریخ شانزدهم
شهر رجب المرجب سنه ۱۲..